جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association

الموجز في التاريخ



د. عبد المعين الطلفاح

جمعية البلاغ الثقافية

الموجز في التاريخ

د. عبد المعين الطلفاح

جمعية البلاغ الثقافية - قطر



جمعية البلاغ الثقافية لخدمة الإسلام على الإنترنت

Al-Balagh Cultural Association



إسلام أون لاين

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:	Legal Deposit No / 2026 / 1187
الرقم الدولي (ردمك):	ISBN 9789927203237

الطبعة الأولى

1448هـ - 2026م

جميع الحقوق محفوظة

جمعية البلاغ الثقافية –قطر

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فإنه لم يتعرض تاريخ أمة من الأمم لمحاولات التشويه والتزوير ما تعرض له تاريخ المسلمين على اختلاف مراحله قديمًا وحديثًا، سواء في ذلك تاريخ الأحداث والوقائع أم تاريخ الرجال وسيرهم، ولا سيما منه تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم عمومًا، ومرحلة الخلافة الراشدة خصوصًا، ذلك أن هذه المرحلة بالخصوص تمثل النموذج العملي التطبيقي الواقعي لأحكام الإسلام، والامتداد الطبيعي لسيرته صلى الله عليه وسلم، وأصحابه هم حملة الدين ونقلته من بعده.

وقد تولى كبر حملات التشويه والتزوير في صدر الإسلام طائفة من الزنادقة أرادوا من ذلك الطعنَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبرسالته فوقعوا في أصحابه. قال أبو زرعة: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أَولى، وهم زنادقة"[1].

ثم جاء المستشرقون فاختصروا الطريق للزنادقة، ذلك أنه لما منيت الحملات الصليبية على بلاد المسلمين بالفشل العسكري، ولم تستطع تحقيق أهدافها بالقضاء على الإسلام والمسلمين؛ قامت بغزوها الفكري والثقافي على الإسلام وأهله، وبدأت حركة المستشرقين "وكان التاريخ الإسلامي هو الميدان الذي بدأ هؤلاء يصولون ويجولون فيه تحت ستار المنهجية العلمية والعقلانية"[2]، وظهر على أيديهم مرة أخرى الانتقاص من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشويه سيرهم، بل والطعن في الوحي والرسالة، وبمراحل التاريخ الإسلامي كله.

1- البغدادي، أحمد بن علي، الكفاية في علم الرواية، تحقيق: أبو عبدالله السورقي وغيره (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د. ط، د. ت) 1/49.

2- الكيلاني، إسماعيل الكيلاني، لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق (بيروت: المكتب الإسلامي، ط 2، 1413/1993) ص:20.

يقول الدكتور محمد البهي مبينًا دوافع الدراسات الاستشراقية للتاريخ الإسلامية والطريقة التي تُشاع بها تلك الدراسات: "ودراسة المستشرقين للإسلام قامت أولا بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه؛ حرصًا على مذهب الكثلكة من جانب، وتعويضًا عن الهزائم الصليبية (تحرير بيت المقدس) من جانب آخر. ثم تبنى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها، حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامي في صورة كتب تؤلف وترسل لطلاب الثقافة، أو في صورة طلاب من الشرق الإسلامي يُدعون أو يعانون على الدراسة هناك، ثم يمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكنون بها من الظفر بوظيفة التوجيه في الكليات النظرية في الجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي"[1].

ولذا كان لزامًا على كل مسلم غيور على أمته ودينه أن يولي قراءة التاريخ ودراسته جانبًا كبيرًا من أولوياته، ولا ينظر إليه باحتقار وازدراء ظنًا منه أنه مجرد أخبار وقصص مضت، بل إن في دراسة التاريخ من الفوائد الدنيوية والأخروية الكثير. يذكر ابن الأثير جانبًا كبيرًا من تلك الفوائد ومما ذكره: "أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحدوثة، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال؛ استقبحوها وأعرضوا عنها واطَّرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالهم درت؛ استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه، وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا نفائس المدن، وعظيم الممالك، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرًا"[2].

ولما كان أمر التاريخ بهذه الأهمية والخطورة، وكان كثير من الناس لا يحسنون يتعاملون مع كتب التاريخ، ويستطيلون القراءة فيها؛ استعنت الله تعالى على قراءة كثير من كتب التاريخ،

1- البهي، محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (القاهرة: مكتبة وهبه، ط 4، د. ت) ص 11.
2- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 1، 1417/1997) 1/10.

سواء منها كتب المتقدمين أم المتأخرين، وإخراج كتاب يعرض للقارئ خلاصة من تاريخنا الإسلامي تسهل عليه النظر في كتب التاريخ، وقد سميته: (الموجز في التاريخ)، أذكر فيه أهم دول الإسلام، بدءًا من دولة الخلفاء الراشدين، وانتهاء بالدولة العثمانية، مرورًا بأهم الدويلات التي قامت في ظل الخلافة العباسية، وقد اكتفيت بذكر تلك الدويلات عن ذكر تاريخ الدولة العباسية.

ولم أرد من خلال هذا الموجز أن أقدم نفسي للقارئ مؤرخًا، ولا أن أجعل منه مؤرخًا، وإنما أردت أن أقدم للقارئ اختصار ما قرأته من كتب التاريخ؛ ليطلَّ من خلاله على أهم حقب تاريخنا الإسلامي بشكل مختصر، لتكون تلك الحقب واضحة أمامه إن أراد التوسع في قراءة تاريخ حقبة منها.

والله وحده المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

وكتبه: عبد المعين الطلفاح

الدوحة/قطر

23/ذو القعدة،**1442**/الموافق: **3/7/2021**.



محتوى الكتاب

الفصل الأول: عهد أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

الفصل الثاني: عهد عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

الفصل الثالث: عهد الدولة الأموية.

الفصل الرابع: عهد دولة السلاجقة والباطنيون.

الفصل الخامس: عهد الدولة الزنكية والأيوبية.

الفصل السادس: عهد دولتي المرابطين والموحدين.

الفصل السابع: المغول ودولة المماليك.

الفصل الثامن: عهد الدولة العثمانية.



الفصل الأول:
عهد أبو بكر وعمر

المبحث الأول: عهد أبو بكر الصديق

المبحث الثاني: الفتوحات زمن الصديق

المبحث الثالث: عهد عمر بن الخطاب

المبحث الرابع: الفتوحات زمن عمر

المبحث الأول: عهد أبو بكر الصديق

إسلام الصديق وصحبته رسول الله ﷺ.

هو عبد الله بن عثمان بن عامر من بني تيم، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب، ولد بعد عام الفيل بنحو ثلاث سنين، يكنى أبا بكر[1]، كان رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال، لم يتردد لحظة في تصديق رسول الله ﷺ، ولم يتلكأ، فما إن دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام؛ إلا واستجاب له، بل لقد عاهد الصديقُ رسولَ الله ﷺ على نصرته في دعوته؛ فمنذ بداية إسلامه رضي الله عنه حمل همَّ هذه الدعوة على عاتقه؛ وخرج يدعو إليها، وكانت باكورة ثمار دعوته؛ دخول صفوة الخلق في الإسلام: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسود، والأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنهم، وكان هؤلاء الرجال دعامة الإسلام الأولى، التي قام عليها صرحه، بهم أعز الله نبيه ﷺ، وبهم أيَّده، فهم كتيبة الإسلام الأولى وحصنه، لم يسبقهم سابق، ولم يلحقهم لاحق، في تاريخ الإسلام.

صحب الصديقُ رسولَ الله ﷺ في كل مراحل دعوته في مكة، وناله في سبيل ذلك الأذى والضرُّ من قريش، فضُرب وعُذب رضي الله عنه، وحثي التراب على وجهه؛ بل لقد كاد يفقد حياته رضي الله عنه في سبيل إعلان هذه الدعوة في مكة، والصدع بها أمام قريش، ولم يزده الضرُّ إلا رسوخًا في الإيمان، وثباتًا على العقيدة، ولم يكتفِ بمناصرة رسول الله ﷺ والذود عنه، بل لقد واسى بماله المسلمين المستضعفين في مكة، كبلال الحبشي، الذي اشتراه وأعتقه لله، وغيره أيضًا.

ولما اشتد أذى قريش على المسلمين؛ خرج الصديق مهاجرًا إلى الحبشة، فلقيه ابن الدغنة، وقال له: مثلك يا أبا بكر لا يَخرج، ولا يُخرج، إنك لتكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق؛ فأعاده إلى مكة، وأدخله في جواره،

ثم ردَّ عليه الصديق جواره؛ لما أخذ ابن الدغنة يستمع لقريش، ثم لمَّا أنكر الناس

1- ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1415 هـ) 144/4.

على رسول الله ﷺ حادثة الإسراء؛ كان الصديق من أول من صدقه؛ فسمي الصديق لذلك[1].

ثم صاحب أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ في هجرته إلى المدينة المنورة، وبات معه في الغار ثلاث ليال، إلى أن هدأ الطلب، ويئس المشركون من العثور عليهما، ولقد سجل الحق سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: **40**).

وفي المدينة كانت حياة الصديق رضي الله عنه مليئةً بالدروس والعبر، تركت لنا نموذجًا حيًّا لفهم الإسلام، وتطبيقه في دنيا الناس، وقد تميزت شخصيته بصفات عظيمة، ومدحه رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، بينت فضله ومكانته، وتقدمه على الصحابة رضي الله عنهم، ومن أعظم ذلك قوله ﷺ: «إنَّ من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقينَ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابَ أبي بكر»[2].

وقد ذكر أهل السير، أن الصديق رضي الله عنه شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، ولم يفته منها مشهد، وثبت معه يوم أحد، وكان له موقف عظيم في اتباع رسول الله رضي الله عنه يوم الحديبية، وأعطاه النبي ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وكانت سوداء، وأمَّره على الحج سنة (**9**) للهجرة، وكانت له رضي الله عنه مواقف مع اليهود، المكذبين لله ورسوله، وأنزل الله تصديقًا له قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، وقدمه رسول الله ﷺ في مرضه ليصلي بالناس.

ظهرت عظمة الصديق رضي الله عنه ، وقوة إيمانه ويقينه؛ بعد وفاة رسول الله ﷺ، في تلك المصيبة التي ما شهدت الدنيا أعظم مصيبة منها ولا أشد، اضطرب فيها أمر الناس، ولم يصدقوا أن رسول الله ﷺ قد مات، بما فيهم الفاروق عمر رضي الله عنه! حتى جاء الصديق، فأجلى للناس الأمر، فخطبهم، وتلا عليهم قول الله تعالى:

1- ينظر: الصلابي، علي الصلابي، أبو بكر الصديق (بيروت: 1430 هـ/2009 م) ص: 40/32/17.

2- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر (دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1، ت: 1422هـ) 4/5.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: **144**)؛ فأدرك الجميع أن رسول الله ﷺ قد مات حقاً.

سقيفة بني ساعدة وبيعة الصديق

ما إن مات رسول الله ﷺ حتى كره المسلمون أن يبيتوا بلا إمام؛ فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، يتداولون الرأي فيمن يلي الخلافة بعد رسول الله ﷺ؛ ثم التفوا حول زعيم الخزرج: سعد بن عبادة رضي الله عنه، يبايعونه خليفةً للمسلمين، ولما بلغ المهاجرين اجتماع الأنصار لذلك، وكانوا مجتمعين مع الصديق؛ لترشيح من يتولى الخلافة؛ قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيبًا.

يقول عمر رضي الله عنه: فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة؛ فإذا رجل مُزمِّل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك، فلما جلسنا قليلًا تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهطٌ منَّا، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت -هيَّأتُ- مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحدِّ، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رِسْلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها حتى سكت، فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم؛ أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللَّهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحكَّك، وعُذيقُها المرجب

-أي: ذو الرأي والتدبير-، منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده؛ فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار[1].

رِدة الأعراب عن الإسلام

أسفرت مفاوضات كبار الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، عن مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة للمسلمين، وقد واجه الصديق رضي الله عنه منذ أيامه الأولى في الخلافة أمورًا جسامًا، كادت تقضي على الإسلام وأهله؛ لولا ثباته وجلده رضي الله عنه؛ ذلك أن كثيرًا من الأعراب، حديثي العهد بالإسلام، ما إن سمعوا بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدوا عن الإسلام، وارتدت معهم بعض القبائل، وذلك لا يعني أن كلَّ المسلمين قد ارتدوا عن الإسلام، ولم يبقَ منهم على الإسلام إلا مكة والمدينة وثقيفٌ؛ كما توهَّم البعض، فلم يثبت أن جميع أفراد القبائل العربية وزعمائها قد ارتدوا كلهم عن الإسلام، بل لقد بقي الكثير منهم ثابتًا على دينه وإسلامه؛ وكانوا سندًا قويًا للإسلام ودولته، اعتمد عليهم الصديق رضي الله عنه في تصديه لهذه الفتنة الطارئة، وقمعها من الداخل، كأسلم وغفار، ومزينة وأشجع، وكعب وعدد كبير من أهل اليمن، من الفرس الذين أسلموا، ومن العرب أيضًا؛ ولذا أقدموا على قتل الأسود العنسي، الذي ادعى النبوة زمن النبي ﷺ، ومحاربة أتباعه من بعده، قتله أهل اليمن بقيادة: فيروز الديلمي؛ الذي ولَّاه الصديق فيما بعد قيادة الثابتين على إسلامهم في صنعاء، كما ذكر ذلك مفصلاً الدكتور: مهدي رزق في كتابه: (الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة).

لقد كان من المرتدين من كفر بالله ورسوله، وارتدَّ عن الإسلام ردة كاملة، وعاد للوثنية وعبادة الأصنام، وكان منهم من بقي على إيمانه بالله ورسوله؛ لكنه آمن برسالة غيره، ممن ادعى النبوة زمن النبي ﷺ، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وكان منهم من منع دفع الزكاة للصديق فقط؛ فكان على الصديق أن يواجه أولئك القوم كلهم؛ لا سيما وقد أخذ بعضهم يتعرض للمسلمين، بل لقد أقدم بعضهم على مهاجمة المدينة المنورة؛ حدث كل هذا؛ وجيش أسامة بن زيد يستعد للذهاب لملاقاة الروم، فأشار بعض الصحابة على الصديق ألا يرسل الجيش، وأن يبقيه حوله؛ استعدادًا لأي مكروه يطرأ، ولكن الصديق عزم على إرسال الجيش، ومواجهة المرتدين في نفس الوقت، فأرسل جيش أسامة، بعد أن شيعه بنفسه، وكان في ذلك أعظم الخير للمسلمين، فقالت الروم: ما بال هؤلاء يموت

1- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 168/8.

صاحبهم، ثم يغيرون على أرضنا، وقالت العرب: لو لم يكن لهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش؛ فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون فعله[1].

حروب الردة

جاءت بعض الوفود التي امتنعت عن دفع الزكاة؛ تحاول إقناع الصديق للتنازل عن أخذها؛ لكن الصديق أبى ذلك؛ فانصرفت الوفود بعدما رأت عزم الصديق على أخذها، وخرجت من عنده بأمرين:

الأول: أن أمر الإسلام في الزكاة واضح، لا يقبل المفاوضة، ولا أمل في تنازل الصديق عنها؛ لا سيما بعد تأييد المسلمين له، واقتناعهم بدليله على ذلك.

الثاني: أنه لا بد من اغتنام فرصة ضعف المسلمين في المدينة، وقلة عددهم فيها؛ وشن هجوم كاسح عليهم، يقضي على الحكم الإسلامي في المدينة.

رأى الصديق رضي الله عنه بفراسته، وإلهام الله له ما في وجوه القوم من الخسة واللؤم والغدر، فقال لأصحابه: "إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلًا تُؤتون أم نهارًا؟ وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم؛ فاستعدوا، وأعدوا"[2]، ووضع رضي الله عنه خطة لمواجهة غدرهم؛ فأمر أهل المدينة بالمبيت في المسجد؛ ليكونوا على أكمل استعداد؛ لمواجهة أي طارئ، ونظَّم الحرس على أطراف المدينة، وعين عليهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، ثم بعث إلى القبائل التي حوله ممن ثبت على الإسلام، يأمرهم بجهاد أهل الردة؛ فاستجابوا له، حتى امتلأت المدينة بهم، جاؤوا بخيلهم وجمالهم، ووضعوها كلها تحت تصرف الصديق رضي الله عنه.

بعد ثلاثة أيام طرقت تلك الوفود المدينة ليلاً؛ فانتبه لهم حرس الأنقاب، وأخبروا الصديق بذلك؛ فخرج إليهم بأهل المسجد إلى ذي حُسَي؛ فنفرت إبل المسلمين من القِرَب التي ألقوها أمامها، ولا تنفر الإبل من شيء نفرتها من ذلك، فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة؛ فظن القوم بالمسلمين الوهن؛ فبعثوا إلى أهل ذي القصة[3]

1- ينظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 1، 1997/1417) 194/2.

2- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري (بيروت: دار التراث، ط 2، 1387) 245/3.

3- موضع قريب من المدينة، ينظر: الزَّبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين (دار الهداية، د. ت، د. ط)

بالخبر، فقدموا عليهم، وهم لا يشعرون لأمر الله سبحانه، وبات أبو بكر ليلته يتهيأ، فعبأ الناس، ثم خرج إليهم، وأنزل فيهم السيف، وما ذرَّ قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وقتل حِبال -أخو طليحة الأسدي- وأتبعهم الصديق حتى نزل بذي القصة، ووضع بها النعمان بن مقرن، ثم رجع إلى المدينة، ووثب المسلمون من بني عبس وذبيان فقتلوا المرتدين من أقوامهم، وفعل غيرهم فعلهم، وعزَّ المسلمون بوقعة أبي بكر رضي الله عنه، وازداد المسلمون في بقية القبائل ثباتاً على دينهم، وازداد المرتدون ذلاً وضعفًا وهواناً، وبدأت صدقات القبائل تفد المدينة تباعًا، وخلال هذه البشائر التي كانت تطل على المدينة؛ رجع أسامة بن زيد رضي الله عنه بجيشه ظافرًا، بعد أن صنع ما كان رسول الله ﷺ قد أمره به.

كان الثابتون على الإسلام في القبائل البعيدة عن المدينة المنورة يدعون أقوامهم المرتدين للعودة إلى حظيرة الإسلام، ولما لم يستجب لهم أقوامهم؛ أخذوا يجالدونهم، حتى استطاع أهل اليمن منهم قتل الأسود العنسي، وكان هؤلاء الرجال من أعظم الركائز التي اعتمد عليها الصديق رضي الله عنه -بعد الله تعالى- في قضائه على الردة من الداخل؛ فقد قاموا بأدوار مهمة في وأد هذه الفتنة.

أرسل الصديق إلى المرتدين في أطراف الجزيرة العربية الكتب والرسائل، يدعوهم فيها للعودة إلى حظيرة الإسلام، وكان يهدف زيادة على ذلك؛ أن يكسب الوقت حتى يعود جيش أسامة من الشام، وبعد أن عاد الجيش؛ عزم الصديق على الخروج إليهم بنفسه، وقتال من أصرَّ منهم على ردته؛ لكن المسلمين أبوا عليه الخروج بنفسه، وطلبوا منه البقاء في المدينة، وإرسال من ينوب عنه في ذلك؛ فعقد الصديق ألوية الجيش الإسلامي في ذي القصَّة، التي اتخذها مركزًا لانطلاق الجيوش، وقسم جيشه إلى اثني عشر لواءً، جعل على كل لواء أميرًا، ثم بثهم في الجزيرة كلها، وجعل خالد بن الوليد رضي الله عنه القائد العام لهذه الألوية كلها[1].

انطلقت الألوية التي عقدها الصديق، ترفرف عليها أعلام التوحيد، مصحوبة بدعوات خالصة، من قلوب تعظم المولى سبحانه، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكره جل وعلا؛ فاستجاب الله هذه الدعوات النقية، فأنزل عليها نصره، وأعلى بهم كلمته، وحمى بهم دينه، حتى دانت جزيرة العرب للإسلام، في أشهر معدودة، بعد أن قضى أولئك

1- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية (دمشق: دار الفكر، د. ط، 1986/1407) 6/313-314.

الرجال على فتنة الأسود العنسي، وأتباعه من أهل اليمن، وعاد اليمن كله إلى حظيرة الإسلام، وأعلن الطاعة لخليفة المسلمين، كما قضى أولئك الأبطال على فتنة طليحة الأسدي وأتباعه، فتشتت أمره، وهزم أنصاره أمام ضربات خالد، وتخذيل عدي بن حاتم رضي الله عنه لأتباعه، وإرجاع كثير منهم إلى الإسلام؛[1] حتى فرَّ طليحة بزوجته إلى الشام.

وقضى المسلمون على فتنة سجاح التغلبية، كما قضوا أيضًا على فتنة أهل عُمان، الذين ارتدوا عن الإسلام، واتبعوا لقيط بن مالك الأزدي، الذي ادعى النبوة، وقضوا بقيادة العلاء بن الحضرمي، والمثنى بن حارثة على ردة أهل البحرين، وقد كان للصحابي الجليل: الجارود بن المعلَّى رضي الله عنه موقفٌ عظيم في وأد هذه الفتنة في البحرين، وتثبيت أهله على الإسلام، فرضي الله عنه وأرضاه[2].

فتنة مسيلمة الكذاب

إن من أعظم ما واجهه المسلمون من المرتدين فتنةَ مسيلمة الكذاب، وأتباعه من أهل اليمامة، ولا سيما قومه: بني حنيفة؛ ذلك أن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ورسول الله ﷺ في مكة لم يهاجر بعد، وبعد الهجرة؛ لـمَّا جاءت وفود القبائل إلى المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة تعلن إسلامها؛ جاء وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب؛ فأسلموا إلا مسيلمة، الذي كان يطمع في الملك والرياسة، فقال: "إن جعل لي محمد الأمر بعده تبعته" فلما سمع النبي ﷺ مقالته أقبل إليه، وفي يده قطعة جريد، فقال له ﷺ: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما رأيت»[3].

بعد أن رجع مسيلمة إلى اليمامة؛ ادعى أنه أُشرك في النبوة، فتبعه قومه، بل لقد تجرَّأ الخبيث فأرسل إلى رسول الله ﷺ، يبلغه أن قد أشرك معه في الأمر؛ فرد عليه رسول الله ﷺ قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد؛ فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى»[4] وقال رسول الله ﷺ لرسوليْ مسيلمة: «وماذا تقولان أنتما؟» فقالا: نقول

1- المصدر السابق، 317/6.
2- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، 222/2.
3- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص: 203/4.
4- البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط 1، 2003/1423) 40/3.

كما قال، فقال ﷺ: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم»[1].

لقد كان من أعظم ما فتن به الناس؛ غير ما كان يظهره مسيلمة من الخزعبلات والخرافات والكهنة؛ ما قاله الرَّجَّال بن عنفوة الحنفي؛ وهو رجل كان قد أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ، وحفظ شيئًا من القرآن، ثم أرسله رسول الله ﷺ إلى مسيلمة يستوضح أمره، ويخذل الناس عنه؛ وما إن وصل الرَّجَّالُ حتى انقلب على وجهه، وأخذ يشهد لمسيلمة أمام الناس أن رسول الله ﷺ قد أشركه معه في النبوة، فكانت فتنته أشد على الناس من فتنة مسيلمة الكذاب نفسه[2]، وكان النبي ﷺ قد أرسل رسالة إلى مسيلمة الكذاب مع الصحابي الجليل: حبيب بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، فما كان من مسيلمة الكذاب إلا أن قتل حبيبًا قِتلة شنيعةً؛ لرفضه التصديق بنبوته[3]، ومات رسول الله ﷺ ولم يقاتل مسيلمة الكذاب، حتى خلفه الصديق رضي الله عنه على المسلمين فقاتل مسيلمة، وقضى على فتنته.

وجه الصديق رضي الله عنه خالدَ بن الوليد بجيش لقتال مسيلمة وأتباعه، وكان للصحابي الجليل: ثمامة بن أثال موقف عظيم في تثبيت عدد كبير من قومه بني حنيفة على الإسلام، وثنيهم عن اتباع مسيلمة، وهذا يدل على أن كثيرًا من بني حنيفة قد ثبتوا على إسلامهم، ولم يتبعوا مسيلمة الكذاب، لا في حياة رسول الله ﷺ، ولا بعد موته، ولما سمع مسيلمة بمقدم خالد؛ ندب الناس للقتال، وعزم على قتال خالد، وعسكر بمكان قرب اليمامة، يقال له: عقرباء، وفيه دارت بين المسلمين والمرتدين معركة عظيمة، لقي المسلمون فيها عنتًا وبسالةً من أتباع مسيلمة الكذاب، فقد قاتل بنو حنيفة قتالًا لم يعهد مثله، فقُتل من المسلمين عدد كبير، قُدر بخمسمائة أو أكثر، فيهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، كما قتل من جيش مسيلمة عدد أكبر من ذلك بكثير، قُدر بنحو عشرين ألفًا، على رأسهم مسيلمة الكذاب نفسه، قتله وحشي بحربته، وقطع رأسَه أبو دجانة بالسيف، وكانت الغلبة للمسلمين، ووفد بعدها بنو حنيفة على الصديق رضي الله عنه[4].

1- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط 1، 2009/1430) 389/4، شعيب الأرناؤوط: صحيح بطرقه وشواهده.

2- الحميري، سليمان بن موسى، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1420) 113/2.

3- ينظر: أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (القاهرة: دار السعادة، د. ط، 1974/1394) 355/1.

4- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق: 357/6-358.

جمع القرآن

قُتل في حروب الردة في اليمامة عدد من أصحاب رسول الله ﷺ من حفظة القرآن رضي الله عنهم، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن في كتاب واحد؛ فشرح الله صدر الصديق لهذا العمل، فأسند هذا العمل الجليل إلى الصحابي: زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي قال في ذلك: "أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة وعنده عمر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: إن

عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرُّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن "، قال أبو بكر: قلت لعمر: «كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟» فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبعْ القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره، وهما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾ (التوبة: 128، 129) وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[1].

1- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق: (71/6).

المبحث الثاني:
الفتوحات الإسلامية زمن الصديق رضي الله عنه

فتوحات العراق

ما إن انتهى الصديق رضي الله عنه من حروب الردة؛ حتى وجَّه جيشين لفتح العراق، جيشًا بقيادة خالد بن الوليد، وأمره أن يأتي العراق من جنوبها، وجيشًا بقيادة عياض بن غنم رضي الله عنه، وأمره أن يبدأ بشمال العراق وشرقه، حتى يلقى خالدًا رضي الله عنه، وكان المثنى بن حارثة رضي الله عنه قد أشار على الصديق رضي الله عنه بقتال الفرس، وطلب منه أن يجعله على قومه؛ ففعل أبو بكر، وشرع المثنى بعدها في قتال الفرس، ولما بعث الصديق خالدًا إلى العراق؛ أرسل إلى المثنى أن يستقبل خالدًا بمن معه، ولا يعصي له أمرًا ما أقام عنده، فإن شخص عنه؛ فالمثنى على ما كان عليه، فانقاد المثنى لأمر أبي بكر، وكان خير عون لخالد في العراق، رضي الله عنهم أجمعين[1].

أبلى المسلمون في العراق بلاءً حسنًا، وكانت أولى معاركهم فيه: معركة ذات السلاسل، التي قَتل فيها خالدُ بن الوليد هرمزَ، قائد جيش الفرس، وقتل فيها القعقاعُ الحاميةَ التي خرجت لقتل خالد عندما برز لمنازلة هرمز، وغنم المسلمون فيها غنائم كبيرة، ثم تلتها معركة المذار، ثم كانت معركة الولجة، قتل فيها خالدٌ رجلًا من الفرس يَعدُّونه عندهم بألف رجل، ولما قتله خالدٌ اتكأ عليه، ودعا بغدائه؛ إذلالًا للفرس، وتحطيمًا لكبريائهم، وكسرًا لجبروتهم، واستخفافًا بهم، ثم تلتها معركة أُلَّيس، وكانت أخبار هذه الانتصارات ترد الصديقَ تباعًا، فكان يجمع الناس ويخبرهم بها، حتى إذا ما جاءه خبر فتح أمغيشيا[2]؛ قال لقريش: عدا أسدُكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلنَ مثل خالد[3].

ثم فتح خالد بعد ذلك الحيرة، ودفع أهلُها الجزية للمسلمين، فجعلها خالد قاعدة له، وأقام عليها القعقاع بن عمرو التميمي أميرًا، ثم كان بعدها فتح الأنبار، ثم معركة عين التمر، ثم كان فتح دومة الجندل، وفيها التقى خالدٌ بعياض بن غنم وجيشه، ثم كانت وقعة

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 344/3.

2- وهي موضع كان بالعراق، وكانت فيه وقعة بين المسلمين، وأميرهم خالد بن الوليد، وبين الفرس، فلما ملكها المسلمون أمر خالد بهدمها، وكانت مصرا كالحيرة، وكان فرات بادقلى ينتهي إليها، وكانت ألّيس من مسالحها، الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ط 2، ت:1995) ص: 254/1.

3- ينظر: الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 382/2.

الحُصيد، ثم وقعة المُصيَّخ، ثم كانت الوقعة العظيمة، وقعة الفِراض، على تخوم العراق والشام، والجزيرة الفراتية شمالًا، اجتمع فيها الفرس والروم، وقبائل تغلب وإياد وغيرهم؛ فهزمهم المسلمون هزيمة نكراء، وكانت هذه المعركة من المعارك التاريخية الفاصلة، وإن لم تنل من الشهرة ما نالته المعارك الكبرى، فقد حطمت معنويات الكفار، من الفرس والروم والعرب[1]، وكانت هذه المعركة خاتمةَ معارك خالد في العراق، لينتقل بعدها إلى الشام، ويخوض معركة اليرموك.

يقول القعقاع بن عمرو التميمي في معركة الفِراض:

لقينا بالفِراض جموعَ روم ... وفرسٍ غمَّها طولُ السَّلام
أبدْنا جمعَهم لمَّا التقينا ... وبيَّتنا بجمع بني رزام
فما فتئت جنودُ السلم حتى ... رأينا القوم كالغنَم السَّوام[2]

فتوحات الشام

كان اهتمام المسلمين بالشام منذ زمن رسول الله ﷺ، حيث كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام، وكتب كتابًا آخر إلى الحارث بن أبي شمَّر الغساني عامل هرقل على الشام يدعوه إلى الإسلام[3]، ثم بعد ذلك أرسل ﷺ جيشًا إلى مؤتة بقيادة زيد بن حارثة، فاستشهد فيها زيدٌ، وجعفرُ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن رواحة رضي الله عنهم، فأخذ الراية بعدهم خالد بن الوليد[4]، فانسحب بالجيش من أمام جيوش الروم، التي كان يربو عددها على المئتي ألف مقاتل.

بعد الانتصارات الكبيرة التي حققها المسلمون في العراق؛ أخذ الصديق رضي الله عنه يفكر في فتح بلاد الشام، فكان يجيل النظر في ذلك، ويقلب الرأي، حتى سأله شرحبيل بن حسنة عن ذلك، وقصَّ عليه رؤية رآها في منامه، فاستبشر بها الصديق خيرًا، وأوَّلَها بفتح الشام، وكان في رؤية شرحبيل نعيُ الصديق رضي الله عنه، فعقد الصديق بعدها مجلس شورى، جمع فيه المبشرين بالجنة، وأهل بدر، ووجوه المهاجرين والأنصار، وأشار عليهم بفتح الشام، فاجتمع رأيهم على ذلك، فخطب الصديق الناسَ بعدها، وحضهم على قتال الروم.

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 383/3.
2- رضا، محمد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، تحقيق: خليل شيحا (دار الكتاب العربي، د. ط، 2004/1424) 77/1.
3- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط 2، د. ت) 8/20.
4- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 72/2.

ثم أرسل الصديق رضي الله عنه أنسَ بن مالك بكتاب إلى أهل اليمن يستنفرهم فيه لقتال الروم، فأخذ أنسٌ يطوف على قبائل اليمن قبيلةً قبيلةً، يقرأ عليهم كتاب الصديق إليهم، فاستجاب لذلك أهل اليمن، وخرجوا إلى الصديق بنسائهم وأولادهم، خرجوا طائعين غير مكرهين، وأرسل أنس بذلك إلى الصديق يبشره، وكتب إليه قائلا: جاءك شجعان اليمن وأبطالهم، وقد ساروا إليك بالذراري والحرم والأموال[1]، ولما وصلت جماعاتهم إلى المدينة، ودخلوا على الصديق المسجد، وسمعوا القرآن؛ اقشعرت جلودهم من خشية الله، وجاشت نفوسهم، وجعلوا يبكون خاشعين؛ فبكى الصديق وقال: هكذا كنا ثم قست القلوب[2].

كان ممن قدم على الصديق من اليمن ذو الكلاع الحميري، سيد قومه، قدم وحوله ألف عبد من الفرسان، وعلى رأسه التاج، وعلى حلته الجواهر المتلألئة، وبردته تسطع بخيوط الذهب المرصع بالآلئ، والياقوت والمرجان، فلما رأى أبا بكر نحيلًا، معروق الوجه، وعليه ثوب خشن، ولا شيء يسطع من ثيابه؛ لما رآه بهذا التواضع والنسك، وعليه الوقار والهيبة، ووجهه يشع نورًا؛ تأثر ذو الكلاع بالصديق رضي الله عنه؛ فخلع ما عليه من الحلي، وتزيَّا بزيه، وبعدها عزم الصديق على تسيير الجيوش إلى الشام، وعقد الألوية لأربعة جيوش هي:

• جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ومهمته فتح دمشق، شيعه الصديق ماشيًا، وأوصاه خيرًا بمن معه من المسلمين، وحذره من عدوه، وأمره بإكرام رسل عدوه إذا ما قدموا إليه.

• جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة، وذلك بعد خروج جيش يزيد بثلاثة أيام، وكانت مهمته تبوك والبلقاء، ثم بصرى، وأوصاه بما أوصى به يزيد، وزاد عليها المحافظة على الصلاة والصبر، وعيادة المريض وحضور الجنائز، وغيرها.

• جيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وكان هدف هذا الجيش فتح حمص، وأوصاه الصديق بما أوصى به يزيدًا وشرحبيل.

• جيش بقيادة عمرو بن العاص، هدفه فلسطين، وأصاه وصاية عظيمة كما أوصى من قبله[3].

1- الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1997/1417) 6/1.

2- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1، 2004/1425) 82/1.

3- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 387/3، وينظر: ابنكثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 3/7.

وصلت الجيوش الإسلامية الأربعة إلى الشام، ولقيت صعوبةً كبيرةً في تنفيذ المهمات الموكلة إليها، حيث كانت جيوش الروم تمتاز بكثرة عَددها وعُددها، وقد بنوا الحصون والقلاع للدفاع عن مراكز مدنهم، وكان للروم جيشان كبيران، قيادة أحدهما في فلسطين، والأخرى في أنطاكية، ويتوزع هذان الجيشان على ستة مواضع في بلاد الشام، وكان هرقل قد وضع خطةً لتصفية الجيوش الإسلامية الأربعة، وذلك بأن تتراجع قواته أمام ضربات المسلمين، وتنسحب لهم من الحدود الحجازية؛ ليتوغلوا في الداخل الشامي؛ ثم ينقضَّ عليهم جيشان كبيران، جيش يخرج من فلسطين، وجيش يخرج من أنطاكية.

استطاع المسلمون بفضل العيون التي بثوها داخل بلاد الشام كشف خطة هرقل هذه، فاحتاطوا لها، وأرسل كل قائد منهم إلى الصديق يعلمه بما عزم عليه هرقل، فكتب إليهم الصديق يحضهم على الثبات أمام عدوهم، ويبشرهم بالنصر، ثم أخذ يمدهم بالرجال والسلاح والخيول، وبكل ما يلزمهم في حربهم؛ فدعا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وسيره إلى أبي عبيدة بن الجراح، ولما وصل هاشم بجيشه إلى أبي عبيدة؛ سُرَّ المسلمون بذلك كثيراً، ثم أرسل الصديق بعده جيشًا بقيادة سعيد بن عامر، فالتحق بجيش يزيد بن أبي سفيان، وخرج مع جيش سعيد بلالُ بن رباح رضي الله عنه، بعد أن أذن له الصديق في بذلك، وكانت وفود الجهاد من أهل القرى والضواحي تتوالى إلى المدينة؛ فيرسلهم أبو بكر إلى الشام تباعاً[1].

معركة اليرموك

كانت قيادة الجيوش الإسلامية تتابع تطورات تحركات جيوش الروم، فشعر قادة الجيوش الإسلامية بخطورة الموقف، فعقدوا مؤتمرًا في الجولان، وراسلوا الصديق في ذلك، وفي هذا المؤتمر اجتمعت كلمتهم على ضرورة الانسحاب من الأماكن التي كسبوها من الروم، والتجمع في مكان واحد؛ لخوض معركة فاصلة مع الروم، وتفويت الفرصة على الروم، وعدم تمكينهم من تدمير الجيوش الإسلامية متفرقةً، وأشار عليهم عمرو بن العاص أن يكون تجمع الجيوش الإسلامية، في اليرموك، وهذا ما أشار به عليهم الصديق أيضًا.

رجع أبو عبيدة بجيشه من حمص إلى اليرموك، ثم جاء يزيد وشرحبيل، وكان عمرو

1- ينظر: الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 183/2.

بن العاص في فلسطين، ولم يستطع الانسحاب منها، وظلَّ يناور الروم في بئر السبع، حتى نجده خالد بن الوليد بجيشه، فوقعت بينهم وبين الروم معركة في أجنادين، هزم فيها الروم، ثم رجع بعدها عمرو بجيشه إلى اليرموك.

أمام هذا الموقف المتأزم والحرج في بلاد الشام؛ وقع اختيار الصديق على خالد بن الوليد؛ ليقود معركة اليرموك، وكان خالد يومئذ في العراق، يقود جيوش المسلمين ضد الفرس، فكتب إليه الصديق أن يتوجه إلى الشام، وأمَّره على جيوش الشام كلها، فجاء خالد إلى الشام بجيشه، بعد رحلة عبْر الصحراء، لم يعرف التاريخ شبيهًا لها، واستمر بعدها الصديق يرسل الإمدادات إلى الشام، ويرد على أساليب الروم التكتيكية؛ حتى قالت الروم: والله لنشغلنَّ أبا بكر عن أن يورد الجنود إلى أرضنا، فكان رد الصديق عليهم: والله لأشغلنَّ الروم عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.

وصل خالد رضي الله عنه أرض اليرموك، وكان الصديق رضي الله عنه قد عهد إليه -كما ذكرت سابقا- بإمرة الجيوش الإسلامية في الشام، وكان على إمرتها قبله: أبو عبيدة بن الجراح، فتسلم خالد القيادة من أبي عبيدة بيسر وسلام، دون شقاق ولا نزاع بينهما رضي الله عنهما، بل إن أبا عبيدة رضي الله عنه لما بلغه عزلُه قال: بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى، وحيا الله خالدًا بالسلام، ذلك أنهم كانوا يريدون بجهادهم اللهَ والدارَ الآخرة.

لـمَّا وصل خالدٌ اليرموك اجتمع بقادة الجيوش الإسلامية، ودرس الموقف، ورأى أن يُعينَ جيشَ عمرو بن العاص على الانسحاب من فلسطين إلى اليرموك، فذهب إليه بجيشه، وكانت معركة أجنادين -كما ذكرت سابقا- انتهت بانتصار المسلمين على الروم، بعد أن قتلوا قائدهم، وكان وقع هذه الهزيمة على هرقل كالصاعقة، شعر بعدها بمدى الكارثة التي حلت عليه، كما أعطت هذه المعركة جيشَ المسلمين طمأنينةً وثقةً كبيرةً بنصر الله جل وعلا.

هكذا تجمعت جيوش المسلمين على أرض اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، وكان عددها يربو على الأربعين ألف مقاتل، ثم جاءت بعد ذلك جيوش الروم بقيادة تيدور، وكان عددها يُقدر بمئتي ألف وأربعين ألف مقاتل، فقسم خالدٌ جيشه إلى كراديس، وهو

تقسيم لم تعهده العرب من قبل، والكردوس نحوٌ من ألف مقاتل، ولهم قائد، فخرج جيش خالد في نحوٍ من أربعين كردوسًا، مقسمةً على فرقٍ، فرقة القلب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وعكرمة بن أبي جهل، وفرقة الميمنة بقيادة عمرو بن العاص، وفرقة الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وفرقة المقدمة (الطليعة)، وفرقة المؤخرة بقيادة سعيد بن زيد، رضي الله عنهم أجمعين.

كان قارئ الجيش المسلم المقداد بن الأسود، فكان يدور على الجيش يقرأ سورة الأنفال، وآيات الجهاد، وكان خطيب الجيش أبو سفيان بن حرب، كان يحث الجيش على الصبر والثبات، وكان القائد العام للجيش خالد بن الوليد، رضي الله عنهم أجمعين، وكان خالد ومن معه من القادة يدركون خطورة هذه المعركة وأهميتها، وأنها معركة فاصلة، إن هزموا فيها الروم؛ فلن تقوم لهم قائمة بعدها، وكان ما أراد الله لهذه الأمة من العزة والتمكين.

لـمَّا تراءى الجمعان؛ وقف قادة المسلمين يعظون الجند، ويحضونهم على الصبر والثبات، وقف أبو عبيدة فوعظ، ثم قام عمرو بن العاص فوعظ، وحث على الصبر والثبات، ثم وعظ معاذ بن جبل، وكان ممن وعظ وذكر يومها أبو هريرة رضي الله عنه، وكان معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء، وفي المقابل كانت جموع الروم كبيرةً جدًا، قد سدَّت الأفق من كثرتها، كانت كأنها غمامة سوداء، وكان الرهبان يتلون الإنجيل، ويحثون الروم على القتال والثبات.

قبل بدء المعركة جرت مفاوضات بين الجيشين على الصلح، فخرج من المسلمين أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وضرار بن الأزور، وغيرهم، فاجتمعوا بقائد الروم، وتفاوضوا على الصلح، ثم رجعوا دون أن يتم ذلك، وبعدها بدأت المعركة.

طلب خالد من عكرمة ومن القعقاع أن ينشبا القتال، فبدرا يرتجزان، ودعَوا إلى البراز، فجندلا الأبطال والرجال، ثم خرج أحد قادة الروم، واسمه جرجة، فطلب خالدَ بن الوليد، فخرج إليه خالد حتى وصل إليه، فقال له جرجة: سألتك الله يا خالدًا أن تصدقني؛ فإن الحر لا يكذب: هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه، فلا تسله على

أحد إلا هزمتهم؟ فقال له خالد: لا، ولكن رسول الله ﷺ قال لي: «أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين» ثم أخذ يسأل خالدًا عن الإسلام، وخالد يجيبه، حتى أسلم جرجة، فرجع به خالد إلى صفوف المسلمين، وعلمه الإسلام، وصلى به ركعتين، وبعدها حملت الروم على المسلمين، وبدأ القتال.

هجم جيش الروم بثقله على المسلمين؛ فانكشفت ميمنة جيش المسلمين، حتى دخل جيش الروم إلى قلب جيش المسلمين، وفرَّ عدد من المسلمين، حتى جعلت النساء تضربهم بالخشب والحجارة؛ ليرجعوا، وثبت في ذلك الموقف عكرمة بن أبي جهل ومن معه؛ حتى ردوا الروم إلى أماكنهم، ثم حملت ميمنة الروم على ميسرة المسلمين حملةً شديدةً، انكشف معها قلب المسلمين من الميسرة، وفرَّ عدد من المسلمين من المعركة، فخرجت النساء من خيامهن ترميهم بالعصي والحجارة، وكان ممن خرج ابنة عمرو، فجعلت تصيح قائلةً: قبح الله رجلًا يفر عن حليلته، قبح الله رجلًا يفر عن كريمته، وقالت أخريات: لستم بعولتنا إن لم تمنعونا، وبذلك ارتدت إليهم عزائمهم، وعادوا للصفوف، وردوا الروم عن المواضع التي كسبوها.

هنا حمل خالد بمن معه على ميسرة الروم، فأرجعوهم إلى صفوفهم، وقتلوا في حملتهم هذه أكثر من ستة آلاف رومي، ولما رأى خالد القتل استشرى في الروم؛ صاح بالجيش قائلاً: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم، ثم حمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، فانكشف الروم، فتبعهم المسلمون حتى حصروهم بين وادي اليرموك، ونهر الزرقاء، ودارت هناك رحى المعركة، وأبلى المسلمون فيها بلاءً عظيمًا، حتى هرب فرسان الروم، وتركوا مشاتهم بلا غطاء منهم، وكانوا مقيدين بالسلاسل فأخذ أكثرهم ينهار في الوادي، فكان إذا قتل منهم أحد يسقط في الوادي ويسقط معه أصحابه، حتى قتل منهم المسلمون خلقًا كثيرًا، قُدِّر بمئة ألف وعشرين ألفاً، وانسحب بقيتهم إلى دمشق، وغيرها من المدن داخل بلاد الشام، وقُتِل من المسلمين في هذه المعركة نحوٌ من ثلاثة آلاف مقاتل، منهم عددٌ من رجالات الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ، كعكرمة بن أبي جهل، وغيره.

فرح المسلمون بهذا النصر العظيم فرحًا كبيرًا، إذ هزموا الروم، وكسروا شوكتهم، ولكن عكَّر هذه الفرحة خبرُ وفاة الصديق رضي الله عنه، وكان خبر وفاته رضي الله عنه

قد وصل إلى المسلمين قبل بدء المعركة، ولكن خالدًا أخفاه عن المسلمين؛ ألا يضعفوا عن قتال الروم، وتولى على المسلمين بعد الصديق عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فعزل عمرُ خالدًا، وجعل على المسلمين في الشام أبا عبيدة بن الجراح؛ لحاجة في نفس عمر رآها.

لـمَّا وصل جيش الروم المنهزم إلى هرقل في أنطاكية؛ أصابه الهم والحزن لما حلَّ بجيشه، فسأل جيشه: لماذا ينهزمون أمام المسلمين وهم أكثر منهم عَددًا وعُددًا؟ سألهم: أليس المسلمون بشرًا مثلكم؟ فقال رجل من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال له هرقل: أنت صدقتني.

وهكذا مضت سنة الله جلَّ وعلا في الروم، لما ظلموا، وأفسدوا في الأرض؛ كسر شوكتهم، وأضعف هيبتهم، وفرق جمعهم، ومن ثَمَّ أزال دولتهم، ومكَّن الله بعدها لعباده الصالحين، وأورثهم الأرض كما وعدهم: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء: **105**).

ثم سار أبو عبيدة بعد اليرموك إلى دمشق، حيث فرَّ جيش الروم المنهزم، فحاصرها طيلة شهرين، حتى تم الله فتحها، وقد ذُكر أن المسلمين لما دخلوها صالحهم الروم، فمن هنا اختلف المؤرخون بين قائل: إن دمشق فتحت صلحًا، وقائل: إنها فتحت عنوةً، وبعضهم قال فتح نصفها عنوةً، ونصفها الآخر فتح صلحًا، وبعدها كان فتح حمص، وغيرها من المدن الشامية[1].

1- ينظر: الصلابي، أبو بكر الصديق، مصدر سابق: ص: 314.

وفاة الصديق

وفي يوم الاثنين من شهر جمادى الآخر، عام (**13** هـ) مرض الصديق رضي الله عنه، ولـمَّا ثقل عليه المرض واشتدَّ، وعلم من نفسه أن فيه موته؛ استشار كبار المهاجرين والأنصار فيمن يكون على المسلمين بعده، فجعلوا الأمر إليه، فاختار له عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب في ذلك كتابًا يعهد فيه لعمر بالخلافة بعده[1]، ويُقرأ الكتاب على الناس في المدينة، وفي الأمصار عن طريق أمراء الأجناد، ومات بعده الصديق رضي الله عنه؛ فارتجت المدينة لموته، ولم ترَ المدينة منذ وفاة رسول الله ﷺ، يومًا أكثر باكيًا ولا باكيةً من ذلك المساء الحزين، وكان رضي الله عنه قد أوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس، ففعلت، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودفن بجوار رسول الله ﷺ، وجُعل رأسه عند كتفي النبي ﷺ[2]، فجزاه الله عن رسول الله والإسلام خيرًا.

1- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 18/7.

2- ينظر: الدينوري، عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1992) 1/171، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 422/3.

المبحث الثالث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إسلام عمر وصحبته رسول الله ﷺ.

هو عمر بن الخطاب بن نفيل، من بني عدي، يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، يكنى أبا حفص[1]، ويلقب بالفاروق؛ لأنه أظهر الإسلام بمكة، ففرَّق الله به بين الكفر والإيمان، كان عمر بن الخطاب جبارًا في الجاهلية، لقي منه المسلمون بادي الأمر شدةً وأذىً، بل لقد همَّ عمر بقتل رسول الله ﷺ[2]، ثم منَّ الله عليه؛ فهداه لهذا الدين.

أسلم عمر رضي الله عنه في السنة السادسة للهجرة، وتم به عدد المسلمين أربعين رجلًا؛ فأظهر الله به الإسلام، فدعي إليه علانية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمةً، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي ونطوف بالبيت، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلناهم، حتى تركونا نصلي"[3]، ولقد ناله رضي الله عنه بعد إسلامه من أذى الناس ما ناله.

ولـمَّا كانت الهجرة؛ هاجر الناس سرًّا إلى المدينة؛ إلا عمر رضي الله عنه، فقد هاجر علانية، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا؛ إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه لـمَّا همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكَّب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر عَنَزَته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها؛ فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام، فصلى متمكنًا، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، أو يرمل زوجه؛ فليلقني وراء هذا الوادي، قال علي رضي الله عنه: فما تبعه أحد؛ إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه"[4].

تربى عمر رضي الله عنه كغيره من أصحاب رسول الله ﷺ في كنف رسول الله ﷺ

1- ينظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة (بيروت: دار الفكر، 1989/1409) 642/3.

2- ابن حنبل، أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله محمد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403) 285/1.

3- ينظر: الصوباني، محمد بن حمد، الصَّحيحُ من أحاديث السّيرة النبوية (مدار الوطن للنشر، ط ١، 1432/ 2011) 86/1.

4- ابن الأثير، أسد الغابة، مصدر سابق، 649/3.

على منهج القرآن وهديه؛ فأثمر ذلك في نفسه إيمانًا راسخًا، وشجاعةً في الحق وجرأةً؛ لذا كان كثيرًا ما يسأل رسول الله ﷺ عن التصرفات والأحكام التي لم يدرك حكمتها؛ فأكسبه ذلك فهمًا لمقاصد هذا الدين وحِكَمه؛ حتى نزل القرآن موافقًا لرأيه، في غير ما مسألة من مسائل هذا الدين التي أدلى فيها برأيه، فهو القائل رضي الله عنه: قلت يا رسول الله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؛ فأنزل الله في ذلك، وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض أزواجه؛ فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أو ليبدلنَّ اللهُ رسولَه خيرًا منكن، حتى أتت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءَه، حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿ عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً ﴾[1] (التحريم : **5**) كما وافقه القرآن في غيرها من المسائل[2] .

لازم عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ طيلة حياته، في حله وترحاله، وفي غزواته وسلمه، واتفق العلماء على أنه رضي الله عنه شهد بدرًا وأحدًا، والمشاهد كلها، ولم يغب عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ[3] ؛ فأورثه ذلك علمًا غزيرًا في السنة النبوية؛ حتى صار من أكبر فقهاء الصحابة وأعلمهم، وكان رضي الله عنه أحد الذين حفظوا القرآن كله، من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى شهد له رسول الله ﷺ بالعلم بقوله: «بينا أنا نائم أُتيتُ بقدَحِ لبنٍ، فشربتُ منه، حتى إني لأرَى الرِّي يخرج من أطرافي، فأعطيتُ فضلِي عمر بن الخطَّاب»، فقال مَن حوله: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «العِلم»[4] ، وقال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: «إني لأحسب عمر قد رفع معه يوم مات تسعة أعشار العلم، وإني لأحسب علم عمر لو وضع في كفة الميزان، وعلم من بعده؛ لرجح عليه علم عمر رضي الله عنه»[5] ، وكيف لا يكون كذلك وهو الملهم المحدث، كما قال النبي ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»[6] ، واستحق لذلك أن يكون خير أصحاب رسول الله ﷺ بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ ولذا عهد إليه الصديق بالخلافة من بعده.

1- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 89/1.

2- ينظر: مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، 1865/4.

3- المبرد، يوسف بن حسن، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق: عبد العزيز بن محمد (المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط 1، 1420/2000) 2/637.

4- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 35/9.

5- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيدي (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط 2، د، ت) 163/9.

6- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق: 12/5.

ولي الفاروق رضي الله عنه الخلافة بعد وفاة الصديق رضي الله عنه عام (13 هـ)، وكانت خلافته تطبيقاً حيًّا لكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ضرب خلالها أروع الأمثلة في العدل والزهد، والرحمة والحرص على ما يصلح رعيته، ويقضي حوائجهم، بل لقد كان رضي الله عنه رحيمًا حتى بالبهائم، فقد أقدم على ضرب جمَّالٍ قد حمَّل جمله أكثر مما يطيق، ووعظ قومًا لأنهم لم يعطوا البهائم حقها في الرعي، وقال لهم: ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض[1]؛ واضعًا بذلك رضي الله عنه القواعد والأسس التي ينبغي أن تقوم عليها منظمات رعاية الحيوان من بعده! ووسَّع الفاروق رضي الله عنه مسجد رسول الله ﷺ، وأجرى تعديلات يسيرة في المسجد الحرام بعد أن وسعه؛ فنقل مقام إبراهيم عليه السلام إلى مكانه اليوم، وقد كان ملصقًا بالكعبة؛ وذلك تيسيرًا على الطائفين والمصلين بالبيت.

كان عمر رضي الله عنه حريصًا على تسهيل سبل التواصل بين الأمصار الإسلامية، وقد رصد حصةً من بيت مال المسلمين، أنفقها على عددٍ ضخم من الجمال، جعلها للتواصل بين الجزيرة، والشام والعراق، ووضع في الطريق بين مكةً والمدينة ما يصلح به حاجة المسافر، وكانت توجيهاته رضي الله عنه للقبائل والأمراء والولاة تصب في هذا الاتجاه؛ فبعد أن كلمه بعضهم أن يبنوا منازلهم في الطريق بين مكة والمدينة؛ أذن لهم، واشترط عليهم أن ابن السبيل أحق بالماء والظل[2]، وشق في مصر الخليجَ الذي هدمه الروم، الذي كان يصل نهر النيل بالبحر الأحمر؛ فيسَّر شقُّه على المسلمين التجارة، والتنقل بين مصر والحجاز؛ وبقي الخليج إلى أن أهمله الولاة؛ فردم، كما بنى المدن على الثغور، كالبصرة والكوفة، والجيزة وسرت، وشجع الزراعة والصناعة[3].

عام الرمادة

في عام (18) للهجرة؛ أصاب الجزيرة العربية قحط شديد، جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، وجعل الرجل يذبح شاته فيعافها من قبحها، وهرع الناس من أعماق البادية إلى المدينة يقيمون فيها، يلتمسون حلًّا عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه؛ وكان الفاروق أكثر الناس إحساسًا بهذا البلاء، وأكثرهم تحملًا لتبعاته، واتخذ رضي الله عنه للتعامل مع هذه الأزمة الشديدة عدة خطوات؛ حتى كشفها الله برحمته تعالى؛ فبدأ

1- المبرد، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، مصدر سابق، 502/2.
2- ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1990/1410) 232/3.
3- ينظر: الصلابي، عمر بن الخطاب، مصدر سابق، ص: 213.

رضي الله عنه بنفسه، فحلف ألا يذوق لحمًا، ولا سمنًا حتى يحيا الناس؛ وكان رضي الله عنه صارمًا في الوفاء بهذا القسم؛ فاقتصر على أكل الزيت حتى جاع، وتغير لونه من شدة الجوع، يقول عياض بن خليفة: "رأيت عمر رضي الله عنه في عام الرمادة وهو أسود اللون، ولقد كان رجلًا عربيًا، يأكل السمن واللبن؛ فلما أمحل الناس حرَّمها، فأكل الزيت حتى غيَّر لونه وجاع"[1]، وكما منع نفسه الطعام رضي الله عنه؛ فقد كان يشدد على أهل بيته، ويرى أنه يجب عليهم أن يعانوا كما يعاني أكثر الناس، ورأى يومًا بيد ولد من أولاده بطيخة؛ فقال على الفور: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزْلَى؟ فخرج الصبي هاربًا يبكي، ولم يسكت عمر حتى علم أن ابنه اشتراها بكف من نوى[2].

لم يترك عمر رضي الله عنه وسيلة يواجه بها هذه الشدة إلا لجأ إليها، فلما أخذ الناس يفدون إلى المدينة، وبلغ عددهم الآلاف؛ وكَّل رجالاً يقومون بمصالحهم، وقسَّم العمل عليهم؛ حتى لا يتداخل عمل في عمل، فمنهم من كان يعمل على إحصاء أعداد اللاجئين، ومنهم من كان يحصي أعداد المرضى، ومنهم من كان يجتمع بعمر مساءً، يطلعه على أخبار الناس وأحوالهم، ومنهم من كان يصنع لهم الطعام، ولقد كان عمال عمر رضي الله عنه يقومون إلى القدور وقت السحر، يصنعون الطعام للناس، وربما كان عمر رضي الله عنه معهم، يشرف على صنع الطعام بنفسه[3]، ليضع رضي الله عنه بتعامله المنظم مع هذه الشدة الأسس والقواعد التي ينبغي أن تتعامل بها المؤسسات الإغاثية مع الشدائد والأزمات التي تنزل بالناس.

ثم أرسل عمر رضي الله عنه إلى عماله على الأمصار أن يبعثوا إليه بطعام، يصلح من عنده من الناس، فكلهم أرسل إليه، وكان أول من قدم عليه: أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ومعه أربعة آلاف راحلة من طعام، وأرسل إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه بألف بعير تحمل الدقيق، وأرسل في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والدهن، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء، كما أرسل إليه معاوية رضي الله عنه بثلاثة آلاف بعير تحمل طعامًا، ووصلت إليه من العراق ألف بعير تحمل دقيقًا، وشرع عمر رضي الله عنه في توزيع ذلك كله على أهل المدينة، ومن لاذ بها، وسيَّر منه إلى البادية، وأمر بتوزيعه على

1- ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، 1995/1415) 21/44.
2- ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، 240/3.
3- ينظر: المصدر السابق، ٣/٢٤١.

أحياء العرب جميعًا[1].

كان من سياسة عمر رضي الله عنه وفقهه في التعامل مع هذه الشدة عام الرمادة؛ أن أوقف حدَّ السرقة، وقال: (لا يقطع في عذق، ولا في عام السَّنة) [2]، وأخَّر رضي الله عنه في ذلك العام أخذَ الزكاة من أصحابها، ولم يلزمهم بدفعها؛ حتى إذا أخصبت الأرض؛ أخذ منهم الزكاة عن عام الرمادة، ومع كل هذه الخطوات التي اتخذها رضي الله عنه في التعامل مع هذه النازلة؛ كان لا يفتر عن الدعاء والصلاة؛ أن يرفع الله عنهم هذه الشدة، ويتضرع إلى ربه ألا يكون هلاك أمة محمد ﷺ على يديه؛ وبعد تسعة أشهر من هذه الشدة؛ أنزل الله عز وجل الغيث رحمة بعباده، فأخضبت الأرض، وكشفت بنزوله الشدة[3].

قدم الفاروق رضي الله عنه للحضارة الإسلامية خدمات جليلة وعظيمة، كانت نبراسًا يضيء الطريق لمن بعده من الخلفاء والأمراء، سواء في الجانب الاجتماعي، أو في الجانب المدني، أو في الجانب العمراني، أو في غيرها من جوانب نهوض الأمم وتقدمها؛ ومن ذلك تطويره لمؤسسة القضاء في الإسلام، والتي تعدم أعظم مؤسسات الدولة وأخطرها، والتي تعطي صورة صادقة عن عدل الدولة ورقيها، أو عن ظلمها وتخلفها، فبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية زمن الفاروق رضي الله عنه، وكثرت مشاغل الخليفة وولاته؛ أقدم عمر رضي الله عنه على فصل السلطة القضائية عن غيرها من السلطات، فأصبح للقضاة مؤسسة خاصة بهم، تفصلهم عن السلطة التنفيذية؛ بعد أن كان القاضي هو الوالي نفسه، ومع هذا الفصل أبقى عمر رضي الله عنه بعض الولاة على القضاء أيضًا؛ فمن القضاة الذين قصرهم عمر رضي الله عنه على القضاء وحده: عبد الله بن مسعود، فقد ولاه قضاة الكوفة، ومنهم من أبقاه على القضاء مع الولاية، كمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[4].

كان من أعظم ما أظهر عظمة الفاروق رضي الله عنه في تطويره لمؤسسة القضاء، ووضعه دستورًا قويمًا لها؛ ما ذكره في رسائله لولاته وقضاته، ومن أعظم تلك الرسائل؛

1- ينظر: سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق وتعليق: محمد بركات، وغيره (دمشق: دار الرسالة العالمية، ط 1، 1434/2013) 271/5، وينظر: ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، 3/240.

2- عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي (الهند: المجلس العلمي، ط 2، 1403) 10/242.

3- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/90.

4- ينظر: الصلابي، عمر بن الخطاب، مصدر سابق، ص: 273.

رسالته لواليه على البصرة: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، التي ما تزال موضع إكبار العلماء، فقد جمع فيها رضي الله عنه بين آداب القاضي وصفاته، وما يجب عليه مراعاته، وبين أصول المحاكمة، فقال رضي الله عنه: «أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك بحجة، وأنفذ الحق إذا وضح، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك؛ حتى لا ييأس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك؛ أن تراجع الحقَّ، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهمَ الفهمَ فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب أو السنة، اعرف الأمثال والأشباه، ثم قس الأمور عند ذلك؛ فاعمد إلى أحبها عند الله، وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل لمن ادعى بينة أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلى للعمى، وأبلغ في العذر، المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلود في حد، أو مجرب في شهادة زور، أو ظنين في ولاء أو قرابة، إن الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه؛ يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك؛ يشنه الله، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام عليك»[1].

1- الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 2004/1424) 367/5.

المبحث الرابع:
الفتوحات الإسلامية زمن الفاروق رضي الله عنه

فتوحات العراق.

لـمَّا تولى عمر الخلافة بعد وفاة الصديق رضي الله عنه؛ عمل على متابعة الجهاد في الشام والعراق، ونشر دين الله في بقاع الأرض، فحضَّ الناس على قتال الفرس، والمضي في فتوحات العراق؛ فاستجاب له المسلمون، فأرسل جيشًا إلى العراق بقيادة أبي عبيد الثقفي، ولـمَّا وصل أبو عبيد العراق، وتولى قيادة الجيوش الإسلامية فيها؛ خاض مع الفرس معركة النمارق، فهزم فيها الفرس، وأسر قائدهم، ثم أتبع أبو عبيد المنهزمين حتى لقيهم في السَّقاطية فقهرهم، وغنم منهم شيئًا كثيرًا جدًا، قسمها أبو عبيد بين المسلمين، وأطعم منها الفلاحين من أصحاب الأرض؛ يتألف بذلك قلوبهم، ثم بعث بالخمس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت بعد هذه المعركة معركة (باروسما)، انتصر فيها المسلمون[1]؛ ليكون بذلك أبو عبيد قد قضى على ثلاثة جيوش للفرس في مدة وجيزة، لو اجتمعت لكانت عبئًا ثقيلًا على المسلمين، ولكنَّ الله أعمى قلوبهم عن ذلك.

معركة الجسر

بعد هزائم الفرس المتتالية أمام جيوش المسلمين بقيادة أبي عبيد؛ اجتمع الفرس في المدائن، وفكروا بطريقة يهزمون بها المسلمين، ولو لمرة واحدة، يرفعون بها معنويات جيوشهم المنهارة؛ فاجتمع رأيهم على رستم، فجهز رستم جيشًا بقيادة ذو الحاجب، وأخرج مع الجيش راية كسرى العظيمة، المصنوعة من جلود النمور، وكانت هذه الراية لا يُخرج بها إلا مع الملوك، وأخرج الفيلة مع الجيش لأول مرة في حربهم ضدَّ المسلمين، ولما وصلوا أرض المعركة، كان بينهم وبين المسلمين النهر، نهر الفرات، وعليه الجسر، فراسل الفرسُ المسلمين: إما أن تعبروا إلينا، أو أن نعبر إليكم، واتفقت كلمة المسلمين على أن يعبر الفرس إليهم، إلا أن أبا عبيد فاجأهم، وقرر عبور النهر بجيشه، وكانت هذه أولى أسباب هزيمة المسلمين في هذه المعركة.

لما دارت المعركة بين الجيشين كانت خيول المسلمين تنفر من الفيلة، وتذعر من

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/450-451.

أصوات الجلاجل التي عليها، حتى ترجل أبو عبيد عن فرسه، وترجل الناس معه، وواجهوا فرسان الفرس ومشاتهم راجلين، وتلقوا نبالهم بصدورهم، وأظهر المسلمون في هذه المعركة من البسالة والتضحية ما يندر مثلها في التاريخ، وكانت الفيلة أشدَّ ما واجه المسلمون في هذه المعركة، حتى نادى أبو عبيد بالجيش أن يجتمعوا على الفيلة، ويقطعوا أحزمتها، ويقلبوا عنها أهلها، وبدأ بنفسه فتقدم للفيل القائد، فقطع أحزمته، وقتل من عليه، وفعل المسلمون ذلك بكل الفيلة، لكن الفيلة استمرت تدوس صفوف المسلمين، وكانت مدربة على القتال؛ فرأى أبو عبيد أن يقتلها، فتقدم ليضرب الفيل في أشفاره، فاتقاه الفيل بيده، فألقاه أرضًا، ثم داسه بأقدامه فقتله، فتسلم الراية بعده أخوه: الحكم بن مسعود، فقتل كما قتل أبو عبيد، وقتل بعده غيره من القادة أيضًا.

وهكذا قتل في هذه المعركة عدد من قادة المسلمين؛ حتى تولى القيادة أسد العراق: المثنى بن حارثة، وكان عدد من المسلمين قد عبروا الجسر منسحبين، فأقدم عبد الله بن مرثد الثقفي فقطع الجسر، وقال: موتوا على ما مات عليه أمراؤكم، أو تظفروا، وحاول منع الناس من العبور، وكانت هذه الغلطة الكبيرة التي تسببت بهزيمة المسلمين، وقتْلِ عدد كبير منهم، وغضب المثنى على عبد الله بن مرثد لفعلته هذه، حتى إنه لشدة غضبه منه ضربه؛ لأن قطعه الجسر أدى لغرق كثير من المسلمين في النهر، بسبب شدة ضغط الفرس.

ولم يكن بدٌّ أمام المثنى من الانسحاب؛ ليسلم بقية الجيش، فقد حاول قائد الروم ذو الحاجب القضاء على بقية الجيش المسلم، فحال المثنى دون ذلك، حيث أمر بعقد الجسر، وأمر الناس بالانسحاب، وأخذ يحميهم بمن معه من الرجال، حتى عبر أكثرهم، ثم عبر هو ومن معه، مخلِّفين وراءهم أربعة آلاف من الشهداء، منهم عدد كبير من الصحابة الذين قدموا مع أبي عبيد من المدينة، ولم يبق مع المثنى إلا ثلاثة آلاف، وقتل في هذه المعركة من الفرس أكثر من ستة آلاف.

ثم ما لبث المثنى بعد هذا الانسحاب، وهذه الهزيمة التي حلت بالمسلمين؛ أن استدرج قائدين من قادة الفرس إلى السماواة، حتى إذا ما توغلا فيها؛ شنَّ عليهم هجومًا صاعقًا، قاده بنفسه، فأوقع بهم هزيمة عجيبة، لم يتوقعها الفرس من جيش هزم لتوِّه، وقتل منه أربعة آلاف، وأسر المثنى القائدين الفارسيين، وأعدمهما، فرفعت هذه

المعركة من معنويات بقية الجيش المسلم، ورفعت قيمة المثنى في نظر جنوده، ولقد كان بإمكان الفرس أن يلاحقوا بقية الجيش المسلم، ويقضوا على وجودهم في العراق؛ ولكن الله قيَّض من الأسباب ما صرفهم عن ذلك، حيث دبَّ الخلاف بينهم؛ فانشغلوا به، حتى وصلت الإمدادات من دار الخلافة، فتقوى بها المسلمون، وصار لهم جيش كبير.

لـمَّا وصلت أخبار هزيمة المسلمين في معركة الجسر إلى عمر بن الخطاب؛ حزن على المسلمين حزنًا شديدًا، وقال: اللهم كل مسلم في حلٍّ مني، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو فَفُظِع بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إلي لكنت له فئة، ثم أخذ يرسل الجيوش إلى العراق، حتى اجتمع للمثنى جيش كبير جدًا، لما علم به قادة الفرس أرسلوا جيشًا لحربه، فالتقى الجيشان في البُويب، وليس بينهما إلا النهر، فعبر الفرس النهر إلى المسلمين، وذلك في شهر رمضان، عام **13** هـ، ودارت بينهما معركة عظيمة، قتل فيها قائد الفرس مهران، وأقدم المثنى على قطع الجسر على الفرس، وأنزل بهم المسلمون مقتلة عظيمة، حتى قتل منهم نحو مئة ألف، تجمعت جثثهم أكوامًا عند النهر.

وقد ندم المثنى على قطعه خط الرجعة على الفرس، وقال: عجزت عجزة وقى الله شرها؛ لمسابقتي إياهم إلى الجسر، وقطعه حتى أحرجهم، فإني عائد فلا تعودوا، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة، حيث رأى -رحمه الله- أن في منع الأعداء من الفرار؛ إلجاءً لهم إلى الاستماتة في القتال دفاعًا عن أنفسهم، وبعد هذه المعركة لم يقعد المثنى فرحًا بنشوة نصره، بل حض الناس على تتبع جيش الفرس المنهزم، ثم وسع غاراتِه داخل العراق، حتى وصل إلى تكريت شمالًا، وغنم غنائم كثيرة جدًا؛ فجزى الله المثنى عن الإسلام خيرًا، ورحم أبا عبيدٍ الثقفي وإخوانه، ممن قضى في معركة الجسر وغيرها[1].

معركة القادسية

أمام انتصارات المسلمين المتتالية في العراق بقيادة المثنى بن حارثة؛ جُن جنون الفرس، وشعروا بخطر الكارثة التي حلَّت عليهم؛ فاجتمعوا بعد ذلك، وجلسوا ينظرون في أمر هذه القوة الناشئة، القادمة من الجزيرة العربية، في وقت كان الخلاف بينهم

1- ينظر: الصلابي، عمر بن الخطاب، مصدر سابق، 363.

على الملك قائمًا، فرأوا أنه سبب هزائمهم المتتالية أمام المسلمين؛ فاجتمعوا على تنصيب يزدجرد بن كِسرى ملِكًا عليهم[1]؛ فأصلح يزدجرد من حال الناس، وقرَّبهم منه، فاجتمعوا حوله، وتباروا في طاعته ومعونته، ثم استنهضهم لقتال المسلمين، وأصلح لذلك المسالح والثغور، وفرض عليهم التجنيد الإجباري.

كانتْ عيون المثنى بن حارثة رضي الله عنه قد علمتْ باجتماع الفرس، واستعدادهم لقتال المسلمين، فأرسل المثنى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُخبره بأمر الفرس، فاستنفر عمر المسلمين لقتال الفرس، واتفقتْ كلمة المسلمين على تعيين سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه على رأس جيش يخوض معركة فاصلة مع الفرس، وفرض عمر على المسلمين التجنيد الإجباري، فاجتمع لسعد جيش كبير، سار به إلى القادسية[2]، ليكون بذلك عمر أوَّلَ من فرض التجنيد الإجباري على المسلمين، وليس الأمويُّون من فرضه، كما يقول البعض.

كان من وصايا عمر رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص: أن يُرسل إلى الفرس مَن يُفاوضهم، ويدعوهم إلى الإسلام، ولما وصل سعد إلى العراق شكَّل وفدًا من الرجال، اختارهم بصفاتٍ غاية في الحكمة، ثم أرسله إلى يزدجرد، وكان على رأس الوفد النعمان بن مقرن رضي الله عنه، فتكلَّم النعمان بين يدي يزدجرد عن الإسلام والمسلمين، وعن حالهم قبل بعثة النبي ﷺ وبعدها، وبماذا أمرهم النبي ﷺ، وكيف تغيَّر حالهم بعد بعثته ﷺ؛ حتى خرجوا يدعون إلى هذا الدين، وعرضوا على يزدجرد بعد ذلك الإسلام، أو الجزية، أو المنابذة؛ فاستشاط يزدجرد غضبًا وقال: "إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذات بين منكم، فقد كنا نُوكِل بكم قُرى الضواحي يُدبِّرون أمركم، فقد كنتم قبائل متناحرة متقاتلة، وكنتم تأكلون الْجِيف والدم والعظام"، وذكر من أمر العرب ما ذكر، ثم قال: "لولا أن الرُّسل لا تُقتل لأمرتُ بقتلكم"، ثم أمر لهم بوقر من تُراب[3]، ورجع الوفد إلى سعد بن أبي وقاص، وقالوا له: أبشر، فوالله لقد أعطانا الله أقاليد حكمهم؛ تفاؤلًا منهم بهذا التراب الذي أعطاهم.

اجتمعتْ كلمة الفرس بعد رفضهم عرض النعمان بن مقرِّن على خوض الحرب ضد

1- الدواداري، عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: بيرند راتكه، وآخرون، (الناشر: عيسى البابي الحلبي، د. ط، 1415/1994) 3/199.

2- ينظر: البَلَاذُري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ط، 1988) 1/250.

3-ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/500.

المسلمين، وعيَّنوا رُستم قائدًا عامًا لجيشهم، ورستم كان من أشد قادة الفرس وأعظمهم، فسار رستم ليلتقي بجيش المسلمين في القادسية، ومرَّ في طريقه على قرية من القرى التي فيها مسلمون، فسأل أعرابيًا: ما الذي جاء بكم؟ فقال الأعرابي: جئنا نطلب موعود الله فيكم بملْكِ أرضكم وأبنائكم؛ إن لم تُسلموا، فقال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟ قال: مَن قُتل منَّا دخل الجنة، ومَن بقي أنجزه الله وعده، ثم قال له الأعرابي: لا يَغُرَّنَّك مَن حولك، فإنك لا تُجادل البشر، إنما تُجادل القدر - والله تعالى قدَّر وقضى أن يُورث الأرض عباده الصالحين فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون ﴾(سورة الأنبياء: **105**) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين ﴾(سورة الأعراف: **128**) - قال الأعرابي لرستم: نحن على يقين، فقتله رستم؛ ومضى[1].

ولـمَّا وصل رستم بجيشه إلى القادسية - وكان جيش سعد قد سبقه إليها - أرسل رستم إلى سعد بن أبي وقاص يطلب رجلاً يُكلِّمه، فأرسل إليه سعد رِبْعِيَ بن عامر رضي الله عنه، وكان رستم قد جلس على سريرٍ من ذهب، وبسط حوله النمارق، والوسائد المنسوجة من الذهب؛ علَّه يُغري المسلمين بذلك، فجاء رِبْعِيٌّ راكبًا فرسه القصيرة، ومضى حتى داس بها تلك البُسط، ثم نزل، وهو رجلٌ قصير القامة، رثُّ الثياب، قد ربط سيفه بِخرقة على حقويه، مشى إليهم والرمح في يده، يتَّكئ عليه، يَخْرِقُ به نمارقهم، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: لو أتيتكم فعلتُ ذلك بأمركم، وإنما دعوتموني، فجلس على الأرض بين يدي رستم، ولم يجلس على السُّرر، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأخذ يحدثهم عن الإسلام، فقال له رستم: أمهلونا ننظر في أمرنا ونُخبر من وراءنا، فقال له رِبْعي: وإن مما سَنَّ لنا رسولنا ﷺ ألا نُمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك، إمَّا أن تدخلوا في هذا الدين وندعكم وأرضكم، أو أن تدفعوا الجزية ونكُفَّ عنكم، وإن احتجتم إلينا نصرناكم، أو المنابذة في اليوم الرابع، إلا أن تبدأ بنا، فخلا رستم بقومه وقال لهم: ما رأيكم؟ فصغَّروا من أمرهم - أي من أمر العرب - فقال لهم رستم: ويلكم إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة، والعرب تستخف اللباس، وتصون الأحساب، ثم رجع ربعي.

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/508، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/295، وينظر: الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 2/441.

في اليوم الثاني طلب رستم رجلاً آخر يُكلِّمه، فأرسل إليه سعدٌ حذيفةَ بن مِحْصن الغلفاني رضي الله عنه، وكان من أمره كما كان من أمر رِبْعي بالأمس، وفي اليوم الثالث طلب رستم رجلاً آخر يُكلِّمه؛ فأرسل إليه سعدٌ المغيرةَ بن شُعبة رضي الله عنه، فجاء المغيرة وجلس على سرير رستم، فأقبل إليه الأعوان يَجذبونه - يُبعدونه - عن السرير؛ لأنه سرير الملك، فقال المغيرة: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، نظُنُّ أنكم توقِّرون بعضكم بعضًا، نحن العرب لا يستعبدُ بعضنا بعضًا إلاَّ أن يكون مُحاربًا لصاحبه، ليس عندنا هذا التفاوت الطبقي، وما أرى هذا الأمر يستقيم فيكم، اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأنَّ ملكًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.

تكلَّم رستم يرد على المغيرة، فصغَّر من شأن العرب، وضخَّم من أمر الفرس، وذكر ما كان عليه العرب من سوء الحال، وضيق العيش، وظنَّ أنه بذلك يُحرجُ المغيرة، ولكنَّ المغيرة رضي الله عنه قال له: كنا كما قلتَ وأكثر، لكنَّ الدنيا دُول، وبعد الشدة الرخاء، بعث الله فينا رسولًا فآمنَّا به وصدَّقناه، وذكر كما ذكر صاحباه: رِبعيٌّ وحُذيفةُ، وخيَّرهم المغيرة بين الإسلام، أو الجزية، أو القتال، فخلا رستم بقومه وقال: أين هؤلاء منكم؟ ألم يأتكم الأوَّلان فجسراكم واستخرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقًا واحدًا، ولزموا أمرًا واحدًا، هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا؛ فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين فما يقوم لهم شيء، فلجُّوا وتجلدوا[1]؛ ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، وليصدق فيهم وعد رسول الله ﷺ، فكان القتال بينهم وبين المسلمين، وكانت معركة القادسية التي كسرتْ شوكتهم، وأظهرت وهنهم، وأزالتْ دولتهم، فانزاح الإسلام بعدها إلى بلاد فاس وما وراءها؛ حتى وصل أطراف الصين.

وهكذا لم تُفلح المفاوضات بين وفد المسلمين ورستم قائد جيش الفرس، واختار الفرس الحرب؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وكان الجيشان قد اجتمعا في القادسية، وكان سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين قد ثارتْ عليه قروح بين فخذيه وإليتيه، فلم يستطع ركوب الخيل، ولا الجلوس على الأرض، بل كان مكبًا على صدره، وتحته وسادة يشرف على الميدان من قصر (قديس) في القادسية[2]، وجعل بينه وبين جُنده

1- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/297.
2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 531/531.

رُسلاً، وكان عدد جيش المسلمين يزيد قليلاً على الثلاثين ألفًا، بينما كان عدد جُند الفرس يزيد على المائة وعشرين ألفًا، ومعهم اثنان وثلاثون فيلاً.

دامت معركة القادسية أربعة أيام، اليوم الأول سمي يوم أرْماث، والثاني يوم أغواث، والثالث يوم عِماس، والرابع يوم القادسية، كانت أربعة أيام بثلاث ليال، الليلة الأولى سُمِّيتْ ليلة الهدأة، لم يكن فيها قتال، والليلة الثانية سُمِّيتْ ليلة السَّواد، بقي القتال حتى دخل سواد الليل، والليلة الثالثة سُمِّيتْ ليلة الهرير، بقي القتال فيها حتى الصباح، ولم يكن يُسمع فيها إلاَّ هرير المقاتلين[1].

اليوم الأول هو يوم أرماث، أشار سعدٌ على جُنده ألَّا يبدأ أحدٌ القتال حتى يُصلُّوا الظهر، فإن هم صلُّوا كبَّر فيهم أربع تكبيرات، وبعدها يبدأ القتال، وقال لهم: اعلموا أن التكبير لم يُعطَه أحدٌ قبلكم، وإنما أُعطيتموه عونًا لكم، فإذا كبَّرتُ الأولى فكبِّروا، وإذا كبَّرتُ الثانية فكبروا، ولتستتم عدتكم، ثم إذا كبَّرتُ الثالثة فكبِّروا، ولينشِّط فُرسانكم الناس ليبرزوا وليُطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

لـمَّا صلَّى المسلمون الظهر في القادسية؛ توزَّع القُرَّاءُ في الجيش، يقرؤون سورة الأنفال – سورة الجهاد – على المقاتلين، فهشَّتْ قلوبهم وعيونهم لها، ودبَّتْ فيهم السكينة والحماس، قُرئتْ سورة الأنفال، والتي يقول الله عز وجل فيها: ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (سورة الأنفال:**12**) سورة الأنفال التي يقول الله فيها: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى ﴾ (سورة الأنفال:**17**) قُرئت هذه السورة على المجاهدين، فارتفعتْ حماستهم، واستعدوا كُلُّهم للشهادة في سبيل الله.

كبَّر سعدٌ التكبيرة الأولى فكبر المسلمون، ثم كبر الثانية فكبروا واستعدوا، ثم كبر الثالثة فبرز رجالٌ من المسلمين للمبارزة، وهي – أي المبارزة – فَنٌّ عسير لا يُجيده إلَّا الأبطال من الرجال، خرج غالب بن عبد الله الأسدي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وطُليحة بن خويلد الأسدي، وخرج إليهم أربعة من فرسان

1- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/302، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/547.

الفرس، فجندلهم المسلمون، خرج الأول وهو غالب بن عبد الله الأسدي، فخرج له فارسي فقتله غالب، ثم رجع إلى صفِّ المسلمين غالبًا، ثم خرج بعده عاصم بن عمرو التميمي، فخرج له علْجٌ فارسي فجندله عاصم، ورجع إلى جيش المسلمين قد عصمه الله، ثم خرج عمرو بن معد يكرب الزبيدي، فخرج إليه فارسيٌّ ثالث، فقتله عمرو وعاد لصفِّ المسلمين منتصرًا، ثم خرج طُليحة بن خويلد الأسدي، وطُليحة هذا كان ممن ارتدَّ عن الإسلام بعد النبي ﷺ، وقاتله أبو بكر، ثم رجع إلى الإسلام، وحسُنَ إسلامه، وعيَّنه عُمر رضي الله عنه قائدًا في معركة القادسية؛ خرجَ طُليحة بن خويلد الأسدي، فخرج له عِلْجٌ فارسي، فجندله طُليحة وعاد إلى صفِّ المسلمين قد حماه الله.

كان رستم يرقب المبارزة من وكره فهاله الأمر، وعلم أن جُنده لا طاقة لهم بنزال المسلمين، فأمر بالهجوم؛ ليقطع المبارزة على المسلمين، فهي تُوهن في جيشه، فمال بنصف جيشه على بجيلة، وكانت عِدَّةُ قبائل قد شاركتْ في المعركة، من أكبرها بجيلة وأسد، وبكر بن وائل من ربيعة، وبنو تيم وغيرهم.

رأى الفرس ثغرة في قبيلة بجيلة فمالوا عليها ومعهم الفيلة، فكانت خيول المسلمين تنفر من الفيلة، إذ لا عهد لها بها، ولا وجود للفيلة في أرض الجزيرة، وأنزل الفرس بالمسلمين قتلاً، فهبَّتْ أسد تُنجدُ بجيلة وتَرُدُّ عنهم، وكانت فيهم - أي في أسد - مقتلةٌ كبيرة، قُتل منهم أكثر من (**500**) رجل في أوَّل يوم، فنادى سعدٌ بني تميم قائلا لهم: ألستم أهل الإبل والخيل؟ أمَا لكم حيلة مع هذه الفيلة؟ فقالوا: بلى، فعمدتْ بنو تميم إلى الفيلة يقطِّعون حبالها، حتى سقطتْ التوابيتْ (الصناديق) من على ظهورها؛ فأعروها كُلَّها، وسقط الرجال الذين على ظهورها، واقتتل الجيشان حتى المساء، ثم رجع كُلٌّ إلى مكانه، وهدؤوا حتى الصباح، وسُمِّيتْ تلك الليلة - كما ذكرتُ - ليلة الهدأة.

كان اليوم الأول يوم أرماث، وقع بسبب الفيلة اضطرابٌ في صفوف المسلمين، قُتل منهم في هذا اليوم خلق كثير، وقُتل من الفرس يومها أكثر من ألفي مقاتل، وفي ليلة الهدأة كان قد وصل جُند الشام بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، فعمد القعقاع إلى جُنده -وكانوا ألفًا- فقسَّمهم إلى مئة قسم، كل قسم مكون من عشرة، وأمرهم أن يقدموا تباعًا عند طلوع الشمس، كلما جاء عشرة تبعهم عشرة؛ ليرفع بذلك من معنويات جيش المسلمين، ويُرعب جيش الفرس.

في صباح اليوم الثاني وهو يوم أغواث خرج القعقاع وطلب المبارزة، فخرج إليه قائد من قادة الفرس، وهو ذو الحاجب (بهمن جاذويه) الذي أوقع بالمسلمين مقتلة في معركة الجسر قبل القادسية، فلمَّا رآه القعقاع صرخ في وجهه قائلاً: يا لثارات أبي عبيد والجسر، ثم ما لبث القعقاع أن جندله أرضًا، ثم نادى فيهم: هل من مبارز؟ فخرج إليه اثنان من قادتهم البيرزان، والبندوان، فخرج مع القعقاع الحارث بن ظبيان، فجندلاهما أرضًا، فقتل صباح اليوم الثاني ثلاثة من قادة الفرس الخمسة، فوهن ذلك في عضد الجيش، وأراد القعقاع أن يثأر للمسلمين من يوم الفيلة، فعمد إلى الإبل وألبسها البراقع –البُرقع التي تلبسه المرأة– وأمر الجند أن يكونوا حولها بخيولهم، ولم يكن في اليوم الثاني فيلة؛ لأن الفيلة كانت في اليوم الأول قد سقطتْ صناديقها، فكان الفرس في اليوم الثاني يُصلحون تلك الصناديق؛ فصارتْ خيول الفرس تنفر من هذه الإبل، وتظُنُّها أشباحًا، فتقدَّم المسلمون، وأوقعوا فيهم مقتلةً عظيمة، واستمرَّ القتال حتى دخل سواد الليل، وسُمِّيتْ هذه الليلة الثانية بليلة السواد، ثم عاد الجيشان إلى معسكراتهم[1].

في الليلة الثانية عمد القعقاع إلى تسريب عدد من جنده إلى خارج أرض المعركة، يبيتوا في الخارج، ثم يأتوا في الصباح على مجموعات وهم يُكبِّرون؛ لترتفع بذلك معنويات المسلمين بهذا المدد القادم، ويرتعب الفرس من ذلك، ثم بدأ اليوم الثالث وهو يوم عِماس، وهو يومُ الفيلة، كان الفرس قد أصلحوا أمر الفيلة، وتلافوا خطأهم الأول، فجعلوا حول الفيلة عددًا من الرجال يذودون عنها مَن يتقدَّم إليها، وعلى ظهورها صناديق كبيرة، فيها رجال يرمون المسلمين بالنبل، فلقي المسلمون منها في هذا اليوم عنتًا شديدًا، وسعدٌ رضي الله عنه في عرينه يرقب المعركة، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ليكفياه شرَّ الفيلة، فسألوا الفرس المسلمين، الذين كانوا في جيش المسلمين: أليس للفيلة مقاتل؟ أين تُضربُ حتى تُقتل؟ فقالوا: إذا ضُربتْ في عيونها وأشفارها لم يُنتفع بها، فنزل القعقاع برمحه، وحام حول الفيل الأبيض الذي تنقاد له الفيلة، فرماه برمح في عينه، وكذا فعل عاصم، وغيره من المسلمين، حتى سقطتْ الفيلة، وسقط مَا عليهاً من الصناديق بمن فيها من الرجال، وولَّتْ بقية الفيلة هاربة، تدوسُ بأقدامها جيش الفرس، فخلتْ الساحة من الفيلة، والتحم الجيشان يتقاتلون بالسيوف حتى المساء، وكان يومهم سواء، لا غالب ولا مغلوب، ثم ما لبث أن نشب القتال بينهم ليلاً، فقد أدرك رستم أن جيشه ليس بقوة المسلمين في المبارزة والمطاردة؛ فاجتاح بجيشه كالسَّيل العارم معسكر

1- ينظر: الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 2/478.

المسلمين، وكان القتال ليلًا، والمقاتلون لا يتكلمون، إنما هو هرير القتال، فسمِّيتْ تلك الليلة الثالثة ليلة الهرير.

وفي اليوم الرابع وهو يوم القادسية؛ علم القعقاع بخبرته وفراسته أن النصر مع الصبر، وأن المعركة أوشكتْ على الانتهاء، وأنها لمن يصبر، علم أن أعداءه قاتلوا يومًا وليلة دون انقطاع، وقبلهما قاتلوا يومين مع راحة قليلة؛ علم أنهم وهنوا وضعفوا، فحمل عليهم حتى استطاع أن يقترب من قلب مقر رستم، وعندها جاء نصر الله، هبَّتْ ريحٌ فاقتلعتْ طائرة خيمة رستم، وثار الغبار حتى وصل القعقاع إلى سرير رستم، فلم يجده، وكان رستم قد اختبأ تحت بغل، واحتمى بعدليه، فجاء هلال بن عُلَّفه رضي الله عنه فضرب العِدل فسقط، ولم يعلم أن رستم تحته، وكان قد ضرب ظهر رستم، فهرب رستم، فتَبعه هلال وسحبه من رجله فقتله، ثم نادى في الجيش: قتلتُ رستم وربِّ الكعبة، إليَّ إليَّ، فأطاف به المسلمون وكبَّروا، وانهزم قلب الفرس، ثم انهزم بقيتهم، فتبعهم المسلمون حتى وصلوا نهر العقيق الذي خلفهم، وكان فيه نحوًا من ثلاثين ألفًا من جنود الفرس، قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل، فقتلوا كُلُّهم، منهم من غرق فلم يستطع الهرب، ومنهم قُتل بيد المسلمين.

نزل نصر الله على المسلمين في اليوم الرابع من أيام القادسية، بعد أن قدَّم المسلمون في هذه المعركة أكثر من (**8500**) شهيدًا، وقُتل من الفرس أكثر من (**30**) ألف عِلْج، ثمانية آلاف وخمسمائة من المسلمين هو أكبر عدد قدَّمه المسلمون في معاركهم الأولى، وهو دليلٌ على ضراوة المعركة، واستبسال المسلمين، فكلُّهم قد قدم نفسه للشهادة في سبيل الله[1].

هذه المعركة كانت بوّابة لفتح بلاد فارس، ونشر الإسلام فيها، وبعدها فُتحتْ بلاد السند – بلاد الهند – وكان بعد القادسية معركة (جلولاء)، ثم فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى، وبعدها كان فتح (تُستر) بعد حصار استمرَّ عدة أشهر، ثم دخل آلاف الفرس في دين الله، ثم كانت معركة (نهاوند) فتح الفتوح، ولم تقم بعدها للفرس قائمة[2].

1- ينظر: الصلابي، عمر بن الخطاب، مصدر سابق، 394 وما بعده.
2- ينظر الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/116.

معركة نهاوند 21 هـ (فتح الفتوح)

كان بين هذه المعركة ومعركة القادسية قبلها، أربع سنوات، ما فتئ المسلمون خلالها يطاردون جيوش الفرس، ويهزمونهم، وذلك في معارك متتالية، حققوا فيها فتوحاتٍ عظيمة، منها فتح المدائن، وموقعة جلولاء، وفتح تستر، وغيرها من الفتوحات؛ فأثار ذلك حفيظة الفرس وحِنْقَهم على المسلمين؛ فاجتمعوا على يزدجرد يستنهضونه لقتال المسلمين من جديد، فعزم يزدجر على ذلك، وأرسل إلى أهل الجبال من سجستان وخراسان، وغيرها من البلاد، يحضهم على التجمع لقتال المسلمين، وواعدهم جميعًا نهاوند، مركزهم الأخير للمقاومة، وهي مدينة منيعة، يصعب الوصول إليها، فاجتمع له فيها مئة وخمسون ألف مقاتل، ولَّى عليهم الفيرزانَ قائدًا عامًا[1].

كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد علم بتلك الحشود الفارسية؛ فأرسل إلى عمر ينبئه بذلك ويستأمره، فعقد عمر مجلس شورى، قرر بعده إرسال جيش إلى نهاوند، وعين عليه النعمان بن مقرن قائدًا عامًا، وأشار عليهم عمر بخطة لتعبئة جيش المسلمين، كان لها أثرها البالغ في تحقيق النصر فيما بعد، فاجتمع للنعمان جيش مقداره ثلاثون ألف مقاتل.

خرج النعمان بجيشه إلى نهاوند، ولـمَّا وصلها وجدها محصنةً تحصينًا قويًا، وحولها خندق عظيم، أمامه الحسك الشائك، الذي يمنع خيول المسلمين من التقدم، فلم يستطع المسلمون بسببها التقدم إلى أسوار المدينة؛ فاجتمع النعمان بأركان جيشه لتدارس الوضع؛ فأشار عليهم طليحة بن خويلد الأسدي بخطة مفادها؛ أن تنشب خيول المسلمين القتال مع الفرس، ثم تتراجع منسحبةً أمامهم؛ لتخرجهم من أوكارهم، حتى إذا ما خرجوا؛ انقض عليهم كمين المسلمين، فأطبقوا عليهم، وهم بعيدون عن خنادقهم.

شرع النعمان في تنفيذ هذه الخطة، فقسم جيشه إلى فرق، وأمر المسلمين في كمائنهم ألا يحدثوا أمرًا حتى يأمرهم به، وبدأ القعقاع في تنفيذ الخطة، بعد أن أوكلت إليه مهمة تضليل الفرس، ونجح نجاحًا عظيمًا في إخراجهم من مراكزهم، وأذهلت الفرسَ هذه المفاجأة؛ حيث وجدوا أنفسهم محاصرين بين جموع المسلمين؛ فأنزل بهم المسلمون السيف، حتى لاذوا بالفرار، بعد أن وقع الآلاف منهم في الخنادق التي حفروها

1- ينظر: ابن الوردي، عمر بن مظفر، تاريخ ابن الوردي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1417/1996) 1/141.

للمسلمين، وفي الحسك الشائك، واستطاع القعقاع أن يقتل بعدها الفيرزان قائد الفرس، فانهار جيشهم بعد ذلك، ودخل المسلمون نهاوند، ثم همذان، وسقطت بقية مدنهم دون مقاومة تذكر، كالري وأذربيجان، وغيرها، ولم تقم للفرس بعد نهاوند قائمة، وانساح بعدها الإسلام في بلاد المشرق[1].

فتح بيت المقدس (16 هـ)

كان في فلسطين قائد رومي يدعى (الأرطبون) أي القائد الكبير الذي يلي الإمبراطور، وكان أرطبون هذا قد وزع جيشًا كبيرًا جدًا على الرملة والقدس؛ تحسبًا لأي هجوم من المسلمين، وذلك بعد هزائم الروم المتتالية أمام المسلمين، وبعد فتح عدد من مدن الشام؛ كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يستأمره بفتح بيت المقدس، فقال عمر رضي الله عنه كلمته الشهيرة: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظر عما تنفرج[2]، وكان يقصد أن كلا القائدين أدهى الرجال في قومهما.

بعد أن انتصر عمرو بن العاص رضي الله عنه على أرطبون في معركة أجنادين الثانية (15 هـ)؛ فرَّ الروم إلى بيت المقدس، فتبعهم عمرو إليها، وضرب عليهم حصارًا شديدًا، دام أربعة أشهر، وكانت المدينة حصينة ومنيعة، ما من يوم من أيام الحصار إلا وكان يجري فيه قتالٌ شديدٌ؛ حتى يئس الروم من مقاومة الحصار، فكتب أرطبون إلى عمرو بن العاص يغريه بفك الحصار والرجوع، فرد عليه عمرو قائلا: أنا صاحب فتح هذه البلاد، فأجابه أرطبون: إن صاحب فتح هذه البلاد رجل اسمه (عمر)، فعرف عمرو أن المقصود بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إلى عمر يطلب منه المجيء، فخرج عمر في مدد من الجند إلى الشام، فنزل بالجابية فخطب الناس، ثم جاءه أهل إيلياء فصالحوه على الجزية، وفتحوها له، فكتب لهم عمر رضي الله عنه كتاب أمان، منحهم فيه حرية الاعتقاد، وأمنهم على صلبانهم وكنائسهم[3]، وهو كتاب عظيم، يدل على سماحة الإسلام، وعدله مع الأمم الأخرى، وهذا نصُّ الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها،

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/115، وينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عوّاد (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2003) 2/124، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/110.

2- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/605.

3- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/55.

وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صُلُبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيَعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين؛ إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة"[1].

بعد ذلك دخل عمر بيت المقدس، وصلى فيه، حيث صلى رسول الله ﷺ، ثم أمر ببناء مسجد في مقدمته، أمام الصخرة، وبعد ذلك استنفر عمر رضي الله عنه الناس لنجدة أبي عبيدة بن الجراح في حمص، بعد أن أحاط به الروم ليحتلوا المدينة من جديد، فسيَّر إليه عمر رضي الله عنه الجيوش، حتى هزم الروم، ثم كان بعد ذلك فتح الجزيرة الفراتية كلها[2]، وخرج هرقل من بلاد الشام، واستقرَّ بالقسطنطينية[3]، وبهذا تنتهي فتوحات الشام زمن الخليفة الراشد: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لتبدأ بعدها فتوحات مصر وليبيا.

فتح مصر

كانت دوافع فتح المسلمين لمصر قوية وملحَّة؛ فإضافة إلى سعيهم لنشر رسالة التوحيد في أرجاء المعمورة كلها؛ كان فتحهم لبلاد الشام قد فصل مصر وشمال إفريقية عن مركز الدولة البيزنطية في القسطنطينية، ولم يعد يصل بينهما إلا البحر، وظلت قوة البيزنطيين في مصر وشمال إفريقية قويةً وكبيرةً، لا يأمن معها المسلمون على أنفسهم

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 3/609.

2- تطلق الجزيرة الفراتية على المناطق الواقعة بين نهري دجلة والفرات، شمال شرق بلاد الشام، وشمال غرب العراق، وجنوب شرق تركيا، ينظر: الحربي، عاتق بن غيث، معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ط 1، 1402/1982) 1/82.

3- الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 2/250.

في الشام، إضافة إلى معاناة الأقباط من ظلم الروم في مصر؛ كل هذا وغيره شجع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكتابة لعمرو بن العاص رضي الله عنه أن يندب الناس إلى المسير إلى مصر؛ بعد الانتهاء من فتح بيت المقدس[1].

سار عمرو بن العاص رضي الله عنه من بيت المقدس إلى مصر محاذيًا ساحل البحر؛ فدخل رفح والعريش، ولقيه المصريون بالتهليل والترحاب، ولم يجد في طريقه قوة رومية، إلى أن وصل الفَرَما[2]، وفيها وقع أول قتال بين المسلمين والروم، وكان الظفر فيها للمسلمين[3]، ثم سار عمرو رضي الله عنه لفتح حصن بابليون، وفي بلبيس[4] برز له الروم لصده عن الحص؛ فقال لهم عمرو رضي الله عنه: لا تعجلونا حتى نعذر إليكم، وطلب أن يبرز إليه منهم: أبو مريم وأبو مرايام؛ فدعاهم عمرو رضي الله عنه إلى الإسلام أو الجزية، وأبلغهم أن نبينا محمد ﷺ قد قال لنا: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها؛ فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»[5]، ولكنهم أبوا، وبيَّتوا المسلمين؛ فهزمهم المسلمون[6].

في فتح بلبيس وقعت ابنة المقوقس (أرمانوسة) أسيرة في يد المسلمين؛ وقد كان المقوقس قد أكرم رسولَ رسولِ الله إليه: حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه؛ لما أرسله إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام؛ فلم يسلم، لكنه أكرم حاطبًا، وبعث معه لرسول الله ﷺ بجاريتين: مارية وأختها سيرين، وبغلة وكسوة، فقبلها رسول الله ﷺ؛ فلما وقعت ابنته أسيرةً في يد المسلمين؛ ردَّها إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومعها جواريها وخدمها ومجوهراتها؛ جزاءً لأبيها على هديته لرسول الله ﷺ؛ فسرَّ المقوقس بها، وبتصرف المسلمين معها[7].

ثم سار عمرو رضي الله عنه بجنوده إلى حصن بابليون، وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أمدَّ عمرو بن العاص بأربعة آلاف مقاتل، فيهم أربعة من قادة

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/104.
2- الفرما: مدينة قديمة بين العريش والفسطاط، ينظر: ياقوت، معجم البلدان، مصدر سابق، ص: 4/255.
3- الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 2/326.
4- بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، ينظر: ياقوت، معجم البلدان، مصدر سابق، ص: 1/479.
5- مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، د. ت) 4/1970.
6- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/97، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/383.
7- الواقدي، فتوح الشام، مصدر سابق، 2/44.

الصحابة، كل واحد منهم يعدل ألف رجل، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم؛ ولـمَّا وصل عمروٌ حصن بابليون حاصره حصارًا دام سبعة أشهر؛ حتى راسل المقوقسُ عمرو بن العاص أن يدفع لهم الجزية، فقبل عمرو ذلك، وأرسل إليه وفدًا على رأسهم الصحابي الجليل: عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ وقد لام قيصرُ الروم المقوقسَ على دفعه الجزية للمسلمين، ونفاه عن مصر، لكن عمرو بن العاص رضي الله عنه أمضى لهم الصلح؛ على أن يُخرج جند الروم ما يلزمهم من القوت لبضعة أيام، وتبقى الذخائر وآلات الحرب غنيمة للمسلمين، وأقام عمرو رضي الله عنه والمسلمون في حصن بابليون عدة أشهر[1]؛ حتى جاءه الإذن من الخليفة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح الإسكندرية.

فتح الإسكندرية.

كانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمةَ بلاد مصر، وثانية حواضر الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم، وكان البيزنطيون يدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها، ويحملون هَمَّ ذلك؛ حتى قال هرقل: لئن ظهر العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم[2]؛ لذا كانت المدينة تمتاز بمتانة حصونها، وضخامة أسوارها؛ إضافة لموقعها المتميز على البحر.

سار عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى الإسكندرية في جمادى الآخر، عام: (21 هـ) وخاض في طريقه إليها عدة معارك كبرى، لم تحظَ بالشهرة كما حظيت بها غيرها من معارك المسلمين، وكان من أكبر تلك المعارك: معركة: سُلْطَيْس وكِرْيون[3]، ولما وصل عمرو رضي الله عنه الإسكندرية؛ فرض عليها حصارًا محكمًا؛ دام عدة أشهر، خشي خلالها عمرو رضي الله عنه من تملل جنوده، أو شعورهم بالعجز؛ بل لقد أرسل إليه الخليفة عمر رضي الله عنه يسأله عن سبب تأخر فتح مصر، ويحضه أن يخطب الناس ويحضهم على القتال، ويجعل عليهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، ففعل عمرو رضي الله عنه، وعقد الراية لعبادة بن الصامت

1- ينظر: ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ط، 1415) 1/85.

2- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1387/1967) 1/119.

3- الحميري، الاكتفاء، مصدر سابق، 2/337، وينظر: طقوش، محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية (عمَّان: دار النفائس، ط 1، 1424/2003) 1/311.

رضي الله عنه؛ ففتح الله عليهم، وأظفرهم على عدوهم[1].

سار بعد ذلك عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى برقة؛ ليؤمن فتوحاتِه من الغرب؛ حيث قوات الروم تتحصن في برقة وطرابلس، ففتح الله عليه برقة صلحًا عام: (**22** هـ)، ثم سار إلى طرابلس، وحاصرها أشهرًا، لا يقدر منها على شيء؛ حتى استطاعت جماعة من المسلمين دخولها من جهة البحر؛ ففتح اللهُ بعدها المدينة على المسلمين[2]، وأراد عمرو رضي الله عنه بعد ذلك أن يسير إلى تونس وإفريقية ليفتحها؛ لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خشي على جيوش المسلمين من الزحف السريع في أرض لا يعرفونها، وأمر بالتوقف عند طرابلس[3]، وبذلك امتدت دولة الإسلام في عصر الخليفة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتشمل مساحة شاسعة من الأرض، يحدها من الشرق نهر جيحون، ومن الغرب بلاد إفريقية وصحرائها إلى طرابلس، ومن الشمال جبال آسيا الصغرى وبلاد أرمينية، ومن الجنوب المحيط الهادي وبلاد النوبة.

وفاة الفاروق رضي الله عنه

كان من دعاء الفاروق رضي الله عنه أن يرزقه الله الشهادة في بلد نبيه محمد ﷺ، فاستجاب الله دعاءه؛ بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وهو يصلي الفجر بالمسلمين، وذلك يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة، عام: (**23** هـ)، ودفن في حجرة عائشة رضي الله عنها، بجوار صاحبيه: رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه، وكان قد أوصى بالخلافة من بعده للستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهم،[4] ولم يذكر سعيد بن زيد رضي الله عنه لأنه من قبيلته، والله أعلم[5].

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مصدر سابق، 1/1013.
2- ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/408.
3- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مصدر سابق، 1/198.
4- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 5/15.
5- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/145.

الفصل الثاني:
عهد عثمان وعلي

المبحث الأول: عهد عثمان بن عفان

المبحث الثاني: الفتوحات زمن عثمان

المبحث الثالث: الفتنة ومقتل عثمان

المبحث الرابع: عهد علي بن أبي طالب

المبحث الخامس: الانتقال إلى الكوفة والفتنة

المبحث الأول: عثمان بن عفان رضي الله عنه

إسلام عثمان وصحبته رسول الله ﷺ.

هو عثمان بن عفان، بن أبي العاص بن أمية، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، ولد في مكة بعد عام الفيل بست سنين، وكان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، ولما ولد له غلام من رقية بنت رسول الله ﷺ سماه: عبد الله؛ فكنَّاه المسلمون: أبا عبد الله؛ وبعد وفاة رقية رضي الله عنها زوجه النبي ﷺ أختها: أم كلثوم رضي الله عنها[1]؛ فسمي لذلك: ذي النورين، وقد قيل: إنه لم يغلق أحد على ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره رضي الله عنه[2].

كان عثمان رضي الله عنه من السابقين الأولين، الذين أسلموا منذ الأيام الأولى لبعثة نبينا محمد ﷺ، أسلم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان رابع من أسلم من الرجال، ومنذ أن أسلم رضي الله عنه لازم رسول الله ﷺ، ونهل من معين النبوة؛ فصقلت تلك الملازمة مواهبَه، وهذبت نفسَه، وفجرت طاقاتِه؛ فقوي لذلك على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه وعقيدته، ولما اشتد بطش قريش بالمسلمين، وأشار رسول الله ﷺ عليهم أن يهاجروا إلى الحبشة؛ كان عثمان رضي الله عنه ممن هاجر إليها، الهجرة الأولى والثانية، ومعه زوجته: رقية بنت رسول الله ﷺ، وذلك في العام الخامس للبعثة[3].

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ كان عثمان رضي الله عنه من أعمدة الدولة الإسلامية فيها، فلم يبخل رضي الله عنه بمشورة، ولا مال، ولا رأي، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا بدر؛ وقد بادر رضي الله عنه للخروج مع المسلمين؛ إلا أن رسول الله ﷺ أمره أن يبقى يمرِّض زوجته: رقية رضي الله عنها[4]، وكان له في الحديبية موقف عظيم، نمَّ عن عظيم حبه وتوقيره لرسول الله ﷺ، فلما أوفده رسول الله ﷺ إلى مكة يفاوض عن المسلمين، ويبين لهم أنهم إنما جاؤوا معتمرين؛ عرضت عليه قريش أن يطوف بالبيت فلم يقبل ذلك رضي الله عنه، بل قال لهم: ما كنت لأفعل

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، (3/39) و(8/31).
2- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 3/347.
3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، 3/40.
4- ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/29.

حتى يطوف رسول الله ﷺ، وشاع بين أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشًا قتلته؛ فبايع رسول الله ﷺ الناس على قتال المشركين، وبايع عن عثمان بيده اليمنى، وقال: «هذه يد عثمان»[1]، وسميت تلك البيعة بيعة الرضوان[2].

وفي غزوة تبوك ساعة العسرة كان عثمان رضي الله عنه صاحب القدح المعلى فيها بالإنفاق والبذل؛ فقد حث رسول الله ﷺ على تجهيز جيش العسرة؛ فقام عثمان رضي الله عنه فقدم ثلاثمئة بعيرًا بأحلاسها وأقتابها؛ حتى قال رسول الله ﷺ: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[3]، وجاءت في فضله رضي الله عنه أحاديث كثيرة، منها أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة[4].

كان عثمان رضي الله عنه أحد الستة الذين أوصى لهم عمر رضي الله عنه بالخلافة بعده، وبعد مقتل عمر رضي الله عنه؛ اجتمعت كلمة المسلمين على مبايعة عثمان رضي الله عنه، وكان عبد الرحمن بن عوف أول من بايعه، ثم بايعه المسلمون، وذكر أن أول من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه[5]، وخطب عثمان رضي الله عنه الناس بعدها خطبة، بيَّن فيها منهجه السياسي، الذي سيسلكه فيهم، ومرجعيته في الحكم، والتي تستند إلى الكتاب والسنة، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[6].

1- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص: 5/15.
2- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 4/167.
3- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1395/1975) 5/625.
4- المصدر السابق، 5/648.
5- ينظر: محمد بن يحيى، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق: محمود يوسف الدوحة: دار الثقافة، د. ت، 1405) 1/27، وينظر: العمري، أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، (الرياض: مكتبة العبيكان، د. ت، د. ط) 1/56.
6- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/422.

المبحث الثاني:
الفتوحات الإسلامية زمن عثمان رضي الله عنه

شجع خبر مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلًّا من الفرس والروم؛ على الطمع في استرداد ملكهم، فأخذ يزدجرد يجمع الفرس حوله لذلك، وكذا فعل الروم، حيث تجمعوا وأخذوا يبحثون عن وسيلة يستردون بها الإسكندرية، وأجلبوا على المسلمين في الشام بجموع عظيمة؛ فواجه عثمان رضي الله عنه ذلك كله بحزم وعزم، فأخضع المتمردين من الفرس، وأعاد سلطان الإسلام إلى بلادهم، واستمر بالفتوحات فيما وراء تلك البلاد؛ حتى قطع الإمدادات عنهم، وبنى فيها قواعد ثابتة للرباط، شحنها بالمقاتلين، وكان من أعظم قادته في فتوحات المشرق: الأحنفُ بن قيس، وعبد الله بن عامر، وغيرهم.

الجبهة الشامية

أحبط عثمان رضي الله عنه مخططات الروم في الشام، وتصدى لهجماتهم على المسلمين فيها، وكان من أعظم قادته على الجبهة الشامية: حبيب بن مسلمة الفهري، الذي أباد جيوشًا كاملة للروم، وتوغَّل في أرمينية في الأراضي البيزنطية، وفتح حصونًا ومدنًا كثيرة[1]، وكان من أعظم ما فعله عثمان رضي الله عنه على الجبهة الشامية؛ بناؤه الأسطول البحريَّ، الذي أضفى على دولة الإسلام في زمنه قوةً فوق قوتها، ولعلَّ هذا من أعظم ما يميز الفتوحات الإسلامية زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

لقد كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه واليًا على الشام زمن الخليفة عمر رضي الله عنه، وكان يلح على عمر رضي الله عنه في غزو البحر، حتى إذا ما أكثر عليه معاوية؛ طلب عمر رضي الله عنه من عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يصف له البحر، ولما قرأ عمر رضي الله عنه وصف عمرو بن العاص للبحر؛ كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمدًا بالحق لا أحمل عليه مسلمًا، ولكن هذه الفكرة لم تبرح معاوية، فقد كان يطمع في فتح بلاد الروم، حتى إذا ما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة بعد الفاروق؛ كتب إليه معاوية بذلك، وألحَّ عليه أن يركب البحر لفتح قبرص؛ فأجابه عثمان رضي الله

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/248.

عنه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه، وإلا فلا، واشترط عليه ألا يكره أحدًا من المسلمين على ذلك[1].

أخذ معاوية رضي الله عنه يعد العدة لذلك، وأمر بإصلاح المراكب، وتقريبها من حصن عكا الذي رممه لذلك، فاجتمع المسلمون بأعدادٍ كبيرة مع معاوية، وركبوا معه البحر إلى قبرص، ثم نزلوا على ساحلها، وأرسلوا إلى أهلها أنهم لا يريدون الاستيلاء على جزيرتهم، إنما يريدون دعوتهم للإسلام، ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام؛ لأن الروم كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون بها، ويتقوون فيها على غزو المسلمين، لكن أهل الجزيرة لم يستسلموا للمسلمين، ولم يخرجوا لقتالهم، بل تحصنوا فيها، وجعلوا ينتظرون المدد من الروم، فحاصرهم المسلمون ساعات، ثم ما لبثوا أن طلبوا الصلح مع المسلمين، واشترط عليهم المسلمون ألا يعينوا الروم عليهم[2].

في سنة (**32** هـ) نقض أهلُ قبرص العهد مع المسلمين، وأقدموا على إمداد جيش الروم بالسفن؛ ليغزوا بها بلاد المسلمين، فعزم معاوية على الاستيلاء عليها، وتم له ذلك، بعد أن أنزل بهم المسلمون مقتلةً عظيمةً، وسبوا منهم سبيًا كبيرًا، حتى اضطر حاكمهم أن يطلب الصلح مع المسلمين، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول، وجعل في الجزيرة جيشًا يحميها من غارات الأعداء.

كان معاوية رضي الله عنه قد جعل عبدَ الله بن قيس على قيادة الأسطول البحري، فغزا عبد الله خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر، لم يغرق من جنده أحد، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، حتى قتل شهيدًا[3]، ثم في خلافة معاوية رضي الله عنه تطور أسطول المسلمين البحري تطورًا عظيمًا.

الجبهة المصرية

كان عثمان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه، وكان الروم يتحينون الفرصة لاسترداد الإسكندرية، وإخراج المسلمين منها؛ مستغلين قلة عدد المسلمين فيها؛ ولما

1- ينظر: المصدر السابق، 4/257، وينظر: البلاذي، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1988) 1/130 -153.

2- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/172، البلاذي، فتوح البلاد، مصدر سابق، 1/154.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، 2/470.

وصلت قواتهم شواطئ الإسكندرية؛ كتب أهل مصر إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يعيد عمرو بن العاص أميرًا على مصر؛ ليقاتل الروم؛ لأنه أعلم بحربهم، وله هيبة في نفوسهم؛ فلبى عثمان رضي الله عنه طلبهم، وأعاد عمرو بن العاص على مصر، وكان من سياسة عمرو رضي الله عنه أن ترك الروم يدخلون الإسكندرية، ويعيثون فيها نهبًا ودمارًا؛ ليُشعر المصريين -القبط- بالفرق الهائل بين دخول المسلمين أرضهم، ودخول الروم، وليملأ قلوبهم حقدًا وغضبًا على الروم، فلا يعودون يحبونهم.

سار الروم بعد استيلائهم على الإسكندرية إلى مصر السفلى، وتركهم عمرو رضي الله عنه ينهبون ما في طريقهم، ويهدمون الحصون والأبنية، ولقي منهم أهل مصر الويلات؛ حتى التقى بهم رضي الله عنه عند حصن نقيوس[1] على شاطئ النيل، وهناك دارت بين الجيشين معركة عظيمة، هزم اللهُ فيها الرومَ هزيمة منكرة، وسار بعدها عمرو رضي الله عنه إلى الإسكندرية فحاصرها، وضربها بالمنجنيق؛ حتى تصدَّعت أسوارها، وضعف أهلها عن الدفاع عنها، ثم دخلها المسلمون فاتحين، وجاء بعدها أهل مصر إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه، يشكرونه على تخليصهم من الروم، ويعلنون ولاءهم له وطاعتهم، ويدفعون له الجزية طائعين، وذلك عام: (**25** هـ)، ولم يجرؤ بعد ذلك الروم على مهاجمة الإسكندرية[2].

شمال إفريقية.

عمل عبد الله بن أبي السرح على إكمال فتوحات عمرو بن العاص في إفريقية؛ فجهَّز حملة عسكرية لذلك، انضم إليها عدد من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وخيرة شباب آل البيت، كالحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم، وانضمت إلى هذه الحملة قوات نافع بن عقبة، وسارت الحملة حتى وصلت سبيطلة[3]، وهناك التقت بجيش جرجير حاكم إفريقية، ودارت بين الجيشين معارك عظيمة، استمرت عدة أيام؛ حتى جاء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فأشار على المسلمين بتغيير طريقة القتال، واستطاع رضي الله عنه بشجاعته ودهائه قتل جرجير

1- نقيوس: قرية بين الفسطاط والإسكندرية، كانت بها وقعة لعمرو بن العاص والروم لما نقضوا، ينظر: الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص: 5/303.

2- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، 2/455، وينظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مصدر سابق، 1/202.

3- مدينة من مدن إفريقية، بينها وبين القيروان سبعون ميلا، ينظر: الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص: 3/187.

قائد جيش الروم، وما إن قتله حتى ضعف جنده، فولَّوا هاربين، فتبعهم المسلمون، وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة، ثم دخلوا مدينة سبيطلة، وغنموا في هذه المعركة من الأموال ما لم يكن في غيرها، وأصبح بذلك الساحل الجنوبي للبحر المتوسط من ردوس وحتى برقة تحت سيطرة المسلمين[1].

معركة ذات الصواري (31 هـ).

بعد توسعُ المسلمين في الشمال الإفريقي؛ أصبح الأسطول الإسلامي يسيطر على قسم كبير من السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط؛ مما أثار حفيظةَ قسطنطين بن هرقل؛ فجهز حملة بحرية قوامها ألف سفينة؛ لقتال المسلمين، وفرضِ سيطرة الروم من جديد على شرق البحر المتوسط وجنوبه؛ ويرجح عدد من المؤرخين أن الأسطول الرومي التقى بالأسطول الإسلامي في شواطئ الإسكندرية، واختار الماء مكانًا للمعركة، بعد أن جرت بين الجيشين مفاوضات، خيَّر فيها المسلمون الرومَ إما أن يكون الساحل مكان المعركة أو الماء؛ فاختاروا الماء، معتمدين على قوتهم البحرية الهائلة، وإتقانهم فنون القتال في البحر، ودرايتهم بأحواله، وكان أملهم في النصر كبيرًا، وثقتهم بأنفسهم عالية؛ لعلمهم بحداثة عهد المسلمين بالقتال في البحر[2].

بدأ القتال بين الجيشين في البحر، وسالت خلاله دماء غزيرة، حتى اصطبغت بها صفحة البحر فصار أحمر، وتساقطت الجثث في الماء، واستبسل المسلمون في قتال الروم؛ حتى ألقى الروم السلاسل على سفينة القائد المسلم: عبدالله بن أبي السرح؛ لسحبها والتفرد بها، ومن ثم إغراقها؛ ليوهنوا المسلمين، ويتركوهم بلا قائد؛ ولكن علقمةَ بن يزيد الغطيفي استطاع قطع السلاسل بسيفه، وأنقذ بذلك السفينة والقائد؛ واستمر القتال حتى كتب الله النصر للمسلمين، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد قسطنطين أن يقع أسيرًا في أيدي المسلمين، لكنه فرَّ بعدما رأى قواه تنهار، وأسطوله العظيم يتحطم على أيدي المسلمين، وجثثَ جنوده تطفو على الماء، والأمواج تحملها إلى الساحل؛ ولما وصل جزيرة صقلية، وأخبر أهلها بأمره؛ قالوا له: شمَّت النصرانية، وأفنيت رجالها، ولو دخل المسلمون لم نجد من يردهم؛ فقتلوه، وخلوا من كان

1- ينظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي، تحقيق: محمد عبد القادر، وغيره (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1412/1992) 4/344، وينظر: المراكش، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال (بيروت: دار الثقافة، ط 3، 1983) 1/10.

2- ينظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، مصدر سابق، 5/478.

معه في المراكب[1].

وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنها يرموكًا ثانيًا على الروم[2]، ولقد كانت هذه المعركة بحق من أعظم معارك المسلمين مع الروم، وكانت أول معركة حاسمة يخوضها الأسطول الإسلامي الفتي في البحر؛ أظهر خلالها المسلمون عظمتهم التي جعلت المعركة صعبة على الروم؛ بما ابتكروه من فنون القتال خلالها، الأمر الذي انتهى بكارثة على الروم، وأدركوا بعدها أنه لا أمل لهم في استرداد هيبتهم، ولا في استرجاع مصر أو الشام، وانطلق بعدها المسلمون في عرض البحر، الذي كان بحيرة رومية، حتى وصلوا إلى جنوة ومرسيليا، وانتهى اسم (بحر الروم) إلى الأبد[3].

لقد كان من أعظم قادة الفتوحات الإسلامية زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه عبدُ الرحمن بن ربيعة الباهلي، وأخوه سليمان، وحبيب بن مسلمة الفهري، والأحنف بن قيس، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم، وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه توقفت الفتوحات الإسلامية زمنًا؛ بسبب الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، لتعود وتنطلق من جديد زمن معاوية رضي الله عنه.

جمع القرآن

كان من أعظم المفاخر والخدمات التي قدمها عثمان رضي الله عنه للأمة؛ أن جمعها على قرآن واحد، ذلك أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما رأى بعض المسلمين قد اختلفوا في وجوه القراءة، وعاب بعضهم قراءة بعض؛ أشار على عثمان رضي الله عنه أن أدرك هذه الأمة، قبل أن تختلف على كتابها، كما اختلفت اليهود والنصارى على كتابها؛ فاستشار عثمان رضي الله عنه كبار الصحابة في ذلك؛ فأجابوه إلى رأيه؛ فطلب عثمان رضي الله عنه من حفصة رضي الله عنها المصحف الذي كان عندها، وهو الذي جمع في زمن الصديق رضي الله عنه، وأمر أربعة من أشهر قراء الصحابة إتقانًا لحفظ القرآن، ووعيًا لحروفه، وأداءً لقراءته، وفهمًا لإعرابه ولغته؛ أمرهم أن ينسخوا منها عدة نسخ، وهم ثلاثة من قريش، عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن

1- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/157، وينظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مصدر سابق، 1/217، وينظر: طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين، مصدر سابق، 1/382.

2- شوقي، شوقي أبو خليل، حصن بابليون وذات الصواري (بيروت: دار الفكر، ط 3، 1998) ص 67.

3- أبو عُبيَّة، طه عبد المقصود، موجز عن الفتوحات الإسلامية (القاهرة: دار النشر للجامعات، د. ط، د. ت) 1/25.

هشام رضي الله عنهم، وزيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، صاحب الجمع الأول زمن الصديق رضي الله عنه، وذكر أنهم كانوا أكثر من ذلك، وكان فيهم أبي بن كعب رضي الله عنه، وأمرهم عثمان إن اختلفوا مع زيد في شيء أن يكتبوه بلسان قريش؛ لأنه إنما نزل بلسانها؛ ففعلوا ذلك، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف؛ رد عثمان رضي الله عنه الصحف إلى حفصة رضي الله عنها، وأرسل إلى كل مِصرٍ من الأمصار بمصحف مما نسخوا، وأمر بحرق ما سواه من قرآن[1]، وكان ذلك بإجماعِ الصحابة كلهم، إلا ما كان من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولكن لم يصحَّ شيء مما أورده بعض المؤرخين من أن ابن مسعود كفَّره عثمان، أو أن عثمان ضربه رضي الله عنهما[2].

أقارب عثمان من الولاة

عاب الحاقدون على عثمان رضي الله عنه عدة أمور، كان من تلك الأمور ما ذكروا من محاباته رضي الله عنه أقاربه من بني أمية في المناصب والأعطيات، وبعد البحث في أخبار ولاة عثمان رضي الله عنه؛ نجد أنه كان قد استعمل ستة وعشرين واليًا على الأمصار، منهم خمسة من بني أمية، ولما توفي رضي الله عنه لم يكن من بني أمية من الولاة سوى ثلاثة، هم: معاوية بن أبي سفيان، والي بلاد الشام، وعبد الله بن أبي السرح،

1- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 6/183.

2- عبد الله بن مسعود من كبار علماء الصحابة ومن أجودهم قراءة لكتاب الله، وقد أثنى رسول الله ﷺ مرة على حسن تلاوة ابن مسعود للقرآن، فتسارع أبو بكر وعمر ليوصلا إليه البشرى بهذا الثناء النبوي؛ فلما عزم عثمان رضي الله عنه على تعميم مصحف واحد في العالم الإسلامي يجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنه هو المصحف الكامل الموافق لآخر عرضة عرض بها كتاب الله - عز وجل - على رسوله ﷺ قبل وفاته؛ كان ابن مسعود يود لو أن كتابة المصحف نيطت به، وكان يود أيضا لو يبقى مصحفه الذي كان يكتبه لنفسه فيما مضى؛ فجاء عمل عثمان على خلاف ما كان يوده ابن مسعود رضي الله عنه في الحالتين: أما في اختيار عثمان زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اختاراه قبل ذلك لهذا العمل في خلافة أبي بكر، بل إن أبا بكر وعمر اختارا زيد بن ثابت في البداية لأنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على الرسول ﷺ قبيل وفاته، فكان عثمان على حق في هذا، وهو يعلم - كما يعلم سائر الصحابة - مكانة ابن مسعود وعلمه وصدق إيمانه، ثم إن عثمان كان على حق أيضا في غسل المصاحف الأخرى، كلها ومنها مصحف ابن مسعود، لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل ما كان في استطاعة البشر هو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة، وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان على ابن مسعود (انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية 3: 192 - 191) وعلى كل حال فإن عثمان لم يضرب ابن مسعود ولم يمنعه عطاءه، وبقي يعرف له قدره كما بقي ابن مسعود على طاعته لإمامه الذي بايع له وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة، وقد كان ابن مسعود يكتب ما يوحى من القرآن في مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه، فهو يختلف في ترتيب هذه الآيات عما امتازت به مصاحف عثمان من الترتيب بحسب العرض الأخير على رسول الله ﷺ بقدر ما أدى إليه اجتهاد الصحابة المؤيد بإجماعهم، ويحتمل أن يكون ابن مسعود فاته في مصحفه بعض ما استقصاه زيد بن ثابت وزملاؤه من الآيات التي كانت عند آخرين من قراء الصحابة؛ زد على ذلك أن ابن مسعود كانت تغلب عليه لهجة قومه من هذيل، والنبي ﷺ رخص لمثل ابن مسعود أن يقرؤوا بلهجاتهم، ولكن ليس لابن مسعود أن يحمل الأمة في زمنه والأزمان بعده على لهجته الخاصة، فكان من الخير توحيد الأمة على قراءة كتاب ربها باللهجة المضرية التي كان عليها رسول الله ﷺ؛ ينظر: حاشية محب الدين الخطيب على كتاب: العواصم والقواصم لابن العربي (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط 1، 1419) 1/63-71.

والي مصر، وعبد الله بن عامر، والي البصرة، رضي الله عنهم، وكان عثمانُ قد عزل عن الكوفة كلاً من الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص.

فلا غرابة ولا عجب أن يكون من بين الستة والعشرين واليًا خمسةٌ من بني أمية الذين كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يستعملهم، وكذا استعملهم بعده الشيخان رضي الله عنهما؛ وذلك لكثرتهم، ولما فيهم من شرف وسؤدد، وليس استعمال عثمان رضي الله عنه لهم محاباة منه لهم[1]، وقد أثبت جميعهم الكفاية والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان.

حقيقة العلاقة بين عثمان وأبي ذر رضي الله عنهما

مما أثاره الحاقدون على عثمان رضي الله عنه قولهم إنه نفى أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة[2]، ولم يصحَّ شيء من ذلك البتة؛ ذلك أن أبا ذر رضي الله عنه كان نازلاً في الشام، وكان واليها آنذاك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما؛ فاختلف معه أبو ذر رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: **34**) فقال معاوية رضي الله عنه: نزلت في أهل الكتاب، وقال أبو ذر رضي الله عنه نزلت فينا وفيهم، وكان رضي الله عنه يرى أن الوعيد يتناول كلَّ من كنز المال؛ بناء على فهمه لبعض الأحاديث، مخالفًا بذلك جمهور الصحابة في تفسيرها، الذين كانوا يرون أن الآية إنما تتوعد من كنز المال ولم يخرج زكاته فقط.

شكى معاوية أبا ذر إلى عثمان ؛ فكتب عثمان إلى أبي ذر أن يقدم إلى المدينة، فلما قدم سأله عن رأيه في الآية، فقال له ما قاله لمعاوية، وأخذ الناس يجتمعون حول أبي ذر رضي الله عنه، ويسألونه عن سبب مجيئه؛ فاستأذن عثمانَ أن ينزل في الربذة، فقال له عثمان: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالربذة، قال: نعم، فلم ينفِ معاوية أبا ذر من الشام، ولم ينفهِ عثمان من المدينة، بل إنما ذهب إليها أبو ذرٍ رضي الله عنه طائعًا مختارًا[3]، وقد كان ينزل بها منذ زمن رسول الله ﷺ؛ بل

1- ابن العربي، العواصم من القواصم، مصدر سابق، 1/80.
2- الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيّام، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكّة، الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص: 3/24.
3- ابن العربي، العواصم من القواصم، مصدر سابق، 1/73.

إن زوجة أبي ذر رضي الله عنه قد بيَّنت السبب الحقيقي في خروجه رضي الله عنه من المدينة، ونزوله الربذة؛ فعن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه قال: قالت أم ذر: والله ما سيَّر عثمان أبا ذر، ولكنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا بلغ البنيان سلعًا فاخرج منها» قالت: فلما بلغ البنيان سلعًا وجاوز خرج أبو ذر[1].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قد قال في أبي ذر رضي الله عنه: «رحم الله أبا ذر؛ يمشي وحده، ويموت وحده ويبعث وحده»[2]، ولما حضرته الوفاة في الربذة أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني، ثم احملاني وضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره؛ فإذا ابن مسعود رضي الله عنه في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر رضي الله عنه، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر؛ يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[3]، فغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه ودفنوه، وضم بعد ذلك عثمان عيالَ أبي ذر إلى عياله.

1- الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1411/1990) 3/387، قال الألباني: ضعيف، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (الرياض: دار المعارف، ط 1، 1412/1992) 12/289.

2- ضعيف، الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مصدر سابق، ص: 12/40.

3- سبق تخريجه.

المبحث الثالث: الفتنة ومقتل عثمان رضي الله عنه

ولي عثمان رضي الله عنه الخلافةَ بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر رضي الله عنه قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يده، وكان رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذنه، ولأجل محدد، وكان عثمان رضي الله عنه ألين منه طبعًا، وأرق معاملةً، ولم يكن يأخذ نفسه، أو الناس بما كان يأخذهم به عمر رضي الله عنه، بل كان يقول عن نفسه: "يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق"[1]، ولما ولي الخلافة رضي الله عنه أذن لمن شاء بالخروج؛ لذا كان أحب إليهم من عمر رضي الله عنه، بل لقد أصبحت محبته مضرب المثل عند الناس، ودامت خلافته اثنتي عشرة سنة.

إرهاصات الفتنة

في الشطر الثاني من خلافته رضي الله عنه؛ أخذ بعض الناس ينكرون عليه بعض أفعاله واجتهاداته، ومما كانوا يذكرونه: تغيبه عن بعض الغزوات والمواقع مع رسول الله ﷺ، وفراره في معركة أحد، وسياسته المالية في المنح والأعطيات، وسياسته الإدارية في تولية بعض أقربائه، واجتهاداته الفقهية الخاصة، كإتمامه الصلاة بمنى، ومواقفه مع بعض الصحابة كأبي ذر، وعمار بن ياسر، وابن مسعود رضي الله عنهم، وكان رضي الله عنه قد بين للناس موقفه مما نسب إليه، حتى بان افتراء الغوغاء وتضليلهم، وأشار عليه المسلمون بقتلهم؛ لكنه أبى ذلك، وقال: بل نعفو ونقبل[2].

فتنة عبد الله بن سبأ

في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه حدثت فتنة أدت إلى قتله، تولى كبرها ابن السوداء: عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي ادعى الإسلام، وجاء بآراء ومعتقدات من يهوديته الحاقدة، وأخذ يروجها بين الناس؛ للنيل من وحدة المجتمع المسلم، وإذكاءً للفتنة فيه، فالتف حوله رهط من أعراب الأمصار وغوغائها، ممن كان لهم سابقة في انتقاد عثمان رضي الله عنه، والطعن فيه، ومن تلك المعتقدات قوله بأن نبينا محمدًا ﷺ أولى

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 401/4.

2- ينظر: التميمي، سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق: أحمد راتب (عمان: دار النفائس، ط ٧، 1413/1993) 1/55، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/346.

بالرجعة من عيسى بن مريم عليه السلام، وكان يستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص: **85**)، وقوله: إن لكل نبي وصيًّا، وإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وصي رسول الله ﷺ، وبنى على ذلك قوله: إن عليًّا أولى بالخلافة من عثمان، وإن عثمان قد اغتصبها منه، وأخذ يكتب بذلك إلى أتباعه في الأمصار، ويزور الكتب، ويضعها باسم الصحابة أو الولاة؛ فلقيت دعوته قبولًا ورواجًا في بعض الأمصار؛ ولا سيما في مصر، التي جعلها مرتعًا لدعوته، ومنها كان ينظم حملته ضد عثمان رضي الله عنه[1].

وقد قدم رهط من الأعراب إلى المدينة المنورة، ممن تأثروا بآراء ابن سبأ وأضاليله، واجتمعوا بالصحابة الذين وردتهم كتب بأسمائهم؛ فلم يجدوا منهم تشجيعًا، بل لقد تبرأ أولئك الصحابة مما نسب إليهم من رسائل على لسان ابن سبأ، تؤلب الناس على عثمان، ووجد أولئك الأعراب عثمانَ رضي الله عنه مقدرًا للحقوق، بل لقد ناظرهم عثمان رضي الله عنه فيما نسبوا إليه، ورد على افتراءاتهم، وفسر لهم صدق أعماله؛ حتى قال أحدهم -وهو مالك بن الأشتر النخعي-: لعله مُكر به وبكم، وأدرك عثمان رضي الله عنه أن شيئًا ما يحاك في الأمصار، وأنَّ الأمة تمخض بشر فقال رضي الله عنه: والله إنَّ رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها[2]، لكن ابن سبأ استمرَّ في حبك مخططه التدميري، وأخذ يتنقَّل في الأمصار التي وجد له فيها أتباعًا، كمصر والبصرة والكوفة، والمدينة المنورة، وبدأ أعماله الشيطانية سنة ثلاثين للهجرة.

بدأت أعمال ابن سبأ الشيطانية في الكوفة، عندما نجح الموتورون فيها بإزاحة الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة؛ بعد أن أقام عليه عثمان رضي الله عنه حدَّ شرب الخمر[3]، وعيَّن مكانه سعيدَ بن العاص واليًا عليها، الذي استطاع كشف مخططاتهم، ومعرفة مرادهم وتوجهاتهم، فكتب إلى عثمان رضي الله عنه، يخبره بتعمق الفتنة في الكوفة، وسيطرة الرعاع والغوغاء وأجلاف العرب على الرأي فيها، فرد عليه عثمان رضي الله عنه أن يعيد ترتيب أوضاع الكوفة، ويقدم أهل السابقة والجهاد على غيرهم؛ ممن فتح الله على أيديهم تلك البلاد؛ فغاض ذلك الغوغاء أكثر، وفشت فيهم القالة؛

1- ينظر: التميمي، الفتنة ووقعة الجمل، مصدر سابق، 1/48، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/340.
2- ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/527.
3- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 5/14.

فأخذوا يعيبون ذلك على الخليفة والوالي، ويعتبرونه تمييزًا، وإقصاءً لهم[1]، ولكنَّ عامة الناس في الكوفة رفضوا كلامهم وردوه.

لم يستسلم أولئك الموتورون لتصدي سعيد لهم في الكوفة، ورفْضِ عامة الناس لهم، بل نظموا (جمعية سرية) بينهم وبين أتباعهم في الأمصار، وأشار عليهم ابن سبأ أن يبدؤوا في تحركهم ضد الدولة، ويعملوا على عزل الخليفة، والطعن في الولاة الذين يعينهم الخليفة، ويظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصار يكتب هو وأعضاء جمعيته إلى أتباعهم في الأمصار زورًا وكذبًا عن ظلم الأمراء، وتسلطهم على الناس، حتى أفسدوا المسلمين ومزقوا كلمتهم، وزعزعوا أُخوَّتهم ووحدتهم.

توجه ابن سبأ إلى الشام ليبث أفكاره فيها، فلم يجد له فيها أتباعًا، كما وجد في غيره من الأمصار؛ فقد كان له معاوية رضي الله عنه بالمرصاد، ولما جاء البصرة نزل عند اللص: حكيم بن جبلة، الذي أمر عثمان بحبسه لإفساده في الأرض، وقد جاء حكيم بأمثاله من اللصوص، وجمعهم بابن سبأ، الذي استطاع تجنيدهم في جمعيته السرية، ولما شعر والي البصرة: عبد الله بن عامر بابن سبأ؛ أخرجه منها، فجاء ابن سبأ الكوفة[2]، والتقى بالغوغاء، الذين أخَّرهم واليها: سعيد بن العاص، وقدَّم عليهم أهل السابقة والجهاد؛ فعشعش ابن سبأ بينهم وأفسد، وباض وفرَّخ؛ حتى كانوا أول من بدأ هذه الفتنة.

أساليب عثمان في وأد الفتنة.

لما عظم أمر الغوغاء في الكوفة؛ بعد اجتماعهم بابن سبأ، وأعلنوا فيها رفضهم لواليها، بل وللخليفة أيضًا، ونال الناسَ منهم الأذى؛ شكاهم الناسُ إلى عثمان رضي الله عنه، وطلبوا منه أن يخرجهم من الكوفة؛ فنفاهم عثمان رضي الله عنه إلى الشام، وكتب إلى معاوية أن يخيفهم ويأدبهم، فإن رأى منهم رَشدًا قبل منهم[3]، وكان ممن نُفي إلى الشام: الأشتر النخعي، وجندب الأزدي، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكواء، وقد أحسن إليهم معاوية بادي الأمر، فكان يجلس إليهم كل يوم، يتغدى معهم ويتعشى، ثم أخذ يستمع إليهم، ويناقشهم فيما ينقمونه من أمر الخليفة

1- ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/480، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/281.
2- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/326.
3- المصدر السابق، 4/318.

عثمان رضي الله عنه، وبغض قريش، ويرد عليهم، ويحتمل منهم الأذى، ويبذل لهم صبره وحلمه، ويحذرهم نقمة الله وغضبه، وفرقةَ الكلمة، ومعصيةَ الإمام،؛ ولما تبين له رضي الله عنه أنهم لا يريدون خيرًا، وأن الفتنة قد عشعشت في رؤوسهم حتى أضلتهم؛ كتب إلى عثمان رضي الله عنه أن يردهم إلى مكانهم الذي نجم فيه نفاقهم؛ فردهم عثمان إلى الكوفة، حيث واليها سعيد بن العاص رضي الله عنه، لكنهم لم ينتهوا عن فجورهم وتضليلهم، ولم يكونوا إلا أطلق ألسنةً منهم حين رجعوا؛ حتى ضجَّ منهم سعيد بن العاص، وكتب إلى عثمان أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حمص[1].

لم يلنْ معهم عبد الرحمن بن خالد، كما لان لهم معاوية وسعيد، بل اتبع معهم أسلوبًا شديدًا وقاسيًا، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، ويقول لهم: خسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم ويخزكم، يا معشر من لا أدري من أنتم: أعرب أم عجم؟ وكان يقول لزعيمهم صعصعة بن صوحان: يا ابن الخطيئة: هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة؟ وبقي معهم على هذا الأسلوب حتى نفع بهم، وأظهروا التوبة والندم، وقالوا له: نتوب إلى الله ونستغفره، أقلنا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله، وراسلوا عثمان رضي الله عنه يعلمونه برجوعهم إلى الحق وتوبتهم، فعفا عنهم رضي الله عنه، وظلوا كذلك عند عبد الرحمن في حمص، ورأى أهل الفتنة في الكوفة أن يسكتوا حتى حين، وذلك عام: (**33** هـ)[2].

وفي عام: (**34** هـ) أتمَّ ابن سبأ إحكام مخططه التدميري، فرتَّب مع جماعته الخروج على الخليفة وولاته، وراسلهم للبدء بذلك، وكانت البداية من الكوفة؛ التي خلت وقتها من أشراف القوم ووجهائهم، بعد أن أرسلهم واليها: سعيد بن العاص إلى الجهاد، ووفد هو أيضًا على عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقام زعيم الفتنة في الكوفة: يزيد بن قيس، إلى مسجد الكوفة يريد خلع الخليفة عثمان رضي الله عنه، فتجمَّع حوله الغوغاء والسبئيُّون الذين كان يراسلهم ابن سبأ أيضًا؛ فعلم بتجمعهم أمير الحرب: القعقاع بن عمر التميمي، فقبض عليهم؛ ولما رأى يزيدُ شدةَ القعقاع معه؛ أظهر له أنه إنما يريد تغيير والي الكوفة: سعيد بن العاص.

1- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/166.

2- ينظر: التميمي، الفتنة ووقعة الجمل، مصدر سابق، 1/40، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/321، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/515.

وهنا أرسل يزيد بن قيس إلى أصحابه المنفيين إلى حمص أن يقدموا إليه؛ فخرجوا من حمص دون أن يشعر بهم عبد الرحمن بن خالد، أو أن يعثر لهم على أثر، ولما وصلوا الكوفة، قام الأشتر النخعي في المسجد يخطب الناس ويحضهم على الخروج، وكان مما قال: جئتكم من عند الخليفة عثمان، وتركت واليكم سعيد بن العاص عنده، وقد اتفق عثمان وسعيد على إنقاص عطائكم، وخفض أموالكم، وقد كذب في ذلك الأشتر؛ فضجَّ الغوغاء لذلك وثاروا؛ فقادهم رأس الفتنة: يزيد بن قيس، ووقف بهم على أطراف الكوفة؛ يمنعون سعيد بن العاص من دخولها، ويطالبون بأبي موسى الأشعري واليًا عليهم، ولما خرجوا أشار القعقاع بن عمرو بقتلهم؛ لكن رأيه لم يلقَ قبولًا، بل لقد رجع سعيد بن العاص إلى عثمان، وولى عثمان على الكوفة أبا موسى الأشعري رضي الله عنه؛ استجابةً لمطالب السبئيين، ثم كتب إليهم رضي الله عنه قائلاً: أما بعد؛ فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأفرشنَّ لكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم على الله حجة[1].

ومن هنا أخذ عثمان رضي الله عنه يقوم بخطوات عملية، يواجه بها هذه الفتنة التي يقودها ابن سبأ، فاختار عددًا من خيار الصحابة رضي الله عنهم، وأرسلهم إلى الأمصار، يسألون الناس عن أحوالهم، وما أشاعه السبئيون عن ولاتهم، فلم يجدوا ما يوجب على الخليفة أن يعزل أحدًا من الولاة، بل وجدوا الناس في راحة وعدل واطمئنان، ولما رجعوا إلى المدينة قالوا: يا أيها الناس، ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكر المسلمون، غير أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم.

ثم أتبع عثمان هذه الخطوة بكتاب إلى الناس في الأمصار، يطلب منهم أن يرفعوا إليه مظالمهم، ويوافوه على الموسم في الحج؛ ليقتصَّ لهم من ظالميهم؛ حتى لو كانوا الولاة أنفسهم، وبعد ذلك استدعى عثمان رضي الله عنه ولاة الأمصار إلى المدينة على عجل، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وعبد الله بن عامر أمير البصرة؛ فاستمع لرأيهم فيما يشاع في الأمصار، فمنهم من أشار عليه باللين معهم،

1- ينظر: التميمي، الفتنة ووقعة الجمل، مصدر سابق، 1/45، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/331، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/405.

وأشار عليه عمرو بن العاص بأخذهم بالشدة، ثم كان رأي عثمان رضي الله عنه أن الفتنة قائمة، وأن الأمة تمخض بشر، وأن الشدة لن توقفها، وقال: طوبى لعثمان إن مات ولم يحِّركها، وأشار معاوية بن أبي سفيان على عثمان رضي الله عنه أن يخرج معه إلى الشام؛ لكن عثمان رفض أن يترك جوار رسول الله ﷺ، فقال له معاوية: أبعث لك جيشًا من أهل الشام، يقيم في المدينة لمواجهة الأخطار المتوقعة، وليدفع عنك وعن أهل المدينة؛ فقال عثمان لا، حتى لا أقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنصرة[1]، وكان عثمان رضي الله عنه يريد أن يسير مع أهل الفتنة إلى نهاية الطريق، حتى لا يترك لهم حجة عند الله وعند الناس؛ فيفضحهم الله في الدنيا والآخرة، وتلك منه مصابرة عظيمة رضي الله عنه.

ولقد كان عند عثمان رضي الله عنه من اليقظة والوعي ما جعله يكشف مخططات السبئيين وتحركاتهم، واستطاع بفضل عيونه اختراق صفوف المتآمرين عليه، والوقوف على خططهم، ومعرفة طريقتهم في تنفيذها، والوقت الذي سيبدؤون به ذلك أيضًا، فقد أطلعه اثنان من عيونه؛ أن أهل الفتنة قد أسروا إليهم أنهم سيذكرون لعثمان رضي الله عنه أشياء قد زرعوها في قلوب الناس، وسيبعثون إليهم أن عثمان رضي الله عنه لم يتب منها، ولم يرجع عنها، ثم سيخرجون إلى المدينة على أنهم حجاج، فإذا فرغت المدينة من الناس؛ أحاطوا بعثمان رضي الله عنه، وطالبوه بخلع نفسه، فإن أبى قتلوه، ولما سمع عثمان ذلك ضحك، وقال: اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تسلمهم شقوا[2]، وقد خطب عثمان رضي الله عنه الناسَ، وأطلعهم على هذا المخطط، فأشار عليه الصحابة بقتلهم، لكنه أبى ذلك، وقال: بل نعفو ونصفح، ونبصرهم بجهدنا، ولا نقتل أحدًا من المسلمين، إلا إذا ارتكب حدًا يوجب القتل، أو أظهر ردةً وكفرًا.

ومما واجه به عثمان رضي الله عنه تلك الفتنة؛ أن دعا أولئك السبئيين ليعرضوا ما عندهم عليه من شبهات وانتقادات، فاجتمع بهم في المسجد، على مرأى ومسمع الصحابة والمسلمين، فتكلم السبئيون بما عندهم، وقام عثمان رضي الله عنه بالرد عليهم، وكان مما قالوه: إن عثمان رضي الله عنه قد أتمَّ الصلاة في السفر، ولم يتمها قبله رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال عثمان رضي الله عنه: لقد

1- ينظر: التميمي، الفتنة ووقعة الجمل، مصدر سابق، 1/49 وما بعدها، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/341 وما بعدها، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/527 وما بعدها.
2- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/346.

أتممت الصلاة لما سافرت من المدينة إلى مكة، ومكة بلد فيه أهلي، فأنا مقيم بين أهلي، ولست مسافرًا، أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم، وقالوا: إن عثمان رضي الله عنه قد حمى الحمى، وضيَّق على المسلمين، وجعل أرضًا واسعةً لرعي إبله، ولم يكن الحمى كذلك في عهد رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما؛ فقال عثمان رضي الله عنه: وأنا زدت فيه لما كثرت إبل الصدقة والجهاد، ولم أحم لماشيتي، وإني قد وُليت وإني أكثر العرب بعيرًا وشاة، فما لي اليوم شاة ولا بعير، غَير بعيرين لحجي، أكذلك؟ فقال الصحابة: اللَّهم نعم، وقالوا: كان القرآن كتبًا فتركتها عثمان رضي الله عنه إلا واحدًا، فقال عثمان رضي الله عنه: ألا وإن القرآن واحد، جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لأبي بكر رضي الله عنه الذي جمع القرآن، أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم.

وقالوا: إن عثمان قد ردَّ الحكم بن العاص إلى المدينة، وقد سيَّره رسول اللَّه ﷺ إلى الطائف، فقال عثمان رضي الله عنه: إن الحكم مكيٌّ، سيَّره رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردَّه رسول اللَّه ﷺ إلى مكة بعد أن رضي عنه، فرسول اللَّه ﷺ سيَّره، ورسول اللَّه ﷺ ردَّه، أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم، وقالوا: إن عثمان رضي الله عنه قد استعمل الأحداث، فقال عثمان رضي الله عنه: لم أستعمل إلا مجتمِعًا محتمِلًا مرضيًّا، وهؤلاء أهل عَمَلهم فسلوهم عنهم، ولَقَد ولَّى من قبلي أحدثَ منهم، لقد ولى رسول اللَّه ﷺ أسامة بن زيد، وهو أصغر ممن وليت، وقالوا لرسول الله ﷺ أشد مما قالوا لي في استعماله أسامة، أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم، إن هؤلاء الناس يعيبون للناس ما لا يفسرونه، ولا يوضحونه.

وقالوا: إن عثمان رضي الله عنه أعطى عبد الله بن أبي سرح رضي الله عنه ما أفاء اللَّه عليه، فقال عثمان رضي الله عنه: إني إنما نفلته خمس الخُمس جزاء جهاده في فتح إفريقية، فكان مئة ألف، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك؛ فرددته عليهم، وليس ذاك لهم، أليس كذلك؟ فقال الصحابة: اللهم نعم، وقالوا: إن عثمان رضي الله عنه يحب أهل بيته ويعطيهم، فقال عثمان رضي الله عنه: فأما حبي فإني لم أَمِلْ معهم على جَوْر، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإن ما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذٍ شحيح حريص، أفحين أتيتُ على أسنان أهل بيتي، وفَنِي

عمري، وودعتُ الذي لي في أهلي؛ قال الملحدون ما قالوا! وإني واللَّه ما حملت على مصر من الأمصار مالًا ولا فضلًا، ولقد رددته عليهم، وما قدم عليَّ إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء، ولقد تولى المسلمون وضعها في أهلها دوني، وإني لا آكل إلا من مالي، ولا أعطي أهلي إلا من مالي.

وقالوا: إن عثمان رضي الله عنه قد أعطى الأرض المفتوحة لرجالٍ معينين، فقال عثمان رضي الله عنه: إن هذه الأرضين المفتوحة، قد اشترك في فتحها المهاجرون والأنصار، وغيرهم من المجاهدين، فلما قسمتها بينهم منهم من أقام بها واستقر، ومنهم من رجع إلى المدينة أو غيرها، وبقيت تلك الأرض ملكًا له، وقد باع بعضهم تلك الأراضي، وكان ثمنها في أيديهم[1].

لم يكن أهل الفتنة طلاب حق حتى يرتدعوا بكلام عثمان رضي الله عنه وبيانه، بل لقد أعمت الفتنة قلوبهم، واستولى الباطل وحبُه على عقولهم، وعشعشت فيهم آراء ابن سبأ ومعتقداتُه، وأصروا على المضي فيما أملى به عليهم.

جموع الموتورين تفدُ المدينة

في شوال عام (**35** هـ) خرجت جموع أهل الفتنة من الكوفة والبصرة ومصر، على هيئة حجاج، حتى وصلت مشارف المدينة، وكان المتمردون من أهل مصر ألفَ رجل، مقسمين على أربع فرق، على كل فرقة أمير، ومعهم شيطانهم: عبد الله بن سبأ، وعلى رأس تلك الفرق كلها: الغافقي بن حرب العكي، وخرج أهل الكوفة في ألف رجل أيضًا، وأمير فرقهم: عمرو بن الأصم، كما خرج أهل البصرة في ألف رجل، وأمير فرقهم: حرقوص بن زهير السعدي، يريدون عزل عثمان رضي الله عنه، وتنصيب خليفةً غيره، وكان أهل الفتنة في مصر يريدون علي بن أبي طالب رضي الله عنه خليفةً، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام رضي الله عنه خليفةً، وكان أهل الفتنة من البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه خليفةً؛ وذلك منهم للإيقاع بين الصحابة، وقد نجى الله تعالى أصحاب رسوله ﷺ من هذا المخطط الشيطاني.

التقى عثمان رضي الله عنه ببعض تلك الجموع، وأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى غيرها، وبينوا لهم ما أشكل عليهم في أمر عثمان رضي الله عنه، فرضيت

1- ينظر: التميمي، الفتنة ووقعة الجمل، مصدر سابق، 1/55.

تلك الجموع بما قيل لها، وجددوا البيعة لعثمان رضي الله عنه، على السمع والطاعة، وألا يشقوا عليه عصا، ولا يفارقوا جماعة المسلمين، بشرط أن يعطيهم ما طلبوا، ورجعت تلك الوفود إلى ديارها راضية، وتبين بذلك لقادة الفتنة ومحركيها أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق؛ فخططوا لعملٍ يقضي على ما جرى من صلح بين عثمان رضي الله عنه وأهل الأمصار، فأرسل حكيمُ بن جبلة والأشترُ النخعي إلى وفد مصر من يعلمهم أن معه كتاب من عثمان رضي الله عنه إلى والي مصر: عبد الله بن أبي السرح، وفيه أمر من عثمان رضي الله عنه بقتلهم، فرجع وفد مصر إلى المدينة ساخطًا، وعلم بذلك وفد أهل الكوفة ووفد أهل البصرة؛ فرجعوا! وقد تنبه لرجوعهم علي رضي الله عنه، فقال لهم: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة! قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا، وهو في ذلك يصلي بهم، وهم يصلون خلفه رضي الله عنه[1].

نفى عثمان رضي الله عنه أن يكون كتب ذلك الكتاب، وقال لهم: إنهما اثنتان، أن تقيموا رجلين من المسلمين، أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت، ولا أمليت، ولا علمت، وقد يُكتب الكتاب على لسان الرجل، وينقش الخاتم، فلم يصدقوه[2]، وفي هذه الظروف كلَّف عثمان رضي الله عنه عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهأن يحج بالناس هذا الموسم؛ وكتب له كتابًا يقرؤه على الناس في الحج، بيَّن فيه قصته مع الخوارج، وموقفه منهم، ومآخذهم عليه[3].

بعد ذلك بدأ حصار الموتورين لعثمان رضي الله عنه، حتى منعوه من الخروج للصلاة، وقدَّموا للصلاة رجلاً منهم، وطلبوا من عثمان رضي الله عنه أن يخلع نفسه، أو يقتلوه، فرفض رضي الله عنه أن يخلع نفسه، وأشار عليه ابن عمر رضي الله عنه بذلك أيضًا، ألا يخلع قميصًا قمَّصه الله إياه؛ حتى لا تكون سنة، كلما كره قوم خليفةً، أو إمامًا قتلوه[4]، بل إن عثمان رضي الله عنه كان يعمل بوصية رسول الله ﷺ له بذلك لما قال له ﷺ: «يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»[5].

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/348.
2- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/175.
3- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/407.
4- ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، 2/48.
5- الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، 5/628، قال الألباني: صحيح.

وبينما عثمانُ محاصر في داره؛ سمع توعد الموتورين له بالقتل؛ فأشرف عليهم، وحاول أن يهدأهم، ويبيِّن لهم ما التَبس عليهم من أمره، وحذرهم من عاقبة قتله، وأخذ يذكرهم بفضائله، وما قاله رسول الله ﷺ فيه؛ ولكن الباطل كان قد أعماهم وأصمهم؛ فلم يستجيبوا له، وقال عثمان رضي الله عنه لمن معه في الدار: إنهم يتوعدونني بالقتل، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفسٍ»[1]، فوالله ما زنيت في جاهليةٍ ولا إسلام، ولا تمنيت بدلًا بديني منذ هداني الله عز وجل، ولا قتلت نفسًا، فبم يقتلوني[2]؟!

ودخل عليه أصحاب رسول الله ﷺ يعرضون عليه الدفاع عنه، والتصدي لأولئك الموتورين، عرض عليه ذلك كلٌّ من علي والزبير، وغيرهم؛ لكنه رضي الله عنه أبى ذلك[3]، ولم يأذن لأحد أن يسلَّ سيفًا في هذه الفتنة؛ لأنه يعلم أنه مقتول فيها لا محالة، لكنَّ أولئك الصحب الأوفياء أمروا أبناءهم ألا يبرحوا بيت عثمان رضي الله عنه؛ فبقي عنده الحسن والحسين، وابن عمر وعبد الله بن الزبير، وغيرهم كثير، بل لقد كانت داره غاصةً بالناس، ولو أذن لهم عثمان رضي الله عنه بالقتال لأخرجوهم من أقطارها، لكنه شدد عليهم ألا يقاتلوا؛ ولما شدد الموتورون الحصار على عثمان ومنعوا عنه الماء؛ خرجت إليه أم حبيبة رضي الله عنها؛ فمنعها المحاصرون من الوصول إليه، بل لقد ضرب الأشتر وجه بغلتها حتى ندَّت، وكادت تقتل رضي الله عنها[4].

الموتورون يجمعون على قتل عثمان

في نهاية موسم الحج بلغ الموتورين أنَّ أهل الموسم يريدون نصرة عثمان رضي الله عنه؛ فقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتلُ هذا الرجل؛ فيشتغل بذلك الناس عنا، فهاجموا دار عثمان رضي الله عنه؛ فتصدى لهم الحسن، وابن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وغيرهم رضي الله عنهم، ونشب القتال بينهم؛ فنادى بهم عثمان رضي الله عنه: الله الله، أنتم في حل من نصرتي؛ فأبوا ذلك، ودخل عليه غلمانه لينصروه؛ فأمرهم ألا يفعلوا، بل قال لهم: من كفَّ يده فهو حرٌّ، وقال للناس

1- أحمد، مسند أحمد، مصدر سابق، 1/365.
2- ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/179.
3- ينظر: الخطيب، أحمد بن علي، المتفق والمفترق، تحقيق: محمد صادق (دمشق: دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1417/1997) 1/459، وينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، مصدر سابق، 39/373.
4- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/386.

في وضوح وإصرار: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعةً إلا كفَّ يده وسلاحه؛ لأنه رضي الله عنه كان واثقًا من استشهاده؛ لشهادة النبي ﷺ له بذلك؛ فكفوا عن القتال وألزمهم الخروج من الدار، وقد أصيب في ذلك القتال الحسن بن علي، وابن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، وقتل المغيرة بن الأخنس وغيره، ولم يبقَ في الدار إلا عثمان رضي الله عنه وآله، وليس بينه وبين المحاصرين مدافع ولا حام، ونشر بعد ذلك المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ، وكان يومئذٍ صائمًا؛ وإذا برجل من المحاصرين يدخل عليه الدار؛ فقال له عثمان رضي الله عنه: بيني وبينك كتاب الله؛ فخرج الرجل وتركه، ثم دخل عليه رجل من بني سدوس، يقال له: الموت الأسود، فخنفه قبل أن يضربه بالسيف، وقال: والله ما رأيت شيئًا أهون من خنقه، لقد رأيت نفسه مثل الجان تردد في جسده؛ ثم أهوى إليه بالسيف؛ فاتقاه عثمان رضي الله عنه بيده فقطعها؛ فقال عثمان رضي الله عنه: أما والله إنها لأول كف خطت المفصَّل، وذلك أن عثمان كان من كتبة الوحي، وهو أول من كتب المصحف إملاء من رسول الله ﷺ، فقتل رضي الله عنه والمصحف بين يديه، وعلى إثر قطع يده انتضح الدم على المصحف، وسقط على قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: **137**).

قيل إن أول من ضرب عثمانَ بالسيف رجل يسمى: رومان اليماني، وقد وقفت زوجته نائلة بنت الفرافصة تدافع عنه، واتقت السيف بيدها؛ فتعمد سودان بن حمران؛ فقطع أصابع يدها، وغمز وركَها، ولما تمَّ لهم قتل عثمان رضي الله عنه نهبوا ما في البيت، حتى نهبوا ما على النساء، وهجم كلثوم التجيبي على نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه فنهب الملاءة التي عليها، ثم غمز وركها، وقال لها: ويح أمك من عجيزة ما أتمَّك، فرآه صبيح غلام عثمان رضي الله عنه، وسمعه وهو يتكلم في حق نائلة هذا الكلام الفاحش؛ فعلاه بالسيف فقتله، فهجم أحد السبئيين على الغلام فقتله[1].

قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة، الثامن عشر من ذي الحجة، عام: خمس وثلاثين للهجرة، وعمره: (**82**) سنة[2]، ولم يكن منهجه رضي الله عنه في التصدي للفتنة نابعًا من مجريات الأحداث، ولا من ضغط الواقع عليه، بل كان منهجًا نابعًا من مشكاة النبوة؛ حيث أمره رسول الله ﷺ بالصبر والاحتساب، وعدم القتال حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وقد وفى رضي الله عنه بوعده وعهده لرسول الله ﷺ طوال أيام خلافته؛ حتى خرَّ رضي الله عنه شهيدًا مضرَّجًا بدمائه الطاهرة الزكية.

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/388، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/541.
2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/415.

المبحث الرابع: علي بن أبي طالب رضي الله عنه

إسلام علي وصحبته رسول الله ﷺ

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، يلتقي معه في جده الأول: عبد المطلب، ولد قبل البعثة بعشر سنين، وكان يكنى أبا الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر: الحسن، وكناه النبي ﷺ: أبا تراب، وقد أكرم الله تعالى عليًّا فكان أول من آمن برسول الله ﷺ من الصبيان، ولزمه في مراحل دعوته في مكة، وكان من المشاهد التي صحب فيها رسول الله ﷺ في المرحلة المكية؛ أن طاف معه على قبائل العرب، يبحث عمن يحمل هذه الدعوة ويحوطها؛ بعد أن كفرت بها قريش، وفي نهاية المرحلة المكية قدَّمه رسول الله ﷺ لعمل فدائي عظيم، حين أمره أن ينام في فراشه ﷺ ليلة الهجرة، ثم هاجر عليٌّ رضي الله عنه بعده إلى المدينة المنورة سيرًا على قدميه[1].

لقد كان عليٌّ رضي الله عنه واحدًا من المكيين الذين قرؤوا وكتبوا في مجتمعهم الأمي، وأكرمه الله تعالى أن تربى على يدي رسول الله ﷺ، ثم زادت عناية رسول الله ﷺ به بعد إسلامه، فكان ﷺ الرافد القوي الذي أثر في شخصيته، وصقل مواهبه، وفجر طاقاتِه، وهذب نفسه، فرباه ﷺ على منهج القرآن وهديه، فكان هذا هو الينبوع الذي استمد منه عليٌّ رضي الله عنه ثقافته، وعلمه وشجاعته؛ حتى صار من رجالات الإسلام وقادته، وأحد الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم.

شهد عليٌّ رضي الله عنه مع رسول الله المشاهد كلها إلا تبوك، وفي معركة بدر نزل فيه وفي صحبه قول الله جل وعلا: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيم ﴾ (الحج: **19 - 23**)[2]، وقَتل رضي الله عنه يوم الأحزاب عمرو بن ود، وحمل الراية يوم بني قريظة، وكتب بيده وثيقة الصلح يوم الحديبية، وامتنع عن محو كلمة (رسول الله) من الوثيقة؛ محبةً وتعظيمًا منه لرسول الله ﷺ[3].

1- ينظر: ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، 3/13، 2/6، وينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 2/374، وينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، 3/142، وينظر: ابن حجر، الإصابة، مصدر سابق، 4/464،

2- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 5/75.

3- ينظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، 3/232، والبخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 4/47، 3/184.

زوجه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة، ورزق منها الحسن والحسين، الذيَن قال فيهما النبي ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[1]، وأدخله ﷺ وفاطمةَ والحسن والحسين معه في الكساء، ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: **33**)[2]، ولـمَّا تلكم المنافقون في عليّ رضي الله عنه بعد أن استعمله النبي ﷺ على المدينة يوم تبوك، وقالوا: ما خلفه إلا لثقله عليه؛ واشتكى علي لرسول الله ﷺ من ذلك؛ قال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه ليس نبي بعدي»[3]، ولـمَّا توفي رسول الله ﷺ كان عليٌّ رضي الله عنه ممن باشر غسله ﷺ[4]، وقال: غسلت رسول الله ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت؛ فلم أرَ شيئًا، وكان طيِّبًا حيًّا وميتًا، وقال: بأبي الطيِّب، طبت حيًّا، وطبت ميِّتًا، ثم نزل في قبره رضي الله عنه، وباشر دفنه بنفسه، ومعه الفضل بن العباس، وقُثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ[5].

وبعد وفاة رسول الله ﷺ لم يتخلف عليٌّ رضي الله عنه أبدًا عن مبايعة الصديق رضي الله عنه[6]، ولم يفارقه في خلافته أبدًا، بل كان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين، ولما عزم أبو بكر رضي الله عنه في حروب الردة على الذهاب بنفسه إلى ذي القصَّة، واستوى على راحلته؛ أخذ علي رضي الله عنه بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «لُمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك»، وارجع إلى المدينة، والله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا؛ فرجع الصديق رضي الله عنه، وقد تواترت الأخبار عنه رضي الله عنه في تقديمه الصديق رضي الله عنه على نفسه، وثنائه عليه؛ خلافا لما يذكره البعض عنه رضي الله عنه[7].

كان علي رضي الله عنه من ضمن الذين استشارهم الصديق رضي الله عنه فيمن يتولى الخلافة بعده، وأشار عليه علي رضي الله عنه أن يوليها الفاروق عمر رضي الله

1- الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، 5/565.
2- مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، 4/1883.
3- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 6/3.
4- أحمد، أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله عبد المحسن التركي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421/2001) 4/187.
5- البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 3، 1424/2003) 4/87.
6- المصدر السابق، 8/246.
7- الصوفي، أحمد بن محمد، معجم ابن الأعرابي، تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم (الرياض: دار ابن الجوزي، ط 1، 1418/1997) 2/791، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 6/315.

عنه، ولما تولى الخلافة عمر رضي الله عنه كان عليٌّ رضي الله عنه مستشاره الأول، فقد كان عمر يعرف لعلي فضله، وفقهه وحكمته، بل ذكر أنه قال رضي الله عنه: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن، يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، وكان علي رضي الله عنه من الستة الذين أوصى لهم عمر بالخلافة بعده.

ولـمَّا قتل عمر رضي الله عنه لم يكد الناس يفرغون من دفنه؛ حتى اجتمع أهل الشورى والرأي؛ ليختاروا واحدًا من الستة الذين أوصى لهم عمر رضي الله عنه بالخلافة، ثم وقع الاختيار على عثمان رضي الله عنه، فبايعه المسلمون، وكان عليٌّ رضي الله عنه أولَ من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان قريبًا من عثمان، يستشيره ويأخذ برأيه؛ ولـمَّا وقعت الفتنة على عثمان رضي الله عنه جلس عليٌّ رضي الله عنه مع الموتورين وناقشهم، وبين لهم ما التبس عليهم في أمر عثمان رضي الله عنه؛ فاستجابوا له، ورجعوا على ديارهم؛ ولما عادت الفتنة قوية، وحاصر المفتونون بيت عثمان رضي الله عنه؛ عرض عليه عليٌّ رضي الله عنه النصرة وقتال المحاصرين؛ لكن عثمان رضي الله عنه أبى ذلك[2].

بيعة علي رضي الله عنه وخلافه مع معاوية ومحاولات الصلح

بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بايعت الأمة عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه خليفةً للمسلمين، إلا معاوية بن أبي سفيان، ومن معه من أهل الشام، فلم يبايعوه، وكانوا يطلبون منه رضي الله عنه أن يقتصَّ من قتلة عثمان أولًا، وبعدها يبايعونه[3]، ثم إن أولياء دم عثمان رضي الله عنه من أهل المدينة –وعلى رأسهم طلحة والزبير– طالبوا عليًا رضي الله عنه بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، فلم يفعل؛ لأنه كان يرى أن الغوغاء المتمردين، الذين قتلوا عثمان، لهم شوكة وقوة تمنع من ذلك، وهذا يعني أن الخلاف الذي نشأ بينهم وبين علي رضي الله عنه لم يكن منشؤه أنهم يقدحون في خلافته رضي الله عنه، وإنما كان منشؤه اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، ثم إنهم لم يكونوا مختلفين في أصل هذه المسألة، فقد كان علي رضي الله عنه يرى وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، لكنه كان يرى تأخيره؛

1- البيهقي، أحمد بن الحسين، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي (الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، د. ط، د. ت) 1/130.

2- سبق ذكر ذلك عند الحديث عن فتنة عثمان رضي الله عنه.

3- ينظر: ابن حزم، محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، د. ت) 4/124.

حتى تهدأ أوضاع المدينة، ويستقر حالها، وتجتمع كلمتها.

ثم إن طلحة والزبير رضي الله عنهما تقدما إلى علي رضي الله عنه باقتراح لمواجهة هؤلاء، فقال طلحةُ لعلي: دعني فلآت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل، وقال الزبير: دعني آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل، لكن عليًّا رضي الله عنه كان يرى التريث أفضل[1]، وبعد أن مضت أربعة أشهر على مقتل عثمان رضي الله عنه، لم يستطع خلالها عليٌّ أن يأخذ بثأره؛ استأذن طلحةُ والزبيرُ عليًّا أن يخرجا من المدينة، فذهبا إلى مكة، والتقوا بكمٍّ كبيرٍ من المسلمين المطالبين بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، وعلى رأسهم عائشة رضي الله عنها.

أخذ أهل مكة يتفاوضون مع عائشة بشأن دم عثمان رضي الله عنه، بعد أن شعروا أنهم قد خذلوه، وأنه لا تكفير لذنبهم إلا الخروج للمطالبة بدمه، فاجتمعت كلمتهم على الخروج إلى البصرة، وقد توافرت عدة عوامل شجعتهم على ذلك، منها: أن بني أمية كانوا قد خرجوا من المدينة إلى مكة، ومنها: أن عبد الله بن عامر، عاملَ عثمان على البصرة كان في مكة، يحث الناس على الخروج، ويعدهم بتقديم الدعم والمعونة لهم، ومنها: أن يعلى بن أمية الذي خرج من اليمن لإعانة عثمان كان قد وصل إلى مكة بعد مقتل عثمان، وكان معه من المال والسلاح شيء كثير؛ كل هذه العوامل وغيرها شجعت الناس للخروج إلى البصرة، للمطالبة بدم عثمان، وإعلام الناس بما فعل الغوغاء الذين قتلوه، وأنه إن لم يؤخذ على أيديهم، فسيكون كل إمام معرضًا للقتل من أمثالهم[2].

كانت عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم، ومن معهم، يسعون من وراء خروجهم لإيجاد رأي إسلامي عام؛ لمواجهة الطغمة السبئية، التي قتلت عثمان رضي الله عنه، فخطبت عائشة الناس بذلك، ثم أخذوا يرسلون إلى أشراف القبائل وأعيانهم، يستعينون بهم على قتلة عثمان رضي الله عنه، حتى اجتمع حولهم الكثير من المسلمين، وهنا أقدم حكيم بن جبلة ومن معه من الغوغاء؛ فأنشب القتال معهم، فاتَّقاه طلحة والزبير ما استطاعا، وأمسك الناسُ رماحهم، وكانت عائشة رضي الله عنها حريصةً على عدم إنشاب القتل، وكانت تقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، لكن حكيمًا ظلَّ يقاتلهم، حتى إن

1- الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/438.
2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/452.

هؤلاء الغوغاء قصدوا بيت عائشة ليقتلوها؛ فدفع الله عنها بنفر من المسلمين، وكانوا قد أحاطوا بها، عند ذلك تبين لطلحة والزبير أن هؤلاء الغوغاء لا يتورعون، فنادوا في الناس: من لم يكن من قتلة عثمان رضي الله عنه فليكفف عنا، ثم اقتتلوا مع الغوغاء قتالًا شديدًا، لم يفلت فيه من قتلة عثمان رضي الله عنه من أهل البصرة إلا واحدٌ[1].

1- ينظر: المصدر السابق، 4/472، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ٢/ ٥٨٠، وينظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مصدر سابق، 6/150.

المبحث الخامس:
الانتقال من المدينة إلى الكوفة والفتنة

انتقال علي إلى الكوفة ووقوع الفتنة

تغيرت الظروف السياسية في المدينة؛ فأجبرت علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الخروج إلى الكوفة، وأثناء استعداده لذلك؛ بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة؛ فاستنفر الناس، ودعاهم لنصرته، فتثاقل أكثر الناس عن ذلك، بسبب وجود الغوغاء في جيشه رضي الله عنه، ووقف عدد من الصحابة أمام عليٍّ رضي الله عنه ليمنعوه من الخروج، وأن يبقى في المدينة، منهم أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن سلام، وابنه الحسن، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، لكن موقف علي كان حازمًا في هذه المسألة وواضحًا، ولم يستطع أحدٌ أن يثنيه عن عزمه، فخرج ومعه نحوٌ من سبعمئة رجل.

لـمَّا وصل علي رضي الله عنه إلى ذي قار أرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم، ويدعوهم إلى نصرته؛ فتثاقلوا، حيث كان أبو موسى الأشعري -والي الكوفة من قبل علي رضي الله عنه- قد ثبطهم، وحذرهم من القتال في الفتنة، فعزله علي رضي الله عنه عن الكوفة، ثم أرسل إلى أهلها ابنه الحسن، وابن عباس، وعمار بن ياسر، والقعقاع بن عمرو التميمي، يستنفران الناس من جديد، فخرج معهم آلاف من أهل الكوفة، وقد بيَّن عليٌّ رضي الله عنه لأهل الكوفة ولغيرهم لما اجتمعوا حوله في ذي قار؛ أن هدفه من خروجه هذا الإصلاح، والقضاء على الفتنة، ولم يكن القتال واردًا في تدابيره رضي الله عنه.

أقام علي رضي الله عنه في ذي قار أيامًا قبل أن يتحرك بجيشه إلى البصرة، وأرسل القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير، يدعوهما إلى الصلح، فأتى عمروٌ عائشةَ رضي الله عنها، فسألها عن سبب قدومها، فقالت: الإصلاح بين الناس، فطلب منها أن تبعث لطلحة والزبير ليحضرا، ويكلمهما في حضرتها، وعلى مسمع منها، ولما حضرا سألهما عن سبب قدومهما، فقالا كما قالت عائشة: من أجل الإصلاح بين الناس، وأن إصلاحهم هذا يبدأ بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، فكلمهم القعقاع عن ذلك بمنطق صحيح، وحجة مقنعة، وكان مما قال: إن دواء هذا الأمر التسكين، حتى تنتهي الخلافات، وتجتمع كلمة الأمة على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فيتفرغ بعدها لقتلة عثمان رضي الله عنه.

تأثرت عائشة رضي الله عنها بمنطق القعقاع وحجته، واقتنع طلحة والزبير رضي الله عنهما بكلامه الصادق المخلص، ووافقا على دعوة الصلح، فرجع القعقاع إلى علي رضي الله عنه فأخبره خبر القوم، فاستعد علي رضي الله عنه للرحيل إلى البصرة، ولما وصل علي أطراف البصرة، ونزل الناس منازلهم، التقى علي وطلحة والزبير، فتكلموا فيما اختلفوا فيه، ثم اجتمعت كلمتهم على الصلح، وترك الحرب، ثم رجع كلٌّ إلى معسكره، وبات الناس على نية الصلح والعافية، وبات قتلة عثمان في شر ليلة باتوها قط، وأيقنوا أن اجتماع الناس يعني القصاص منهم، فأمرهم ابن سبأ بإنشاب القتال بين الناس؛ ليشتغل علي وطلحة والزبير عن الثأر منهم، فغدوا في الغلس إلى أهل البصرة فوضعوا فيهم السيف، فثار عليهم أهل البصرة، فظن طلحة والزبير أن عليًّا طرقهم ليلًا، وظن عليٌّ أن طلحة والزبير طرقوه ليلًا، فنشب القتال بينهم، ووقعت معركة الجمل بينهما[1].

معركة الجمل

كانت معركة الجمل على جولتين، الجولة الأولى كان طلحة والزبير قائدا جيش البصرة، وكان علي قائدًا جيش الكوفة، وكان علي قد دعا الزبير، فحادثه وأجمل في الحديث، وذكره بحديث رسول الله ﷺ له: «لتقاتلنَّه وأنت له ظالم»[2]؛ فانصرف الزبير من المعركة قبل بدئها، فلقيه ابن جرموز فقتله، ولما بدأت المعركة أصيب طلحة رضي الله عنه بسهم لا يعرف من رماه، فنزف نزفًا شديدًا، ثم حمل إلى البصرة ومات فيها، وانجلت المعركة بسقوط قتلى وجرحى من الجانبين، وكانت الغلبة فيها لجيش علي رضي الله عنه، وقد تألم عليٌّ لذلك ألـمًا شديدًا رضي الله عنه.

لـمَّا وصل خبر المعركة إلى عائشة رضي الله عنها؛ خرجت على جملها تحيط بها القبائل الأزدية، وطلبت من كعب بن سور أن يرفع المصحف أمام الناس، ويدعوهم لوقف الحرب، لكن ذلك لم يلق قبولًا من أهل الفتنة، فما إن رأى السبئيون كعبًا يفعل ذلك؛ حتى رشقوه بنبالهم فقتلوه، وأصابت نبالهم جمل عائشة وهودجها، فصارت تنادي: يا بني: الله الله، اذكروا الله ويوم الحساب، وكفوا عن القتال، والسبئيون لا يستجيبون لها، وكان

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/477 وما بعدها، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/582 وما بعدها، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/233.

2- الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1411/1990) 3/413. قال الحافظ الذهبي: صحيح.

علي يأمر جيشه بالكف عن القتال أيضًا، لكن السبئيين لم يستجيبوا له، فلما رأت عائشة ذلك نادت في الناس أن يلعنوا قتلة عثمان، ففعلوا، ولما سمع علي ذلك، أمر جيشه أن يلعنوا قتلة عثمان أيضًا.

وجه السبئيون جهودهم لعقر الجمل وقتل عائشة، فسارع الجيش لحمايتها، ودارت عند الجمل معركة قاسية شرسة، وكان لا يأخذ خطام الجمل أحدٌ إلا قتل، حتى أمر عليٌّ نفرًا من جنده -لوقف هذه المعركة- بعقر الجمل، وإخراج عائشة من أرض المعركة، ففعلوا ذلك، منهم محمد بن أبي بكر أخوها، وما إن زال السبب الذي دفع البصريين للإقبال على الموت، وأُخرجت أم المؤمنين من الميدان؛ حتى ولوا الأدبار منهزمين، وانجلت المعركة عن عدد من القتلى، اختلفت الروايات في تقديره، والصحيح في ذلك أن عددهم لم يتجاوز المائتي قتيل، ولما رأى الأسرى من أهل البصرة المعاملة الكريمة لهم من أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ بايعوه والتفوا حوله، فجعل عليهم عبد الله بن عباس أميرًا[1].

معركة صفين

كانت أم حبيبة رضي الله عنها قد أرسلت النعمان بن بشير إلى معاوية رضي الله عنه في الشام، ومعه قميص عثمان الذي قتل فيه، ومعه أصابع نائلة امرأة عثمان، التي أصيبت حين دافعت عنه رضي الله عنها، فوضعها معاوية على المنبر، فجعل الناس يبكون حوله، وآلوا على أنفسهم ألا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان رضي الله عنه[2]، ولما تولى علي الخلافة عزل معاويةَ عن الشام، وأرسل سهل بن حنيف واليًا عليها، وما إن وصل سهلٌ مشارف الشام حتى تلقته خيل معاوية وردته، وامتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة؛ حتى يقتص علي رضي الله عنه من قتلة عثمان، ورأوا أن البيعة لا تجب عليهم، وأنهم إن قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، ولقد عزم علي رضي الله عنه بادي الأمر أن يسير إليهم بجيشه؛ إلا أنه غيَّر وجهته إلى البصرة، لما علم بخروج طلحة والزبير إليها.

بعد معركة الجمل دخل علي رضي الله عنه الكوفة، وأُخذت له البيعة من همذان وأذربيجان، وغيرها من المدن، ثم أرسل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه إلى

1-ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/508، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/616.
2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/562.

معاوية بن أبي سفيان في الشام، يطلب منه البيعة، فاستشار معاوية أهل الشام، فأبوا أن يبايعوا حتى يُقتل قتلة عثمان رضي الله عنه، فاستنفر علي الناس لغزو الشام، فاجتمع له جيش قدِّر بخمسين ألف مقاتل، ثم سار بهم إلى صفين، ولما علم معاوية بخروج جيش العراق لقتالهم؛ استنفر الناس لملاقاتهم؛ فاجتمع له جيش كبير، قُدِّر بستين ألف مقاتل، سار بهم إلى صفين، وهناك دارت المعركة بين الجيشين، بعد أن فشلت محاولات الصلح، استمرت المعركة ثلاثة أيام وثلاث ليال، سقط فيها عدد من القتلى، وكان أشدها آخر ليلة، وهي التي سميت بليلة الهرير، اقتتل فيها الناس بالرماح حتى تكسرت، ثم بالسهام، ثم صاروا إلى المسايفة، حتى صارت سيوفهم كالمناجل، ثم تضاربوا بعمد الحديد، ثم تراموا بالحجارة، وتحاثوا بالتراب، وتعاضوا بالأسنان، وتكادموا بالأفواه، حتى أنهك الجيش التعب، وكلت الأيدي، وجفت الحلوق؛ فتنادى بعدها الناس للصلح.

وكان قد قتل في هذه المعركة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»[1]، وكان عمار رضي الله عنه علَمًا لأصحاب رسول الله ﷺ يتبعونه حيث سار، فلما رأى خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قتل عمار، سلَّ سيفه وقاتل أهل الشام، وكان لقتله رضي الله عنه أثر في معسكر معاوية، فقد قال عمرو بن العاص رضي الله عنه لمعاوية: قد قتلنا الرجل، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، فقال له معاوية رضي الله عنه: دحضت في بولك، أو نحن قتلناه؟ إنما قتله عليٌّ وأصحابه، جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا، وانتشر تأويل معاوية هذا بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم، وقد دفع مقتله عمرو بن العاص للسعي بين الفريقين بالصلح، فكانت قضية التحكيم، وانتهت المعركة عن عدد من القتلى، اختلفت الروايات في تقديره[2].

وقد ردَّ العلماء على معاوية رضي الله عنه تأويلَه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمار «تقتلك الفئة الباغية»، ومن ذلك ما قاله الشيخ القرضاوي بأنه "تأويل مرفوض بكل وجه، وإلا كان الرسول هو قاتل من استشهد معه في غزواته، كعمه حمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهما"[3].

1-مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، ص: 4/2236.

2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 4/561 وما بعدها، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/629 وما بعدها.

3- القرضاوي، يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع السنة النبوية (القاهرة: دار الشروق، ط 2، 1423/2002) ص: 41.

قضية التحكيم

أورد المؤرخون في هذه القضية روايات كثيرة، كان في كثير منها افتراء عظيم على بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين سعوا فيها، كعمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان فيها استغفالًا كبيرًا للأمة أيضًا، إذ لم يكن الخلاف بين علي ومعاوية على الخلافة البتة حتى تأتي الرويات وتقول: إن الحكمين اتفقا على خلع علي ومعاوية، وأن أبا موسى لما خلع عليًّا استغل ذلك عمرو بن العاص بمكره ودهائه؛ فنصَّب معاويةَ خليفةً للمسلمين.

فلم يكن معاوية رضي الله عنه يرى نفسه ندًا لعلي رضي الله عنه أبدًا، ولم ينازعه الخلافة قط، بل كان يعلم فضلَه عليه، ويعرف له سابقَته في الإسلام، وأنَّه أحق بالخلافة منه، وأنَّه من العشرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأنَّه من الستة الذين جعل عمرُ رضي الله عنه الخلافةَ فيهم؛ وإنَّما كان الخلاف بينهما على تسليم قتلة عثمان رضي الله عنه، وما تبع ذلك من معركة الجمل وصفين، وخوف الطرفين أن تفنى العرب، فتغيرَ فارسُ على العراق، والرومُ على الشام؛ فتوقفوا للتحكيم، على أن يجتمعوا بعد عام في دومة الجندل، ريثما تهدأ النفوس، فرجع علي إلى الكوفة، ورجع معاوية إلى الشام.

ثم إنَّ عليًّا رضي الله عنه انشغل بعد رجوعه إلى الكوفة بحرب الخوارج، الذين رفضوا مسألة التحكيم من أساسها، واعتبروها تحاكمًا إلى البشر، توقع صاحبها في الكفر، فكفروا عليًّا رضي الله عنه وخرجوا عليه؛ لذا لم يحضر عليٌّ رضي الله عنه التحكيم في دومة الجندل، وحضره معاوية رضي الله عنه، ولكن التحكيم فشل؛ نظرًا لصعوبة حل الخلاف، وإصرار الطرفين على مواقفهما السابقة، وعدم حيازة الحكمين على قوى محايدة تنفذ القرار؛ فبقيت الأوضاع على حالها، عليًا خليفةً المسلمين، ومعاوية أميرًا على الشام.

وقد انبرى عليٌّ رضي الله عنه للخوارج يناقشهم ويجادلهم، ولـمَّا لم ينتهِ أكثرهم؛ قاتلهم رضي الله عنه، وانتهى القتال بهزيمتهم في النهروان عام: (**38** هـ)[1]، ولكنَّ

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 5/73، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 7/275، وينظر: ابن العربي، العواصم من القواصم، مصدر سابق، 1/172 وما بعدها، وينظر: العمري، عصر الخلافة الراشدة، مصدر سابق، 1/473 وما بعدها.

أتباعهم ما زالوا بعلي رضي الله عنه حتى قتلوه، قتله عبد الرحمن بن ملجم، وهو خارج لصلاة الفجر؛ وبايع أهل العراق بعده ابنه الحسن رضي الله عنه، آخر الخلفاء الراشدين.

دامت خلافة الحسن بن علي ستة أشهر وأيام، وتمت بخلافته الثلاثون سنة التي قال فيها رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»[1]، لذا قال جمع من أهل العلم: إنه آخر الخلفاء الراشدين، ثم تنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية عن الخلافة، واجتمعت الأمة على معاوية في ذلك العام، الـ (**41** هـ)، وسمي عام الجماعة، وبدأت مرحلة الدولة الأموية.

1- الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، ص: 4/503، قال الألباني: صحيح.

الفصل الثالث:
الدولة الأموية

المبحث الأول: الدولة الأموية السفيانية

المبحث الثاني: الدولة الأموية المروانية

المبحث الثالث: الفتوحات زمن عبد الملك وابنيه

المبحث الرابع: الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان

تمهيد:

تعرض تاريخ الأمويين لهجمة شرسة من قبل أعدائهم، الذين أرادوا طمس فضائلهم ومحاسنهم، وتوسعوا في ذكر مساوئهم وسلبياتهم، ونسبوا إليهم ما لم يكن منهم، وكل ذلك يعود إلى أن تاريخ الأمويين قد كتب في عهد خصومهم العباسيين، وتمت كتابة أكثره بأيدٍ شيعية حاقدة، لا تعرف الإنصاف ولا العدل، ولا تتكلم بعلم ومعرفة.

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم، وقد كانت علاقتهم ببني هاشم قبل الإسلام قوية، وكانت المصاهرات بينهم كثيرة، فالنبي ﷺ كان قد زوج ثلاثة من بناته لرجال من بني أمية، ومنذ الأيام الأولى لبعثته ﷺ دخل عدد كبير من الأمويين في الإسلام، على رأسهم: الخليفة الراشد: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المبحث الأول: الدولة الأموية السفيانية

معاوية بن أبي سفيان (41 -60 هـ)

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي رضي الله عنه، ملك الإسلام، وأول الخلفاء الأمويين، أسلم قبيل فتح مكة، في عمرة القضاة عام: (7 هـ) وعمره (18) عامًا، وأخفى إسلامه عن أبيه، ثم صار من كتبة الوحي.

بدأ نجم معاوية في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري حين ولاه عمر رضي الله عنه فتح قيسارية، عام: (15 هـ)، التي كانت آخر مدن الشام فتحًا، فأثبت بعد فتحها جدارته، وحسن قيادته؛ فأكسبه ذلك ثقة الجميع، وفي عام: (18 هـ) توفي أخوه يزيد بطاعون عمواس؛ فولاه عمر رضي الله عنه على دمشق[1]؛ فساس الناس بطريقة دلت على خبرته السياسية العالية، ومعرفته الواعية بأحوال الأمم، وما يصلحهم، وقد أرضت سياسته تلك الخليفة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فيه :من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه، وكان من أعظم إنجازاته على جبهة الشام أمران:

الأول: تطوير نظام الصوائف والشواتي[2] في جهاد الروم الذي سنه عمر رضي الله عنه، بعد أن أدرك أن خطر الروم وتهديدهم لا يزول إلا بمواصلة الغزو، وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر، في الثغور الشامية الشمالية، وشحنها بالمرابطين.

الثاني: بناء أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام، وقد كان عمر رضي الله عنه يرفض ذلك؛ إلا أن معاوية استطاع إقناع عثمان رضي الله عنه ببناء الأسطول؛ فأذن له بذلك، فبنى معاوية الأسطول، وسار به، ففتح جزيرة: قبرص، وأثبت بذلك قدرة المسلمين على خوض المعارك البحرية بجدارة، بل إن قائد الأسطول البحري الإسلامي زمن معاوية: عبد الله بن قيس، غزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيها أحد، أو ينكب.

1- ينظر: ابن الأثير، أسد الغابة، مصدر سابق، 5/201، وينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405/1985) 3/119.

2- الصوافي: الحرب صيفاً، والشواتي: الحرب في شتاءً.

لما تولى عثمان الخلافة أقر معاويةَ واليًا على الشام، ولما وقعت الفتنة على عثمان؛ أشار عليه معاوية أن يواجهها بكل حزم، لكن عثمان رضي الله عنه أبى ذلك؛ فوقع له ما وقع رضي الله عنه، وكان معاوية رضي الله عنه يرى نفسه أولى بدم عثمان من أولاده وإخوته؛ لأنه كان كبير بني أمية، وفي مركز قوة؛ فلمَّا تولى عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة؛ طالبه معاوية بتسليم قتلة عثمان له، ولـمَّا لم يفعل ذلك عليٌّ؛ رفض معاوية مبايعته، كما رفض خلع نفسه من ولاية الشام أيضًا، حتى يسلم له عليٌّ قتلة عثمان؛ بل لقد ردَّت خيلُه سهيلَ بن حنيف، الذي بعثه عليٌّ واليًا على الشام؛ وبعد ذلك وقعت الفتنة بينهما، كما ذكر سابقًا.

قتل الخوارجُ عليَّ بن أبي طالب، وبايع أهلُ العراق ابنه الحسن خليفة للمسلمين، الذي تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، ولم يشترط الحسن أن تكون الخلافة له بعد معاوية، ولم يذكر ذلك أحد من الصحابة، ولا أحد من أبنائهم عند تولي يزيد الحكم بعد أبيه، وبتنازل الحسن لمعاوية انتهى عهد الخلفاء الراشدين، الذي ذكره النبي ﷺ بقوله: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»[1] وبدأ الملك، وكان معاوية أول ملوك الإسلام، وأفضلهم.

بويع معاوية رضي الله عنه خليفةً للمسلمين عام: (**41** هـ) وهو العام الذي سمي عام الجماعة، وجعل دمشق مركز الخلافة، واستطاع توطيد ملكه بحسن سياسته، وإغداقه العطاء على خصومه، وعلى كبار الشخصيات من الصحابة، وآل بيت النبي ﷺ، كالحسن والحسين، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وغيرهم[2].

الفتوحات الإسلامية زمن معاوية رضي الله عنه

لم تكن الفتوحات زمن معاوية رضي الله عنه، والأمويين من بعده؛ تختلف في طابعها ومحركها، عن الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين قبلهم، ولم يكن محرِّكُ هذا التوسع الكبير في الأرض دوافعُ اقتصادية، كما روَّج ويروِّج لذلك البعض؛ بل كانت فتوحاتهم إسلاميةُ الطابع والمحرك، هدفها: هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى

1- سبق تخريجه.

2- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 8/138، وينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، مصدر سابق، 31/140، وينظر: الإفريقي، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس وآخرون (دمشق: دار الفكر، ط 1، 1402/1984) 25/93.

النور، وتعزيزٌ لمنجزات الموجة الأولى من حركة الفتوحات، التي بدأها الخلفاء الراشدون، وخططوا لها، وقد سطَّر المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صورًا رائعة من التضحية والبطولة، وإخلاص النية لله، القادة منهم والجنود في ذلك سواء.

وقد حاول ملك الروم استغلال الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وطمع في ضم بعض الأراضي الإسلامية إليه؛ فرد عليه معاوية قائلًا: "والله لئن لم تنته، وترجع إلى بلادك يا لعين؛ لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت"[1]، فعند ذلك خاف ملك الروم، وانكف، وبعث يطلب الهدنة.

الفتوحات في الأراضي البيزنطية

غزو القسطنطينية من دلائل نبوته ﷺ، حيث قال: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم»[2]، وقال ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[3]، ولقد أدرك معاوية رضي الله عنه بنظرته الثاقبة؛ أن الفُرس لم تقمْ لهم قائمة بعد سقوط عاصمتهم: (المدائن) بأيدي المسلمين؛ لذا عزم -لإسقاط الدولة البيزنطية- على الاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية؛ للتخلص من خطرها، الذي ظلَّ قويًا، في كلٍّ من آسيا الصغرى، وشمال إفريقيا وأروبا، رغم سقوط أهم أقليمين منها بأيدي المسلمين: الشام ومصر، وسار رضي الله عنه لتحقيق هذا الهدف في عدِّة اتجاهات، من أهمها: الاهتمامُ بدُور صناعة السفن، في مصر والشام، وقد اختار لذلك أمهر الصناع وأحذقهم، وأغدق عليهم الأجور والهبات الكثيرة، وتقويةُ الثغور البحرية، في مصر والشام، وشحنها بالمرابطين، والاستيلاءُ على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط، كقبرص وردوس، وغيرهما.

ثم أخذ رضي الله عنه يرسل قواتِه إلى الأراضي البيزنطية، صيفًا وشتاءً؛ لتمهيد الطريق للوصول إلى القسطنطينية، وكان من أبرز قادة تلك الحملات: مالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن كرز البجلي، وفضالة بن عبيد الليثي، وسفيان بن عوف العامري، وغيرهم، وقد استطاع المسلمون عام: (**49** هـ) بقيادة: فضالة بن عبيد الليثي، أن

1- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 8/127.
2- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 2924.
3- أحمد، المسند، مصدر سابق، 18957.

يفرضوا حصارًا على القسطنطينية؛ لكن انتشار مرض الجدري بين المسلمين، والشتاء القارص؛ جعل ظروف الجيش صعبة؛ فاستنجد فضالة بمعاوية طالبًا المدد؛ فأمده معاوية بقوات تضم عددًا من الصحابة، منهم: ابن عمر، وابن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب الأنصاري، إضافة للقائد العام لهذه القوات: يزيد بن معاوية.

ولم تستطع هذه الحملة أن تغير من الواقع شيئًا، ورجع الجيش، ولم يستطع دخول القسطنطينية، وقد مات في هذه الحملة: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ودفن على أبواب القسطنطينية، وبعد ذلك أعدَّ معاوية رضي الله عنه أسطولًا قويًا، وأرسله إلى القسطنطينية، وظل الأسطول محاصرًا لها منذ عام: (**54** هـ) وحتى عام: (**60** هـ)، ومع ذلك لم يستطع دخولها، لعدة أسباب، بل لقد تكبد الجيش المسلم خسائر كبيرة، وانتهى الحصار بعقد صلح بين معاوية رضي الله عنه والإمبراطور البيزنطي، رفع بموجبه الجيشُ المسلم الحصار عن القسطنطينية، وعاد إلى بلاد الشام[1].

الشمال الإفريقي زمن معاوية رضي الله عنه

كانت جبهة شمال إفريقيا من أولى الجبهات التي أولاها معاوية اهتمامه، ففيها عدوه اللدود: الدولة البيزنطية، التي صمم على تضييق الخناق عليها؛ فوجه في أول سنة من حكمه عام: (**41** هـ) معاويةَ بن حديج على رأس حملة إلى إفريقيا، ثم أرسله ثانية عام: (**45** هـ) على رأس عشرة آلاف مقاتل، فيهم: ابن عمر، وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان، وغيرهم من أشراف قريش، واستطاعوا تحقيق انتصارات كبيرة فيها، إلى أن أسند معاوية قيادة حركة الفتح الإسلامي في إفريقيا للقائد الكبير، الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات: عقبة بن نافع.

عقبة بن نافع (ت: **63** هـ): كان عقبة قد شارك عمرو بن العاص رضي الله عنه في غزو إفريقيا؛ فأكسبه ذلك خبرات واسعة، وظَّفها كلها في فتوحاته في إفريقيا، ثم أقدم عام: (**50** هـ) على بناء مدينة القيروان؛ لتكون محط رحال المسلمين، وما إن تم بناؤها؛ حتى أصبحت مركز الحياة العلمية، والحضارة الإسلامية في المغرب الإسلامي، وبعد

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 11/515، 5/232، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 3/56، وينظر: خياط، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1397، 1/211، وينظر: أبو عُبيَّة، طه عبد المقصود، موجز عن الفتوحات الإسلامية (القاهرة: دار النشر للجامعات، د. ط، د. ت) 1/34.

عزل عقبة؛ تولى أبو المهاجر حركة الفتوحات الإسلامية في إفريقيا، فقام بدور عظيم في فتح المغرب، ومهَّد الطريق لنشر الإسلام في المغرب، وجعله نظام حياة.

وفي عام: (62 هـ) أعيد عقبة إلى ولاية إفريقيا، فقاد حركة الجهاد فيها من جديد، وقطع فيها ما يزيد على ألف ميل، من القيروان في تونس، إلى المحيط الأطلسي في المغرب، وبوصوله إلى المحيط يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، ولما وصل المحيط الأطلسي قال: "يا رب: لولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بالله، حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة، ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطرًا، ولا أشرًا، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك: ذو القرنين، وهو أن تعبد، ولا يشرك بك شيء"[1]، ولما قفل عائدًا من هذه الرحلة الطويلة؛ أرسل الجيش أمامه إلى القيروان أفواجًا، وبقي في الطريق مع عدد من أصحابه؛ فوقع في كمين يقوده: كسيلة البربري[2]، ومعه خمسون ألفًا من أصحابه، ودارت بينهم معركة، عرفت باسم: (تهوذة)، استشهد فيها عقبة وأصحابه، وذلك عام: (63 هـ)، واستولى بعدها كسيلة على القيروان، وبقيت معه خمس سنوات، إلى أن قتله وخلصها من يده القائد الكبير: زهير بن قيس البلوي، وذلك في معركة (ممس) عام: (69 هـ).

الفتوحات في بلاد المشرق

بعد مقتل عثمان رضي الله عنه توقفت حركة الفتوحات الإسلامية في بلاد المشرق، وما إن استقرت الأمور لمعاوية رضي الله عنه؛ حتى بدأ العمل الجهادي على هذه الجبهة من جديد، فعين عليها القادة، وأمدها بالرجال والعتاد؛ حتى وصلت الفتوحات إلى ما وراء نهر السند شرقًا، وكان من أشهر قادة الفتوحات في الشرق: عبيد الله بن زياد، وسعيد بن عثمان بن عفان، والمهلب بن أبي صفرة، وغيرهم.

الخوارج زمن معاوية: قام الخوارج في عهد معاوية بعدة حركات تمرد، في كلٍّ من

1- السلاوي، أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، د. ط، د. ت) 1/183.

2- كسيلة ملك من ملوك البربر، أسلم زمن ولاية أبي المهاجر على إفريقية، وكان أبو المهاجر يتوده، ويتألفه، فلما عاد عقبة إلى ولاية إفريقية أهان كسيلة، ومن ذلك: أن طلب منه أن يسلخ له شاة بيده، ولم يرضَ عقبة بغير كسيلة لسلخها، فنصحه أبو المهاجر أن يكرم كسيلة، ويتوده، كما كان رسول الله ﷺ يتألف أشراف العرب، ويكرمهم؛ فأبى عقبة ذلك؛ فأضمر كسيلة هذا الموقف في نفسه، ولما وجد الفرصة سانحة للانتقام من عقبة؛ اغتنمها، وأقدم على قتله وأصحابه، وذلك عام: (63 هـ) ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 3/ 205-207.

الكوفة والبصرة، تهدف إلى إزعاجه وإضعافه، دون الأمل في القضاء عليه؛ لعلمهم بقوته وسطوته، واتسمت حركاتهم بالفوضى والعشوائية، والارتجالية وقلة التنظيم، مع أنهم كانوا مقاتلين أشداء، تهزم القلة منهم جيشًا جرارًا.

كان من أشهر حركات الخوارج في الكوفة: حركة فروة بن نوفل الأشجعي، عام: (**41** هـ)؛ وذلك قبل أن يغادر معاوية الكوفة قافلًا إلى دمشق، وحركة المستورد بن علَّفة التيمي، وغيرهما، كما قامت في البصرة عدة حركات للخوارج، أشهرها: حركة يزيد الباهلي، وسهم الهجيمي عام: (**41** هـ) وحركة قريب الأزدي، وزحاف الطائي، عام: (**50** هـ).

ولاية العهد

عهد معاوية رضي الله عنه إلى ابنه يزيد بالخلافة من بعده، وكان هذا الفعل في تغيير نظام الحكم اجتهادًا منه رضي الله عنه، ولم يكن بإشارة المغيرة بن شعبة، كما ذكرت بعض الروايات، فذهب معاوية يأخذ البيعة لابنه من الصحابة وغيرهم؛ فامتنع عن مبايعته: ابن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، وأخوه محمد بن الحنفية، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي قال: "إنما أردتم أن تجعلوها قيصرية، كلما مات قيصر، خلفه قيصر"[1]، ومن هنا أخذت الفتنة تطل برأسها من جديد، ولقد ندم معاوية رضي الله عنه عند موته على ما فعل، وما أقدم على ما أقدم؛ إلا وهو يظن أن في ذلك حفاظًا على وحدة الأمة وقوتها، ومات رضي الله عنه عام: (**60** هـ).

يزيد بن معاوية (**60 – 64** هـ): تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه، وبايعته الأمة كلها؛ إلا الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، وهنا كان خطأ يزيد الأول؛ فإصراره على أخذ البيعة منهما؛ أشعرهما بأنهما مهددان؛ فجيَّشا لذلك الجيوش، أو لجآ للعمل العسكري ضده، وكانا يريان عدم صلاحية يزيد للخلافة؛ لانعدام شروط العدالة فيه، ومخالفته مبدأ الشورى، وكان لكل واحد منهما معه شأن، فأما الحسين فذهب إلى مكة، ثم لبى دعوة أهل الكوفة له فذهب إليهم، وأما ابن الزبير فاعتصم بمكة.

1- الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 2، 1413/1993) 4/148، وينظر: ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، مصدر سابق، 1/213.

راسل أهل الكوفة الحسين ليقدم إليهم، على أن يبايعوه خليفةً للمسلمين، وكتبوا له في ذلك الكتب، فأرسل إليهم الحسينُ رضي الله عنه مسلمَ بن عقيل إلى الكوفة، يستوثق القوم فيها؛ ولما وصل مسلم الكوفة بايعه اثنا عشر ألف رجل؛ فراسل مسلمٌ الحسين أن اقدُم إليهم، وبين مراسلة مسلم للحسين، ومقدم الحسين إلى الكوفة؛ تغيرت أحوال أهل الكوفة، وتمكن عامل الأمويين عليها: عبيد الله بن زياد، من كشف مخطط أهل الكوفة مع مسلم بين عقيل، وتخذيل الناس عنه، ثم قتل مسلم بن عقيل.

بعد أن عزم الحسين على الخروج للكوفة؛ عارضه أهل المدينة، وكبار الصحابة، لكنه رضي الله عنه أبى إلا الخروج، وكان ممن عارضه في خروجه: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومحمد بن الحنفية، وغيرهم، ولما وصل كربلاء عام: (**61** هـ) لقيته خيل عبيد الله بن زياد، بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، ومنعته من دخول الكوفة، ورأى الحسين غدر أهل الكوفة، ونقضهم العهود والوعود التي بعثوا بها إليه؛ فطلب من جيش عبيد الله إحدى ثلاث: إما أن يذهب إلى يزيد، أو أن يرجع إلى المدينة، أو أن يلحق بثغر من ثغور الإسلام؛ فراسل عمر بن سعد عبيدَ الله بن زياد؛ فوافق عبيد الله على ذهاب الحسين إلى يزيد؛ إلا أن تدخُّل شمر بن ذي الجوشن في ذلك أفسد عليه رأيه هذا، وأشار عليه بلزوم نزول الحسين على حكمه؛ فرفض الحسين النزول على حكم عبيد الله؛ فاقتتل الطرفان؛ فقُتل الحسين ومن معه، إلا النساء، والصبية الصغار، ودفن جسده في كربلاء، ورأسه في البقيع، بجوار قبر أمه فاطمة رضي الله عنها[1]، وقد رجَّح ذلك ابن تيمية؛ خلافًا للذهبي وابن كثير، اللذين يريان أن رأسه دفن في دمشق[2].

إن المسؤول عن قتل الحسين رضي الله عنه؛ عموم أهل الكوفة الذين خذلوه، وعمر بن سعد بن أبي وقاص وجنده، وعبيد الله بن زياد، عامل الأمويين على الكوفة، ويزيد بن معاوية، الذي لم يعاقب عامله: عبيد الله بن زياد على ذلك، فقد قتل الحسين على أرض تحت سلطانه، وهو المسؤول عما يجري عليها، وإن يزيد بن معاوية لا نحبه ولا نلعنه، هو مسلم من المسلمين، ليس بصحابي، ولا بولي، ودم الحسين في عنقه، وقد يجتمع على المرء في آن واحد: الثواب والعقاب، واللعنة والرحمة، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافًا للمعتزلة والخوارج، ولم يرضَ أهل الشام بقتل الحسين، ولم يكونوا

1- اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1417/1997) 1/109.

2- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د. ط، 1416/1995) 27/480.

نواصب، ينتقصون علي بن أبي طالب وأولاده رضي الله عنهم، وقد قال ذلك ابن تيمية لمقدم المغول: بولاي.

وقعة الحرَّة سنة: (63 هـ).

بعد قتل الحسين بن علي رضي الله عنه خلع أهل المدينة بيعة يزيد من رقابهم، أمرًا منهم بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، واعتراضًا منهم على مخالفة يزيد مبدأ الشورى، وكان ابن عمر رضي الله عنه قد أنكر على أهل المدينة خلعهم بيعة يزيد؛ بعد أن كانوا قد بايعوه عن رضىً واختيار، وبيَّن لهم أنه لا يجوز خلعه بعد ذلك، وكأنه يقول لهم: إذا كنتم تعلمون من يزيد الفسق والظلم؛ فلمَ بايعتموه أول الأمر؟ كما ذكَّر ابن عمر أهل بيته بذلك، مسجلًا بذلك موقفًا عظيمًا من مواقفه العظيمة رضي الله عنه، وكذا كان سادة أهل البيت، لم يؤيدوا الخارجين على يزيد، الذين أخطؤوا في قياس خروجهم على خروج الحسين على يزيد، فالحسين لم يبايع يزيد أصلاً.

أما أهل المدينة فقد بايعوا، ثم خلعوا البيعة، وأخطؤوا في قياسهم ذلك؛ فأرسل يزيد جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة لأخذ البيعة منهم، ولما رفضوا ذلك، كانت وقعة الحرة، التي هُزم فيها أهل المدينة هزيمة كبيرة، بعد أن قتل منهم الكثير، فيهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم عبد الله بن زيد رضي الله عنه، حاكي أذان رسول الله ﷺ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل، وغيرهما، وكان هذا خطأ يزيد الثاني، فقد استباح جيشه المدينة ثلاثة أيام، نهبًا وسلبًا، وإن كان لم يتعرض للنساء والذراري، كما ذكرت الروايات التاريخية.

بعد انتهاء موقعة الحرَّة؛ سار جيش يزيد إلى مكة، حيث عبد الله بن الزبير الذي قام لله تعالى، يريد تغيير الواقع بالسيف، لا سيما بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فبايعه أهل مكة وغيرهم خليفةً للمسلمين، وكان ابن الزبير قد استطاع هزيمة الحملات التي أرسلها يزيد من قبلُ لقتاله؛ بعد أن رفض مبايعته، ولما وصل جيش يزيد إلى مكة بقيادة الحصين بن نمير؛ نصبوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، وقاتلوا ابن الزبير قتالًا عنيفًا؛ حتى فقد ابن الزبير مستشاريه ومناصريه، وحوصر حصارًا شديدًا، حتى لم يعد يملك إلا المسجد الحرام؛ وأثناء احتدام المعارك بينهما؛ احترقت الكعبة الشريفة من جرَّاء ذلك، وخاف الناس في كلا الجيشين من نزول عذاب الله عليهما؛ وفي

هذه الأثناء وصل خبر موت يزيد بن معاوية؛ فتوقف القتال بينهما، وقال الحصين لابن الزبير: نبايعك خليفة للمسلمين على أن تخرج معنا إلى الشام، لكن ابن الزبير رفض ذلك، لعدة أسباب.

بايع الناس في الشام بعد موت يزيد ابنَه معاوية، الذي تنازل عن الخلافة بعد نحو الشهرين، وجعل الخلافة شورى بين المسلمين، وبذلك تكون الدولة السفيانية قد انتهت، وبدأت الدولة المروانية، وبدأت معها الدولة الزبيرية، نسبة إلى عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه، أول مولود في الإسلام في المدينة المنورة.

المبحث الثاني: الدولة الأموية المروانية

مروان بن الحكم

بعد موت يزيد بن معاوية بايعت الأمة كلُّها عبدَ الله بن الزبير خليفةً للمسلمين، إلا ابن عباس، وابن عمر، ومحمد بن الحنفية، وقسمًا من أهل الشام، ممن كان يرى أن الأمويين أحق بالخلافة، لذا عقد أهل الشام أولئك مؤتمر الجابية، وذكروا من يشير إليهم الناس بالخلافة، وهم: ابن عمر، وابن الزبير، ومروان بن الحكم؛ ثم أجمعوا على مبايعة مروان بن الحكم خليفةً للمسلمين، وكان أهل الشام يرون أنفسهم أهل الحل والعقد، الذين يختارون الخليفة شورى بينهم؛ لأنهم في دمشق مركزِ دار الخلافة، كما كان أهل المدينة المنورة، يختارون الخليفة شورى بينهم؛ لما كانت المدينة دارَ الخلافة.

قلب مؤتمر الجابية الأمرَ على ابن الزبير، وجعل الخلافة في مروان بن الحكم، الذي استطاع توطيد ملكه في الشام، بعد هزيمة أتباع ابن الزبير فيه، في معركة مرج راهط عام: (**64** هـ)، المعركة التي حسمت الأمر لصالح الأمويين في الشام، وبعدها أخذ مروان البيعة من أهل مصر، وضمها لدولته، ثم ختم حياته بنقض مقررات مؤتمر الجابية المتعلقة بولاية العهد[1]؛ فعقد البيعة من بعده لولديه: عبد الملك، وعبد العزيز، وتوفي عام: (**65** هـ).

عبد الملك بن مروان

هو أول خليفة متغلب في تاريخ المسلمين، انتزع الخلافة من عبد الله بن الزبير، الذي بايعته أكثر الأمصار الإسلامية، بعد وفاة يزيد بن معاوية، ثم استطاع عبد الملك التغلب على كل الحركات المناوأة لحكم الأمويين في العراق، كحركة التوابين الشيعية، وحركتي الخوارج: الأزارقة، والصفرية، وثورة ابن الأشعث، التي كانت من أكثر ما أتعب عامل الأمويين على العراق: الحجاج بن مسلم الثقفي، والتي قامت ردًا على ظلم الحجاج، وتجاوزاته في العراق، وانضم إليها عدد كبير من العلماء والفقهاء، على رأسهم: الصحابي الجليل: أنس بن مالك رضي الله عنه، واستطاع ابن الأشعث هزيمة جيش الحجاج مرارًا، ولكن الحجاج استطاع في النهاية التغلب عليه، وذلك عام: (**83** هـ)، كما استطاع عبد الملك بن مروان هزيمة جيش مصعب بن الزبير في العراق وقتله؛ بعد أن

1- وقد اجتمع رأي الناس في مؤتمر الجابية على البيعة لمروان بن الحكم، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد، ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 2/240.

كان مصعب قد قضى على حركة المختار الثقفي الكذاب في العراق، وكذا قتل عبد الملك ابنَ عمه: عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) لما انقلب عليه في دمشق.

وجَّه عبد الملك بعد ذلك عدة حملات إلى الحجاز؛ لأخذ البيعة من ابن الزبير، إلا أنها باءت كلها بالفشل؛ فأرسل حملة بقيادة الحجاج بن مسلم الثقفي؛ فضرب مكة بالمنجنيق، وهزم ابن الزبير، وقتله ثم صلبه، وأخذ البيعة من أهل مكة لعبد الملك بن مروان، وبايعه ابن عمر أيضًا.

كان من أعظم أسباب فشل عبد الله بن الزبير وهزيمته؛ إبقاؤه مركز الخلافة في مكة، وهي مدينة تعتمد على تجارة الأمصار: العراق ومصر والشام؛ لذا استطاع الأمويون محاصرتها اقتصاديًا، ومن ثمَّ إخضاعها لهم، وكذا ضعْفُ إعلام ابن الزبير رضي الله عنه، واستهانتُه بأعدائه الأمويين، وغير ذلك من الأسباب.

بلغت الدولة الأموية زمن عبد الملك بن مروان الذروة قوةً واتساعًا، واستطاع عبد الملك إدارتها بكفاءة عالية، أعاد لها وحدتها، بقضائه على خصومها؛ فازدهرت فيها الزراعة والتجارة، والصناعة والعمارة، وتطورت فيها النظم الإدارية والعسكرية، والعلوم بشتى أقسامها، وكان من أعظم أعماله الإدارية الباهرة: تعريب دواوين الدولة، خاصة ديوان الخراج، أهم دواوين الدولة، الذي كان حكرًا على غير العرب، القبط والروم والعجم، وكان ذلك وضعًا شاذًا في الدولة؛ فجاء عمل عبد الملك هذا فصحح الوضع، وفتح المجال أمام العرب المسلمين للعمل في هذا الديوان، والتدريب على شؤون المال والاقتصاد؛ ولهذا وغيره عُدَّ عبد الملك بن مروان: المؤسس الثاني للدولة الأموية؛ بعد مؤسسها الأول: معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

المبحث الثالث:
الفتوحات زمن عبد الملك وابنيه: الوليد وسليمان

الجبهة البيزنطية

استتب الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن قضى على كل خصومه المناوئين له؛ فاتجه بعد ذلك لإكمال مسيرة الدولة في الفتوحات؛ فأوْلى الجبهة البيزنطية الملتهبة اهتمامًا كبيرًا؛ بعد أن كان الإمبراطور البيزنطي قد حاول استغلال انشغال الدولة بتصفية خصومها في الداخل، ولكن عبد الملك بن مروان استطاع أن يفوت الفرصة عليه، وأن يهزمه في معارك كثيرة، مهَّدت لحصار القسطنطينية زمن ابنه سليمان، ومحاولة فتحها، عام: (98 هـ)، بقيادة مسلمة بن عبد الملك، أعظم قادة هذه الجبهة، ولكن الحملة باءت بالفشل لأسباب كثيرة، ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة؛ أمر بانسحاب المسلمين من أسوار القسطنطينية، والعودة إلى دمشق.

الشمال الإفريقي والأندلس

أولى عبد الملك بن مروان اهتمامًا خاصًّا للتوسع في الشمال الإفريقي؛ فعهد بولايته إلى الشيخ الأمين: حسان بن النعمان الغساني، الذي استطاع تحقيق انتصارات كبيرة على البيزنطيين فيه، كما استطاع نهاية المطاف هزيمة الكاهنة وقتلها[1]، وذلك عام (82 هـ) ، وبعدها عمل على تنظيم أمور المغرب الإدارية والعسكرية وغيرها، وفي عام (85 هـ) عزله والي مصر: عبد العزيز بن مروان، وولى مكانه: موسى بن نصير، عام: (85 هـ) الذي عمل على نشر الإسلام بين البربر، وتمكينه في نفوسهم، وتأليف قلوبهم، واستخدم لذلك كل الوسائل الممكنة؛ حتى انتشر الإسلام في المغرب الأقصى كله، وصار البربر من أخلص أهل الإسلام ودعاته.

استطاع موسى بن نصير بعد حملات عسكرية منظمة السيطرة على جميع الشمال الإفريقي، من برقة إلى المحيط الأطلسي، وأصبح سيد إفريقية بلا منازع، كما كان يقوم بحملات بحرية على جزر البحر المتوسط، كجزيرة صقلية وغيرها، وبعد أن أرسى

1- الكاهنة: امرأة من البربر، سميت الكاهنة لأنها كانت تدَّعي علم الغيب، اجتمع البربر حولها بعد قتل كسيلة، وكانت من أعظم ملوك إفريقيا، استطاعت هزيمة حسان بن النعمان في معركة (وادي مسكيانة)، وقتل عدد كبير من المسلمين، استولت على المغرب بعد هزيمة حسان لمدة خمس سنوات، إلى أن استطاع حسان بعد ذلك هزيمتها وقتلها، ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 3/416-415.

قواعد الإسلام في المغرب الكبير؛ توجت حملاته لفتح بلاد الأندلس، ونشر الإسلام فيها، فبدأه بإرسال حملة استطلاعية، عام: (**91** هـ)، مؤلفة من خمسمئة جندي، جعل على قيادتها: طريف بن مالك، فاجتاز طريف المضيق، ونزل في جزيرة: (بالوما) الإسبانية، التي عرفت فيما بعد باسمه (جزيرة طريف)، وبعدها أرسل موسى بن نصير جيشًا، قوامه سبعة آلاف رجل، جعل على قيادته: طارق بن زياد، فتمت عملية إبحاره بسرية تامة، لم يشعر بها الإسبان، وذلك عام: (**92** هـ).

استولى طارق على ولاية: (الجزيرة الخضراء)، وبدأ فتح الأندلس الحقيقي بمعركة: (وادي لكة) التي انتصر فيها على لذريق القوطي وجيشه، وذلك لليلتين بقيتا من رمضان، عام: (**92** هـ) واستغل طارق هزيمة أعدائه، فلم يترك لهم مجالًا للتجمع وإعادة تنظيم قوتهم؛ بل وضع نصب عينيه الاستلاء على طليطلة عاصمة عدوه؛ ليفقده قاعدة حكمه وملكه، فتسهل بعده السيطرة عليه، وقد استطاع طارق بالفعل السيطرة عليها، وعلى غيرها من كبرى المدن الأندلسية.

منذ أن بعث موسى بن نصير طارقَ بن زياد إلى الأندلس وهو مكبٌّ على الدعاء، والتضرع إلى الله تعالى، أن ينصر المسلمين في الأندلس، ويفتح عليهم، وظل يرقب تحركات طارق، وانتصاراته في الأندلس؛ حتى فتح الله على طارق البلاد، وأخذت جيوشه تتوسع في الأندلس؛ فخاف طارق بعد هذا التوسع أن يفقد السيطرة عليه؛ فأرسل يطلب المدد من موسى بن نصير؛ فعزم موسى بن نصير على دخول الأندلس بنفسه، على رأس جيش كبير، وذلك عام: (**93** هـ)؛ فدخلها، واستولى على عدد كبير من مدنها، كانت إشبيلية أعظمها، فجعلها عاصمة الأندلس، ثم استعاض عنها بقرطبة، التي ظلت عاصمة الأندلس حتى نهاية عهد الخلافة فيها، بعد ذلك التقى موسى بن نصير بطارق بن زياد قرب طليطلة، عام: (**94** هـ)، وفيها أخذا يخططان لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيرية[1].

ومما تجدر الإشارة إليه: أن ما ذكره عدد من المؤرخين من أن موسى بن نصير حسد طارقَ بن زياد على ما أنجزه من فتوحات في الأندلس، فحمله ذلك على عزله والإساءة إليه، أو الهمّ بقتله؛ إن مثل هذا الإيراد كلامٌ لا واقع تاريخي له، ولا تسمح بقَبوله مجريات

1- ينظر: الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط الأندلس (دمشق: دار القلم، طبعة وزارة الأوقاف القطرية، 1433/2012) ص: (85-91).

الأحداث، وكلُّ ما أثير حول هذا الموضوع، وصيغ في هذا الاتجاه؛ لا يقوى على الثبات أمام النقد العلمي التاريخي الأمين، والبحث النزيه، فلم يكن موسى بن نصير مغمورًا محرومًا من شرف الفتح، وخدمة الإسلام حتى يقدم على مثل هذا الأمر، وهو الذي عرفته بقاع المغرب وصحراؤه قائدًا عظيمًا"[1].

كان موسى بن نصير يخطط لعبور جبال البرانس، واجتياح أوربا كلها، والوصول إلى القسطنطينية، وفتحها من جهة الغرب؛ لولا استدعاءَه إلى دمشق من قبل الوليد بن عبد الملك، وأمره بالتوقف عند هذا الحد من الفتوحات؛ خوفًا من توغل المسلمين في أرض لا يعرفونها، أو خوفًا على سلطانه من ازدياد قوة موسى بن نصير، واتساع نفوذه، ولو قُدِّر لهذا المشروع أن يتم؛ لتغير شكل النظام الدولي تمامًا، ولقضي على القوى غير الإسلامية، ذلك أن أوربا كانت متفرقةً فيما بينها، ولم يكن لها كيانٌ سياسيٌّ واحدٌ، يعادل قوة المسلمين آنذاك؛ مما جعل أوربا تتنبه بعد ذلك لهذا الخطر، وتغلق أبوابها بوجه المسلمين من الغرب، كما هي مغلقةٌ بوجههم من الشرق في القسطنطينية، ولم تفلح محاولات القادة فيما بعد لاستكمال مشروع موسى بن نصير، بل لقد مني القائد: عبد الرحمن الغافقي بخسارة كبيرة في موقعة بلاط الشهداء عام: (**114** هـ) لـمَّا حاول التوغل أكثر في بلاد الفرنجة، وحرمت بذلك بقية أوربا من وصول الإسلام إليها أيضًا[2].

توالى على الأندلس بعد عودة موسى بن نصير إلى دمشق، وحتى قيام الإمارة الأموية فيها عام: (**138** هـ) نحو عشرين أميرًا، كان أولهم: عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي كان بحقٍّ خير خلف لخير سلف، استطاع بحسن سياسته وإدارته أن يثبت الإسلام وأهله في الأندلس[3]، وبعد عودة موسى بن نصير إلى دمشق بسنوات؛ توفي في المدينة المنورة، وهو ذاهب إلى الحج، صحبة الخليفة: سليمان بن عبد الملك، عام: (**97** هـ)، فعليه رحمة الله[4].

1- وينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، مصدر سابق، ص: 88.

2- ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، ط 2، 1408/1988) 4/150، وينظر: المصري، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط 4، 1417/1997) 1/54، وينظر: مصطفى، نادية محمود مصطفى، الدولة الأموية دولة الفتوحات (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 1417/1996) ص: 43، وينظر: عبد اللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي، مصدر سابق، 282.

3- ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، وغيره (بيروت: دار الثقافة، ط 3، 1983) 2/23.

4- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 4/85.

فتوحات المشرق

كان للمهلب بن أبي صفرة (ت: **82** هـ) دور كبير في القضاء على حركات الخوارج في العراق؛ فكوفئ على ذلك، وعُيِّن أميرًا على خراسان؛ عملًا بوصية عبد الملك بن مروان له؛ فوطَّد فيها الأمن والنظام، واستطاع توسيع رقعة الدولة الأموية في بلاد المشرق[1]؛ إلى أن خلفه على فتوحات المشرق، ونشر الإسلام فيه: قتيبة بن مسلم الباهلي (ت: **96** هـ)، الذي فتح خوارزم وبخارى، وسمرقند وفرغانه، وبلاد الترك، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين، فدفع له الجزية[2]، ولم تتوسع فتوحات المسلمين بعد موت قتيبة أكثر من ذلك؛ نظرًا للظروف التي مرت بها الدولة الأموية بعده، وأدَّت لسقوطها.

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 6/325.

2- ينظر خبر الوفد الذي أرسله قتيبة إلى ملك الصين وحديثهم معه: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 6/501، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 4/67.

المبحث الرابع: الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان

الوليد بن عبد الملك

عهد عبد الملك بن مروان بولاية العهد من بعده لابنيه: الوليد وسليمان، وأمر ولاته على الأمصار بأخذ البيعة لهما؛ فرفض ذلك سيِّدُ التابعين: سعيد بن المسيب (ت: **94** هـ)؛ لأن فيه مخالفة لأمر النبي ﷺ، الذي نهى عن البيعة لاثنين؛ فعُذب - رحمه الله - في سبيل ذلك، ونُكِّل به، وكان لسعيد بن المسيب موقف من بني أمية؛ لسوء سيرتهم وظلمهم، وكان يرفض عطاءهم، ورفض أن يزوج ابنته من الوليد بن عبد الملك، لكن ذلك لم يحمله على أن يضع يده مع كل معارض لهم؛ فكان بذلك مثال العالم العامل، الذي لا يرضى الذل والظلم، ولا يخاف في الله لومة لائم[1].

لقب الوليد بن عبد الملك بمهندس بني أمية؛ لاهتمامه الكبير بالبناء والعمران، فقد ازدهرت في عصره حركة البناء كثيرًا؛ فبنى المسجد الأموي بدمشق، ووسَّع المسجد النبوي، وزخرف جدرانه، وأدخل فيه حجر أمهات المؤمنين، وحجرة فاطمة، كما أدخل فيه حجرة عائشة أيضًا، التي فيها قبر رسول الله ﷺ، وكان فقهاء المدينة قد أنكروا ذلك عليه، وأرادوا أن تبقى الحُجَر كما هي؛ ليرى الحُجَّاج بيوت النبي ﷺ وتواضعها؛ فيعتبرون بها ويتعظون، وأنكر سعيد بن المسيب إدخال حجرة عائشة في المسجد؛ حتى لا يتخذ قبره ﷺ مسجدًا، ولكن الوليد أبى إلا أن تدخل كل الحُجر المسجد؛ وقد بنى المسلمون بعد ذلك جدارًا يحول دون استقبال المصلين قبر النبي ﷺ في صلاتهم، كما اهتم الوليد ببناء المستشفيات وغيرها، وأكرم العلماء والفقهاء، وبذل لهم ما يكفيهم، وحرم عليهم السؤال[2].

سليمان بن عبد الملك

كان عهد سليمان بن عبد الملك يمثل المرحلة الجديدة من مراحل الخلافة الأموية، وعلى الأخص المروانية منها؛ لما امتاز به من خصائص جديدة، وتغير في أسلوب الحكم

1- ينظر: الفسوي، يعقوب بن سفيان، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1401/1981) 1/476، وينظر: الذهبي: محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٣، 1985/1405) 4/231، وينظر: قوام السنة، إسماعيل بن محمد، سير السلف الصالحين، تحقيق: كرم بن حلمي (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، د. ط، د. ت) ص: 777.

2- الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 2/73.

عن سابقيه، إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية، والنزوع إلى الموادعة، والأخذ برأي أهل العلم والفضل، من باب العمل بمفهوم الشورى، والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية، والحرص على تنفيذها، وهي الأمور التي وضحها في خطبته التي خطبها بعد استخلافه، وبين فيها سياسته التي سينتهجها في الحكم، وكان من أعظم أعماله قبل موته؛ أن عهد لعمر بن عبد العزيز بالخلافة من بعده، بعد أن أشار عليه بذلك العالم الجليل: رجاء بن حيوه (ت: **112** هـ)، رحمه الله[1].

عمر بن عبد العزيز (99 – 101 هـ).

يلقب عمر بن عبد العزيز بأشج بني أمية؛ ذلك أن جدهَّعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول بعد رؤية رآها: "إن ولدًا من ولدي، بوجهه أثر، يملأ الأرض عدلًا"[2]، وقد أصيب عمر بن عبد العزيز في وجهه لما دخل إصطبل أبيه ينظر الخيل، فضربه فرس في وجهه فشجَّه.

ولَّاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، عام: (**87** هـ)، ثم ضم إليه الطائف، فصار بذلك واليًا على الحجاز كله، بدأ عهده في المدينة بتأسيس مجلس شورى، ضم إليه كبار فقهاء المدينة، وهم: عروة بن الزبير (ت: **93** هـ)، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة (ت: **98** هـ)، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (ت: **94** هـ)، وسليمان بن يسار (ت: **107**هـ)، والقاسم بن محمد (ت: **107** هـ)، وسالم بن عبد الله بن عمر (ت: **106**هـ)، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر (ت: **106**هـ)، وخارجة بن زيد بن ثابت (ت: **99** هـ)، وقال لهم: "إني لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة؛ فأحرِّج الله على من بلغ ذلك إلا أبلغني"[3]، وكان ينصح الخليفة أن يحدَّ من صلاحيات ولاته على الأمصار، لا سيما في القتل، وقد نجح في ذلك بادي الأمر.

لـمَّا ولي الخلافة؛ بدأ عهده بخلع نفسه، ثم تولى الخلافة شورى من الناس، أعلن

1- ينظرك ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 9/166- 197.

2- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1992) 1/362، وينظر: ابن عبد الحكم، عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد (بيروت: عالم الكتب، ط 6، 1404/1984) ص: 24.

3- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 6/427، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 4/9، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 9/21.

ذلك في أول خطبة له بعد استخلافه[1]، وبخلافته عادت روح الإسلام إلى الأمة من جديد، فقد ساس عمر الناس بالعدل، فردَّ المظالم إلى أهلها، وبدأ ذلك بنفسه؛ فخرج مما في يده من أرض ومتاع، ورده لبيت مال المسلمين، ثم ثنى ببني أمية، واسترد لبيت المال ما أخذوه منه سابقًا، ووجد منهم معارضة ثبت لها عمر حتى تلاشى أمرها، ثم أعن للأمة أن كل من له حق على أمير، أو على جماعة من بني أمية، أو لحقته منهم مظلمة؛ فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه؛ فتقدم عدد من الناس ببيناتهم، وراح عمر يردها لهم واحدة بعد الأخرى[2]، ضاربًا بذلك أسمى صور العدل وأرفعها.

كتب عمر بن العزيز إلى الحسن البصري (ت: **110** هـ) يسأله عن صفات الإمام العادل، فأجابه الحسن، وكان مما أجابه به: "الإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله؛ فبدَّد، وشرَّد العيال؛ فأفقر أهله، وفرَّق ماله"[3]، وكان من سياسته أن عزل الولاة الظالمين، ونصَّب مكانهم الولاة العادلين، وتابع للناس البذل والعطاء، حتى فاض المال في عهده، ولم يعد يقبله أحدٌ، وقام بإصلاحات شاملة في مؤسسات الدولة كلها، كان من أعظمها تفعيل مبدأ الشورى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها.

كان لعمر بن عبد العزيز موقف حازم من الخوارج، فقد دعاهم، وسمع منهم، وناظر بعضهم، ثم قاتلهم، ولم يقاتلهم لمخالفتهم رأيه؛ بل قاتلهم بعد أن أخذوا المال، وأخافوا السبيل، وسفكوا الدماء، وكذا كان موقفه من الشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية، وغيرها من الفرق المنحرفة[4].

وكانت سياسته في الفتوحات؛ إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، بدأ ذلك بأمره المسلمين المحاصرين للقسطنطينية، بقيادة مسلمة بن عبد الملك بالانسحاب، والعودة إلى دمشق،

1- وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 9/221، وينظر: الآجري، محمد بن الحسين، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1400/1980) 56.

2- ينظر الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 2/127 وما بعدها.

3- ينظر إجابة الحسن البصري لكتاب عمر: الشيخ، عبد الستار الشيخ، عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين (دمشق: دار القلم، ط 2، 1417/1996) ص: 224.

4- ينظر الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 2/191 وما بعدها.

وكذا عهد إلى عامله على الأندلس: السمح بن مالك الخولاني، بأن يخلي الأندلس من الإسلام؛ إشفاقًا عليهم؛ إن خشي تغلب العدو عليهم، لكن السمحَ لم يرَ ذلك، بل كتب إليه: "إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها؛ فأضرب عن ذلك"[1]، وكذا كتب إلى عامله على خراسان، يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا ذلك؛ فكتب والي خراسان يعلمه برفضهم، فقال عمر بن عبد العزيز: "اللهم إني قضيت الذي علي، فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم"[2].

وكذا كان موقفه في كل الجبهات، وذلك لا يعني إلغاء المؤسسة العسكرية، التي تمتد جذورها إلى عهد رسول الله ﷺ، ووقف حركة الجهاد، بل كانت سياسته المرحلية تقتضي ضبط الثغور، وحدود الدولة الإسلامية، والاهتمام بفتح العقول، وإحياء نفوس الشعوب التي دخلت في الإسلام، وإرسال الدعاة إليهم، وإن حدث ما يستدعي القتال أمر به، ودعا إليه، كما فعل مع ملك الروم لما اعتدى[3].

مات عمر بن عبد العزيز في دمشق، ودفن فيها، وذلك عام: (**101** هـ)، ولم يرضَ أن يدنو من المدينة المنورة، ويدفن في حجرة عائشة، التي فيها قبر رسول الله ﷺ، وصاحبيه رضي الله عنهما، وقال في ذلك: "والله لا يعذبني الله عذابًا –إلا النار فإني لا صبر بي عليها– أحب إلي من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلاً"[4].

مات ولم يترك لأولاده من بعده إلا بضعة دراهم، فعليه رحمات الله ورضوانه، ورحم الله رجاء بن حيوة (ت: **112** هـ)، القدوة الحق للعالم المخلص لدينه وأمته، ممن يدخل على الملوك والأمراء، ويعظهم وينصحهم، فقد أحسن لأمة الإسلام؛ إذ أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز من بعده.

يزيدُ بن عبد الملك

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيدُ بن عبد الملك؛ بعهدٍ من أخيه سليمان، بأن يكون هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز، فسار يزيد بداية حكمه بالناس بسيرة

1- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 74/5. وينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، مصدر سابق، 26/2.
2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 568/6.
3- الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 300/2.
4- ابن سعد، الطبقات، مصدر سابق، 316/5.

عمر بن عبد العزيز؛ إلا أنه لم يستطع الاستمرار في ذلك، فانتهج سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية منها والمالية؛ إذ لم تكن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية تؤهله لملء مكانة الدولة، وقيادتها باقتدار، فقد كان حاكمًا عاديًا، لكنه لم يكن سياسيًا مقتدرًا كمعاوية رضي الله عنه، ولا إداريًا ناجحًا كعبد الملك، ولا مصلحًا مخلصًا كعمر بن عبد العزيز، ومع ذلك فإن حركة الفتوحات نشطت في عهده من جديد، بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام عمر بن عبد العزيز، فقام يزيد بتحقيق عدة فتوحات في بلاد أرمينية، وبلاد الروم والأندلس، وغيرها من الفتوحات على مختلف الجبهات[1].

قامت في عهد يزيد كثير من الثورات والحركات، التي أوهنت دولته؛ وإن كان في النهاية قد استطاع القضاء عليها كلها؛ إلا أن أثرها بقي حتى سقطت الدولة، كان من أعظم تلك الثورات ثورة يزيد بن المهلب، الذي من إن تولى يزيد الخلافة حتى خلع بيعته، وخرج عليه، واستولى على البصرة؛ فبعث إليه يزيد جيشًا بقيادة أخيه مسلمة، فالتقى مسلمة بالمهلب بالعقر من أرض بابل، ودارت بينهما معركة بقيت ثمانية أيام، قتل في نهايتها ابن المهلب، وخلق كثير من جيشه، ثم تبع مسلمةُ الفارين وقتلهم[2]، كما قام شريم اليهودي، فأعلن أنه المهدي المنتظر، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين، وتفاعل معه يهود بابل وإسبانيا؛ إلا أن الدولة كشفت الحركة وأخمدتها؛ بعد أسرِ القائم بالحملة وقتله[3]، ومات يزيد بن عبد الملك عام: (**105** هـ).

هشام بن عبد الملك

كان هشام توَّاقًا لنيل الخلافة؛ لا سيما بعد أخيه سليمان؛ لكن رجاء بن حيوه أقنع سليمان بن عبد الملك أن يعهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز؛ ودرءًا للفتنة ومعارضة بني أمية؛ يعهد من بعد عمر ليزيد بن عبد الملك، يُكتب ذلك في كتاب مختوم، ويفتح بعد موت سليمان، ويقرأ على الناس، وقد حاول هشام بن عبد الملك استدراج

1- يزيد بن عبد الملك من الخلفاء الأمويين الذين شوهت صورتهم في التاريخ كثيراً، وقد تتبع الروايات التي تولت ذلك وفنَّدها: عبد الله الشريف في كتابه: الدولة الأموية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك، منبهاً أن ابن سعد، صاحب أول كتاب في التراجم وصل إلينا لم يترجم له، ثم اعتمد عبد الله الشريف للترجمة ليزيد ترجمة قريبة من الحقيقة على اثنين من كبار مؤرخي الأمة، وهما الذهبي وابن كثير، وبعدها ترجم ليزيد ترجمة أقرب ما تكون لسيرته الحقيقية، ذكر فيها ما له، وما عليه، يرجع إليها في كتابه (القاهرة: دار القاهرة، ط 1، 2005) ص: (45-57-62)

2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 597/6، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 130/4.

3- ينظر: الشريف، الدولة الأموية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك، مصدر سابق، ص: 178.

رجاء بن حيوه لمعرفة من استخلف سليمان بعده؛ ولـمَّا أبى رجاءٌ غضب هشام واستنكر، ثم عهد يزيد بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك.

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة يزيد، عام: (**105** هـ) وكان سياسيًا بارعًا، يعرف كيف يسوس الناس، وينجح في مشروعاته الإصلاحية، شهد له بالجدارة وحسن السياسة خصومه، ومنهم: عبد الله بن علي بن العباس، الذي قال: "جمعت دواوين بني مروان، فلم أرَ ديوانًا أصح، ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام"[1]، وقد كان له نظامه المالي الخاص، وسياسته الفريدة في إدخال المال بيت مال المسلمين، فكان لا يدخل إليه مالًا حتى يشهد عليه أربعين رجلًا أنه أخذ بحقه، حتى قيل: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله.

كان للعلماء دور مؤثر إلى حد ما في قرارات هشام بن عبد الملك، لكنه دور لا يقارن بدورهم في عهد عمر بن عبد العزيز، ومن أبرز أولئك العلماء: الزهري (ت: **124** هـ)، وأبو الزناد (ت: **130** هـ)، والأوزاعي (ت: **157** هـ)، وقد أقنع الإمام الزهري هشامَ بن عبد الملك بخلع الوليد بن يزيد من ولاية العهد؛ لفسقه ومجونه، ولم يخفْ من عاقبة الأثر المترتب على ذلك، وكان الوليد يتوعد الزهري قائلًا له: "إن أمكن الله معك يومًا فستعلم؛ فكان الزهري يقول: إن الله أعدل من أن يسلط عليَّ سفيهًا"[2]، ومات الزهري قبل تولي الوليد الخلافة.

قامت في عهد هشام عدة ثورات، منها ثورة زيد بن علي بن الحسين في الكوفة، عام: (**121** هـ)؛ إلا أنها فشلت وقتل زيد، بعد تخاذل أهل الكوفة عن نصرته، وكشفها من قبل ابن هبيرة، عامل الأمويين على العراق[3]، وقامت ثورة البربر في الشمال الإفريقي، والخوارج في العراق، وغيرها.

ولم تتسع رقعة الدولة زمن هشام بن عبد الملك، كما اتسعت زمن غيره من الخلفاء، بل كانت تحدث في عهده غزوات، يتقدم بعدها المسلمون، ثم يعودون إلى ثغورهم، وربما

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 203/7، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 283/4، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 353/9.

2- ابن عساكر، تاريخ دمشق، مصدر سابق، 328/63.

3- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 160/7، وينظر: أبو زهرة، محمد أبو زهرة، الإمام زيد حياته وعصره (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، 2005/1425) ص: 55.

هُزم المسلمون فيها؛ كما حدث في الأندلس في معركة (بلاط الشهداء) عام: (**114** هـ) هُزم فيها المسلمون، وقتل قائدهم: عبد الرحمن الغافقي[1]، وقد مات هشام بن عبد الملك عام: (**125** هـ).

الوليد بن يزيد

تولى الخلافة بعد هشام بن عبد الملك الوليدُ بن يزيد، عام: (**125** هـ)، وهو الذي لم يكن أحد في بني أمية أكثر منه إدمانًا للشرب والسماع، ولا أشد مجونًا وتهتكًا منه، واستخفافًا بأمر الدين والأمة[2]، وكانت خلافته بداية نهاية الدولية الأموية وزوالها، وكان هشام ينقم عليه لفسقه ومجونه، لذا خرج الوليد في عهد هشام، وأقام في البرية إلى أن مات هشام، وبايعه الناس بعدها خليفة للمسلمين.

استهل الوليد خلافته بالاهتمام بأمر الناس، وإصلاح شأنهم؛ لكسب ودهم، والتظاهر بأنه أفضل لهم من هشام بن عبد الملك؛ فوضع لذلك الخطط، وجد في تنفيذها، فرفع مستوى الخدمات التي تقدمها الدولة للفقراء والعجزة، والضعفاء والمكفوفين، وزاد في رواتب المواطنين المسجلين في ديوان العطاء، وبنى المنشآت المائية للنهوض بالزراعة، وتوسيع رقعة الأرض التي تزرع في الصيف، وزيادة محاصيلها، ورفع أجور العاملين بها[3]، كما اهتم بشؤون الدولة العسكرية ولم يفرط فيها، وتمت في عهده بعض الفتوحات؛ لكن حركة الجهاد كانت قد ضعفت، نهاية العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وتحول دور المسلمين على حدودهم الشرقية والشمالية من الهجوم إلى الدفاع، والحفاظ على البلدان التي نشروا الإسلام فيها، وبسطوا سلطانهم عليها.

كشفت الرسائل التي عثر عليها الوليد في ديوان هشام بن عبد الملك موقفَ الولاة من ولايته العهد؛ فبنى عليها موقفه منهم، فقام بعزلهم، وعقابهم عقابًا صارمًا، كما استغنى عن أكثر الموظفين الذين ولوا لهشام الشرطة والرسائل، والخراج والجند، والخاتم والخزائن، وبيوت الأموال والحرس؛ أقصاهم لأنهم من خاصة هشام، وشاركوا فيما فعله هشام من السوء، كما قام بأعمال انتقامية ضد الأمراء الأمويين أنفسهم، فأقدم على جلد ابن عمه: سليمان بن هشام بن عبد الملك؛ لأمور كان ينقمها على أبيه،

1- ينظر: الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 474/2.

2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 209/7، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 284/4، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 2/10.

3- ينظر: عطوان، حسين عطوان، سيرة الوليد بن يزيد (القاهرة: دار المعارف، د. ط، د. ت) ص: 255 وما بعدها.

وأقدم على غيرها من الأمور التي أوغرت صدور الناس عليه، ومنها بيعته من بعده لولديه: الحكم ثم عثمان[1].

دلت تصرفات الوليد على ضيق أفقه السياسي، إذ لم يحاول طيَّ صفحة الماضي، أو تأجيلها لحين التمكن، وإيجاد الموالين والأعوان على ذلك، فأدت خطواته تلك وانتقاماتُه، إلى قيام الحركات ضده، ومنها حركة يزيد بن الوليد بن عبد الملك؛ الذي اجتمع حوله مبغضو الوليد بن يزيد، وعلى رأسهم عدد من أمراء بني أمية وأعيانهم، وزعماء القبائل اليمنية في الشام، والقدرية وغيرهم، واستغل يزيد غياب الوليد عن دمشق؛ فدخلها وأخذ البيعة لنفسه، ثم بعث بجيشه إلى الوليد فقتله[2]، وأدت هذه الحركة إلى إضعاف الخلافة الأموية، وزوال هيبتها، وانهيار سلطانها، ومن ثم زوالها، فقد هاجت الفتن بعدها وتتابعت، ولم تنقطع إلا بزوال الدولة، وبعد أن تولى يزيد الحكم؛ حابى الولاة الذين وقفوا معه في انقلابه على الوليد، وأبى مروان بن محمد بن الحكم ذلك؛ فحرَّك جيوشه، مطالبًا بدم الخليفة المقتول، ولكن حكم يزيد لم يدم إلا ستة أشهر، وعاجلته المنية بعد ذلك، عام (**126**هـ)[3].

تولى الحكم بعد يزيد أخوه إبراهيم بن الوليد، الذي لم يتم له الأمر؛ فكان -كما قال ابن الأثير-: "يُسلَّمُ عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما"[4]، وكان أهل حمص أول من رفض بيعته، فأرسل إليهم جيشًا بقيادة ابن عمه: عبد العزيز بن الحجاج، يأخذ البيعة منهم، وبينما الجيش محاصرًا حمص؛ جاءها مروان بن محمد بجيشه، فلما علم عبد العزيز بمقدمه ترك حمص؛ فدخلها مروان، وبايعه أهلها، وبعد ذلك سار مروان بجيشه قاصدًا دمشق، فلقيه جيش إبراهيم بن الوليد بين دمشق وبعلبك، ودارت بينهما معركة كبيرة؛ هزم فيها جيش إبراهيم، وأسر منه الكثير، ثم دخل مروان دمشق؛ بعد أن فر منها الوليد[5].

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، ٢١٨/٧، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 289/4، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 8/10، وينظر: عطوان، سيرة الوليد بن يزيد، مصدر سابق، ص: 251.
2- وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 9/10.
3- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 322/4.
4- ينظر: المصدر السابق، 322/4.
5- ينظر: المصدر السابق، 331/4، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 21/10.

مروان بن محمد

هو آخر خلفاء بني أمية، تولى الخلافة عام (**127** هـ)[1]، ليصارع أحداثًا أقوى منه، ويواجه دنيا مدبرة، ودولة ممزقة، قُدّر له أن يكتب آخر فصولها؛ رغم ما كان يتمتع به من صفات الشجاعة والإقدام، وسداد الرأي، ورغم تحقيقه انتصارات كبيرة على عدوه؛ إلا أن الله قدر أن تكون نهاية الدولة على يديه، ولا يعني ذلك أنه المسؤول الأول عن زوالها، لكن عوامل سقوطها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد، ونضجت في عهده، وكان من أخطر ما واجهه مروان: انقسام الأمويين على أنفسهم، الذي كان من أسوأ نتائجه؛ انقسام كتلتي العرب في الشام: اليمنيون والقيسيون؛ فانقلب عليه اليمنيون، وانحاز إليه القيسيُّون؛ وإن اضطراب أمر الدولة في الشام؛ إيذانٌ باضطراب أمرها في الأمصار كلها.

حاول مروان بن محمد أن يغير من الواقع، ويهدئ خواطر الناس، ويبعث فيهم الثقة، لكن ذلك الهدوء لم يدم، ولم يغير من حقيقة الواقع كثيرًا، بل كان الهدوءَ الذي يسبق العاصفة؛ فنشبت بعده الاضطراب والثورات في الشام، وقامت ثورات الخوارج في العراق والحجاز، كما قامت ثورات آل البيت؛ وكلها فتكت في عضد الدولة الأموية وأضعفتها؛ وبينما استطاع مروان السيطرة على هذا الوضع المضطرب، والقضاء على خصومه في الداخل، وأراد إرسال جيشه لمحاربة الخوارج في العراق؛ فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل الجارف، فاكتسحت خراسان والعراق، وتوجه قادتها إلى الشام، فالتقوا بجيش مروان في معركة (الزاب)، عام (**132** هـ) وهزموه، ففر إلى مصر، فأتبعوه وقتلوه[2].

كانت معركة الزاب المعركة التي حسمت أمر الأمويين، وقضت على دولتهم، وذلك بعد تخاذل أهل الشام عن نصرة مروان بن إبراهيم، لأسباب كثيرة، من أعظمها: نقله مركز الخلافة من دمشق إلى حرَّان؛ فألَّب بذلك أهل الشام عليه، الذين شعروا أنهم قد سلبوا الحكم، وفقد مروانُ بذلك نصيرًا قويًا، كان معاوية بن أبي سفيان قد عرف أهميته، وأوصى ابنه يزيد به.

1- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 332/4.
2- ينظر: الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق، 512/2-566.

أسباب سقوط الدولة الأموية وثورة العباسيين

إنَّ من أعظم ما فتك بعضد الدولة الأموية، وتسبب في سقوطها؛ بعدهم عن شرع الله تعالى؛ ثم الثورات الكثيرة التي كانت تقوم في وجوههم بين الفينة والأخرى، كثورة يزيد بن المهلب، وثورة زيد بن علي بن الحسين، ثم ابنه يحيى، وثورة البربر في إفريقية، وكذا ثورات الخوارج، وغيرهم من أصحاب الفرق، وانشغالهم بالصراعات الداخلية، وإن من أعظم ما أشغل الأمويين بعضهم ببعض؛ انقلاب يزيد بن الوليد بن عبد الملك، على الوليد بن يزيد بن الحكم، ومن ثمَّ قتله، ثم كانت نهاية الدولة الأموية على يد الثورة العباسية[1].

ولقد كانت ثورة العباسيين على الأمويين محكمةً في تنظيمها، هرميَّةً في هيكليتها، عميقةً في مضمونها، متدرجةً في خطواتها، سرّيَّةً في دعوتها، يبدأ هرمها من الإمام الذي يحيط به اثنا عشر نقيبًا، ويحيط بالنقباء سبعون داعيةً، لهم ستٌّ وثلاثون نائبًا، ينتشرون في الأمصار بصفة تجار، يلتقون خلال تنقلاتهم في البلاد بالناس، ويأخذون منهم البيعة للإمام دون أن يذكروا اسمه، ويقولون: إنما هو (الرضا من آل محمد ﷺ) حتى تبقى كلمتهم مجتمعة ولا يُفرق بين طالبي وعباسي.

وقد استفاد العباسيون خلال ثورتهم وتنظيمهم لها من الثورات السابقة على الأمويين، وتلاشوا أخطاءها، دينية كانت تلك الثورات أم سياسية، وكان من أعظم ما خدمهم في ثورتهم: حركيَّة ابن عباس رضي الله عنه التي ظهرت في نصيحته للحسين رضي الله عنه لما خرج إلى الكوفة[2]، ولما بدأوا خروجهم على الأمويين؛ كان لكل رجل مهمته الخاصة، فلم تتداخل المهام، ولم تختلط على أحد، فكان للشرطة رجلهم، وللجيش رجلهم، ولأرباب الكتب والرسائل رجلهم، وهكذا[3].

ثورات الطالبيين: قام الطالبيون بثورات عدة ضد الدولة الأموية، وإنَّ المتمعِّن في ثوراتهم تلك؛ يجد أنها كلها قد باءت بالفشل؛ بدءًا بثورة الحسين بن علي على يزيد بن معاوية، ثم ثورة زيد بن علي بن الحسين، ثم ثورة ابنه يحيى، ثم ثورة عبد الله بن معاوية

1- المصدر السابق، 568/2.

2- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 383/5، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 148/3، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 159/8.

3- ينظر: الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سابق 529/2 وما بعدها.

بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عام: (**127** هـ) وكان ابن عمر قد قال للحسين بن علي رضي الله عنهما: "والله لا يليها أحدٌ منكم أبدًا"[1]، يتأول بذلك حديث رسول الله ﷺ: «إنَّ عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده»[2]، وكذا حصل مع أبي هاشم: عبد الله بن محمد بن الحنيفة، واضع خطوط الثورة العباسية، وراسم سياستها، حيث مات قبل أن يتسلم شيئًا منها، وآل الأمر بعده للعباسيين.

1-ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، 232/6.
2- البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، 57/5، برقم: 3904.

الفصل الرابع:
دولة السلاجقة والباطنيون

المبحث الأول: السلاجقة وظهورهم على ساحة الأحداث

المبحث الثاني: الإسماعيلية النزارية والحسن بن الصباح

المبحث الأول:
أصل السلاجقة وظهورهم على ساحة الأحداث

يرجع أصل السلاجقة إلى قبائل الغز التركية، وينتمون إلى جدهم: سلجوق بن دقاق، كانت قبائلهم تسكن أقصى مناطق (تركستان)، وقد دفعتهم أسباب اقتصادية وسياسية للهجرة من بلادهم، والاتجاه غربًا بحثًا عن أماكنَ أكثر كلأً وأمنًا، فأخذوا يتوسعون غربًا في البلاد المجاورة لهم، حتى صارت لهم قوة في بلاد ما وراء النهر كلها، أثارت حفيظة الدولة الغزنوية، فغزاهم السلطان محمود الغزنوي عام: (**415** هـ)، وأنزل بهم هزائم متتالية[1].

ظلَّ السلاجقة بعد هذه الهزائم يتحينون الفرصة للثأر من الغزنويين، حتى كان لهم ذلك في معركة: (دَنَدانقان: **431** هـ) حيث تعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي، أصبح بعدها السلاجقة أكبر قوة في خراسان، أتاحت لهم قيام سلطنة إسلامية جديدة، حظي سلطانها الأول: طغرل بك باعتراف الخليفة العباسي، فساهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني لنشر الإسلام فيه[2].

بعد أن وطَّد طغرل بك أركان دولته، وحظي باعتراف الخليفة العباسي به سلطانًا، اعترافًا أضفى عليه الشرعية أمام المسلمين الخاضعين لدولته؛ أخذ يتوسع أكثر في البلاد المجاورة له، حتى تمت له السيطرة على بلاد فارس كلها، وأصبح السلاجقة بعد هذا التوسع القوة الوحيدة في بلاد فارس، وبلاد ما وراء النهر، تطلعوا بعدها لدخول بغداد، وتخليص الخلافة العباسية من تسلط البويهيين عليها؛ بعد دعوة الخليفة العباسي لهم بدخولها، وقد كان السلاجقة بسيطرتهم على بلاد فارس قد قضوا على نفوذ البويهيين فيها، فانحصر نفوذ البويهيين بعدها في بغداد وما حولها، ولما دخلها السلاجقة؛ طهروها من رجسهم، وأعادوا للخلافة العباسية فيها مكانتها.

1- ينظر: الصلابي، علي الصلابي، دولة السلاجقة (بيروت: دار المعرفة، ط 4، 2011/1432) ص: (20 -31)، وينظر: طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، محمد سهيل (بيروت: دار النفائس، ط ٣، 2009/1430) ص: (76 - 83).

2- ينظر الذهبي، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، 381/30، وينظر: الصلابي، دولة السلاجقة، مصدر سابق، ص: 31، وينظر: طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، مصدر سابق، ص: 86، وينظر: فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية السقوط والانهيار (عمان: دار الشروق، ط 1، 2009) 161/2.

البويهيون

تنسب هذه الأسرة إلى بويه بن فنّا خسرو الديلمي الفارسي، ويعتبر علي بن بويه (ت: **366** هـ) المؤسس الأول لدولتهم، التي بقيت قائمة في فارس والعراق أكثر من قرن من الزمان، كان أول ظهور لهم في منطقة (كرج) في فارس مطلع القرن الرابع الهجري، ثم توسعوا بعدها حتى استولوا على إقليم فارس كله، وفي سنة: (**334** هـ) دخلوا بغداد دون قتال، وأظهروا الطاعة للخليفة العباسي، وأضفى عليهم الخليفة الألقاب.

استغل البويهيون بعد ذلك ضعف الخلافة العباسية؛ فأخذوا يظهرون تشيعهم، بل شجعوا على الأعمال الاستفزازية ضد أهل السنة، فوقعت بينهم وبين أهل السنة الكثير من الصدامات، أزهقت فيها أرواح وممتلكات كثيرة، وأعلنوا في بغداد لعن معاوية، والخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم، وكان الخليفة العباسي لا يقدر على منع ذلك[1]، ثم أقاموا لهم مراكز متخصصة في التأليف والتعليم؛ لنشر تشيعهم في بغداد والنجف وغيرها، ولم يكن لأهل السنة قوة تردعهم؛ وذلك لكثرتهم، وقوة سلطانهم في بغداد، فقد أصبحوا الحاكمين الفعليين في بغداد، وبقي أمرهم على ذلك حتى دخل السلاجقة بغداد، بقيادة السلطان: طغرل بك عام (**447** هـ) وخلَّص بغداد منهم، وانتهت بذلك دولتهم على يديه.

توجه طغرل بك بعد دخوله بغداد إلى همذان، حيث أخوه إبراهيم ينال، الذي تمرد عليه – بعد أن كان طغرل قد أرسله لفتح تلك البلاد، ففتحها وجعلها قاعدة له-؛ فانتصر عليه طغرل بك، وأعاد تلك البلاد إلى سلطنته.

فتنة البساسيري

أدى خروج طغرل بك من بغداد لقتال أخيه إبراهيم إلى إفراغها من الحامية السلجوقية؛ فاستغل ذلك الفراغ أبو الحارث البساسيري، أحد قادة بني بويه الأتراك المتشيعين[2]؛ فقام بمراسلة العبيديين (الفاطميين) في مصر – بعد أن اعتنق مذهبهم-؛ لقلب نظام الحكم في بغداد، فأقدم على دخول بغداد، وأسر الخليفة العباسي، وإرغامه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة مع وجود الفاطميين، ثم أرسل الخليفةَ إلى الأنبار، ووضعه تحت الإقامة الجبرية، ودعا للحاكم العبيدي: المستنصر

1- ينظر: العبدة، محمد العبدة، أيعيد التاريخ نفسه (لندن: المنتدى الإسلامي، ط 3، 1999/1419) ص: 63.

2- كان البساسيري بداية أمره معظماً للخليفة العباسي، ثم طغى وبغى وتمرد، ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، 103/12.

بالله على منابر بغداد والموصل والكوفة، وغيرها من مدن العراق، وأعاد الروافض الأذان في بغداد بحيَّ على خير العمل، وأقدموا على نهب دار الخلافة، وإشاعة الفوضى في بغداد.

أرسل الخليفة العباسي من أسره رسالة إلى طغرل بك جاء فيها: بحق الله أدرك الإسلام فقد ساد العدو اللعين، وأخذ ينشر مذهب القرامطة، ولما فرغ طغرل من القضاء على تمرد أخيه؛ قدم إلى العراق على رأس جيش عظيم، فقضى على فتنة البساسيري فيه، بعد أن قُتل البساسيري، وحمُل رأسه إلى بغداد، وطيف به في شوارعها، وأعيد الخليفة العباسي إلى دار الخلافة في بغداد، وأدرك بعدها السلاجقة خطورة الدعوة الفاطمية على دولتهم؛ فأخذوا يتتبعون آثارها ودعاتها في العراق، حتى طهروه منها، وتفرغوا بعدها لقتال الروم، الذين كانوا قد عاثوا فسادًا في بلاد المسلمين، مستغلين ضعف الخلافة العباسية، وتمكن البويهيين منها.

الأمير ألب أرسلان (ت: 465 هـ)

تولى أمر السلاجقة بعد طغرل بك ابنُ أخيه السلطان الكبير: ألب أرسلان، وكان كعمه قائدًا ماهرًا، محبًا للعلم والعلماء والجهاد، مطلعًا على تاريخ الأمم، كانت أولى أعماله توطيد أركان دولته، ولـمَّا اطمأنَّ لاستقرارها؛ أخذ يخطط لتحقيق أهداف السلاجقة، في التوسع في الأراضي البيزنطية، وتطهير بلاد الشام من رجس الفاطميين العبيديين، وإسقاط خلافتهم في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية، ونفوذ السلاجقة.

أخذ ألب أرسلان يوجه الجيوش إلى شمال بلاد الشام، ويخوض المعارك مع البيزنطيين؛ ليحول دون تحالفهم مع الفاطميين ضده، وكان له ذلك، حيث أوقع بالبيزنطيين هزائم متتالية، مكنته من بناء قاعدة له في بلادهم، ثم توجه بعدها جنوبًا إلى حلب؛ فحاصرها حتى صالحه أميرها، على أن يكون تابعًا له، ويدعو على منابرها للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي، وبعد هذا الصلح أخذ السلاجقة يتوسعون في بلاد الشام، يطهرونها من الفاطميين، فوصلوا إلى بيت المقدس ويافا، وطردوا الفاطميين منها، وخطب فيها للخليفة العباسي، وللسلطان السلجوقي.

معركة ملاذ كرد (463 هـ)[1]

أثارت انتصارات السلاجقة في بلاد الكرج وأرمينية، وما حولها حفيظة بيزنطة، وأردك الإمبراطور البيزنطي: أرمانوس أن ألب أرسلان يصبغ غزوه لبلاده بالطابع الجهادي، وأن الحرب بينهم وبين السلاجقة أمرٌ لا مفر منه؛ فخرج لهم بجحافل أمثال الجبال، مدججة بمختلف أنواع الأسلحة، قُدر عددها بـ (300) ألف مقاتل، فيهم عدد كبير من البطارقة، وقد عزموا على إبادة الإسلام وأهله، والقدر يقول لهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: 72)، وما إن علم ألب أرسلان بخروج الروم لقتاله؛ حتى استعدَّ لهم، وكان في قلة من أصحابه، تقدر بـ (15) ألف مقاتل، ومع هذا أصرَّ على ملاقاة جيش الروم الكبير.

أرسل ألب أرسلان لملك الروم يعرض عليه الصلح، لكنه تكبر وطغى، وتوعد أن يفعل ببلاد المسلمين ما فُعل ببلاد الروم؛ فحمي ألب أرسلان بعد ذلك لخوض المعركة، فلبس حنوطه واستعدَّ للموت، ومرَّغ وجهه بالتراب، وابتهل إلى الله بالدعاء، واستنفر جنده، وحضهم على الصبر والثبات، ثم لقي الروم يوم الجمعة والخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين، وذلك عام: (463 هـ)؛ فزلزل الله الروم، وقذف الرعب في قلوبهم؛ فانكسروا، ونصر المسلمين عليهم؛ بعد أن قتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وأسروا خلقًا كثيرًا، كان على رأسهم: ملك الروم أرمانوس نفسه، وكان هو أول امبراطور بيزنطي يقع أسيرًا بأيدي المسلمين؛ فجيء به إلى ألب أرسلان، فافتدى نفسه ومن معه من الأسرى بأموال كثيرة؛ بعد أن قبَّل الأرض بين يديه، وقبَّل الأرض إلى جهة الخليفة العباسي؛ إجلالاً وإكرامًا[2].

يطلق بعض المؤرخين على معركة (ملاذ كرد) اسم الملحمة الكبرى؛ لأنها تعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ، فهي أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، توسع بعدها السلاجقة في جوف آسيا الصغرى توسعًا كبيرًا، ونشروا الإسلام فيها؛ وأسسوا فيما بعد ما عرف في التاريخ باسم: (سلطنة سلاجقة الروم)، وإذا كانت معركة اليرموك

1- جاء ذكر هذه الواقعة في كتب التاريخ بأسماء مختلفة، منهم من سماها: ملازكرد، ومنهم من سماها: منازكرد، ومنهم من سماها: مانزيكرت، وغيرها من الأسماء.

2- ينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 223/8، وينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، 100/12، وينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت) 313/2، وينظر: اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1997/1417) 67/3، وينظر: طقوش، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، مصدر سابق، ص: 48.

قررت مصير بلاد الشام؛ فإن معركة ملاذ كرد قد قررت مصير آسيا الصغرى، وبررت للتدخل الأوربي فيما بعد فيها، وقطعت التحالف البيزنطي الفاطمي.

وهكذا استطاع الأمير ألب أرسلان غزو بلاد الروم مرتين، وكسر شوكتهم، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، وإعادة الهيبة للخلافة العباسيَّة، كما استطاع تطهير بلاد الشام من الفاطميين، وكاد أن يتملك مصر، ثم توفي عام (**465** هـ) وعمره أربعون سنة، فعليه رحمات الله، ثم خلفه ابنه ملكشاه.

الوزير نظام الملك (408 - 485 هـ)

إن ذكر نهوض دولة السلاجقة مقرون دائمًا بذكر الوزير نظام الملك، لذا نجد كل من يكتب عن السلاجقة يقف على ذكر الوزير الصالح: نظام الملك، الذي كان له دور عظيم في نهوض دولتهم، بل وفي نهوض الأمة الإسلامية كلها؛ دور لا يقل أهمية عن دور القادة السياسيين والعسكريين، وذلك من خلال المشروع النهضوي الذي قدمه للأمة.

الوزير نظام الملك: هو الحسن بن علي الطوسي، وزر للأمير ألب أرسلان، ولابنه ملكشاه من بعده، دامت وزارته قرابة الثلاثين عامًا، كان لهما وزير رشد وخير، قضى عمدة حياته في سبيل نشر الإسلام، والذود عنه، وكان عالمًا مجتهدًا، مهتمًا بالحديث وسماعه، وإضافة لذلك فقد كان سياسيًا بارعًا، مطلعًا على تاريخ الأمم، عارفًا بأحوال مجتمعه ومحيطه، لذا أخذ بأسباب نهوض الدول والأمم، حتى استطاع أن يحقق النجاح لمشروعه النهضوي في الأمة.

كان السلاجقة قد ورثوا في فارس والعراق نفوذ البويهيين الشيعة، الذين لم يألوا جهدًا في نشر مذهبهم الباطني فيهما، وكانوا قد غضوا الطرف عن نشاط دعاة الإسماعيلية فيهما أيضًا، وأنشأ كلٌّ منهما مراكز ومؤسسات تعليمية للترويج لعقائدهم؛ فأشار الوزير: نظام الملك على الأمير: ألب أرسلان أن الاقتصار على محاربة هؤلاء الباطنية سياسيًا وعسكريًا، غيرُ كافٍ للقضاء على نفوذهم، وآثار دعوتهم؛ ولا بد من مقاومتهم مقاومة فكرية علمية، وذلك بإقامة نشاط سُنِّي مماثل، يتصدى لهم بالحجة والبرهان؛ فوافقه ألب أرسلان على ذلك، وسخر له أموال الدولة؛ فأنشأ نظام الملك ما عرف في التاريخ بـ: (المدارس النظامية) في كل من العراق وفارس، وبلاد ما وراء النهر،

وضع لها نظامًا إداريًّا غاية في الدقة والانضباط، وجعل لها مناهج دراسية تحقق الهدف من إنشائها، ثم اختار أعلامَ عصره أساتذةً لها، كالإمام: أبي إسحاق الشيرازي: (ت: **476** هـ)، والإمام الجويني: (ت: **478** هـ)، وشيخ الإسلام الهروي: (ت: **481** هـ)، والإمام الغزالي: (ت: **505** هـ)، والإمام البغوي: (ت: **516** هـ)، وغيرهم كثير، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة؛ لتقوم بنفقاتها، وقد استطاعت هذه المدارس أن تتصدى للمشروع الباطني وتسقطه، وترفد الدولة والمجتمع المسلم بخيرة القادة والمصلحين؛ فحنق الباطنية على نظام الملك حنقًا شديدًا، وما زالوا به حتى اغتالوه سنة: (**485** هـ)[1].

السلطان ملكشاه

تولى عرش السلاجقة بعد ألب أرسلان ابنُه ملكشاه، الذي عدَّه بعض المؤرخين المؤسسَ الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية، حيث أثبت مقدرةً فائقةً في الحرب، ورغبةً نادرةً في الإصلاح والإعمار، وإدارة شؤون الدولة، فأقام العدل، ونشر الأمن والاستقرار في أرجاء دولته، واستطاع أن يقضي على خصومه في الملك، وأحيا مشروع أبيه ألب أرسلان، في العمل على تطهير بلاد الشام من الباطنية، وضم مصر إليها، والتوسع في الأراضي البيزنطية؛ فتوسعت رقعة الدولة السلجوقية في عهده، حتى وصلت من أقصى بلاد الترك، إلى أقصى بلاد اليمن، وخطب له من حدود الصين حتى آخر الشام، ولم يمتدَّ به العمر ليقضي على الإسماعيلية النزارية في بلاد قزوين وما حولها، رغم أنه قاتلهم مرارًا، كما سيأتي ذكره.

بموت ملكشاه عام: (**485** هـ) انتهى العصر الذهبي للدولة السلجوقية، وبدأ عصر الانقسامات السياسية بين ورثة العرش على السلطة، "ولم تحل سنة: (**489** هـ) إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس دول هي: سلطنة سلاجقة إيران، وسلطنة سلاجقة خراسان، وسلطنة سلاجقة الشام (حلب ودمشق)، وسلطنة سلاجقة الروم"[2]، وقعت بينها حروب مدمرة، أتت على الأخضر واليابس، وكذا فقد دخل السلاجقة في نزاعات مع الخلافة العباسية نفسها، أدى كل ذلك إلى إضعافهم، وتشتت صفوفهم أمام

1- ينظر: محبوبة، عبد الهادي محمد، نظام الملك كبير الوزراء في الأمة الإسلامية (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1999/1419) ص: 353، وينظر: فوزي، الخلافة العباسية السقوط والانهيار، مصدر سابق، 172/2، وينظر: الصلابي، دولة السلاجقة، مصدر سابق، ص: ٣١٣ وما بعدها، وينظر: أمين، حسين أمين، تاريخ العراق السلجوقي (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1965/1385) ص: 220.

2- ينظر: طقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية حروب الفرنجة في المشرق (بيروت: دار النفائس، ط 1، 2011/1432) ص: 68.

عدوهم، وبخاصة الباطنيين منهم، ومن ثمَّ زوال دولتهم؛ مما أخلى الطريق أمام الحملة الصليبيَّة الأولى على بلاد الشام، عام (**491** هـ)، التي لم تجد مقاومةً تذكر، فحققت أهدافها بسبب تلك الانقسامات، وكان أعظمها: الاستيلاء على بيت المقدس، والمسجد الأقصى.

1- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق، 11/515، 5/232، وينظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، 3/56، وينظر: خياط، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1397، 1/211، وينظر: أبو عُبيَّة، طه عبد المقصود، موجز عن الفتوحات الإسلامية (القاهرة: دار النشر للجامعات، د. ط، د. ت) 1/34.

المبحث الثاني:
الإسماعيلية النزارية والحسن بن الصباح

كان مما عانت منه الأمة كثيرًا زمن السلاجقة وبعدهم: الفرق الباطنية بكل أقسامها، وكان أخطر تلك الفرق الإسماعيلية النزارية، التي عرف أتباعها عبر التاريخ بالباطنية، أو الحشيشية، أو الحشاشين، وهي امتداد للدعوة الفاطمية العبيدية في مصر، وقد انتشرت الإسماعيلية النزارية في بلاد المشرق، وكان الذي حمل لواءها، ونشرها في بلاد قزوين وفارس، وغيرها من بلاد ما وراء النهر: الحسن بن الصباح.

الحسن بن الصباح

رجل يمني، هاجر أبوه إلى الكوفة، ثم إلى الري حيث ولد ابنه الحسن، ثم رحل الحسن إلى مصر، حيث الفاطميون العبيديون، وهناك تعلم المذهب الفاطمي، واطلع على أحوال الدولة الفاطمية، وحظي بحفاوة الخليفة الفاطمي: المستنصر بالله، الذي أمده بالأموال، وأمره بنشر دعوة الفاطميين في بلاد المشرق، وقبل أن يخرج الحسن بن الصباح من مصر؛ توفي الخليفة المستنصر بالله، دون أن يبايع لابنه الأكبر: نزار، فاختلفت حاشيته عليه وعلى ابنه المستعلي بالله، فبايعت الحاشية وعلى رأسها أمير الجيوش الفاطمية: بدر الجمالي المستعلي بالله خليفة لأبيه؛ فانقسمت الإسماعيلية إلى: النزارية والمستعلية؛ وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار تتفق وتعاليم الدعوة الإسماعيلية، التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه؛ فعاد إلى بلاد فارس، ومن أصبهان أخذ يعمل لنشر دعوته إلى نزار، مروِّجًا لنظرية الإمام المستور، جاعلاً من نفسه نائبًا له، ومخططًا لإنشاء دولة إسماعيلية في بلاد المشرق الإسلامي؛ فانتبه لخطره الوزير: نظام الملك؛ فضيق عليه الخناق؛ فرحل الحسن إلى قزوين، واستولى على قلعة الموت، وجعل منها مقرًا له، ثم استولى على القلاع المتناثرة حولها، والتي تبلغ نحو الستين قلعة، كانت كل قلعة منها تعتبر وحدةً اقتصاديةً وعسكريةً مستقلةً بذاتها، يعيش ساكنوها معتمدين على الزراعة؛ نظرًا لوفرة الماء فيها، وتتبع كلها للسلطة المركزية في قلعة الموت.

كانت تلك القلاع تقع جنوب بحر قزوين ممتدةً إلى بلاد الطالقان في الجنوب الشرقي منه، حتى بهرام آباد ورودبار على الحدود المتاخمة لشرقي آذربيجان، ومن قلعة

الموت أخذت دعوة الحسن بن الصباح تتوسع في البلاد، وتعيث فيها فسادًا، ومن تلك القلاع كان يخرج فدائيوه، يغتالون العلماء والآمنين، وكان أول ضحاياهم: الوزير: نظام الملك، وحاولوا اغتيال ملكشاه، وصلاح الدين وغيرهم من الأمراء والقادة، وظلوا يبثون الرعب من هذه القلاع؛ حتى جاء المغول؛ فاكتسحوا قلاعهم، الوحدة تلو الأخرى، وألقوا القبض على آخر أئمتهم: خورشاه عام: (**655** هـ)، وقتلوه.

كانت دعوة الحسن بن الصباح النزارية وعقيدته تقوم على أن لكل ظاهر باطنًا، وأن لكل تنزيل تأويلاً، وأن الباطن أهم من الظاهر؛ لأنه اللب، وكانوا يقولون بالحلول والتناسخ، وكان من أساليبهم في الدعوة لمذهبهم التدرج في تشكيك الطالب بدينه، وبتفاسير القرآن وعلومه، وبأقوال السلف، من خلال طرح بعض الأسئلة التي تتركه حيرانًا متأرجحًا في عقيدتهم، كسؤاله عن معاني الحروف المقطعة أوائل بعض السور، ثم العمل على إقناعه لرفض تعاليم النبي ﷺ، وتوحي إليه أن ما أمرت به الأديان ما هو إلا أكاذيب وحيل، كان الهدف منها إخضاع المجتمعات لها، حتى يصلوا به إلى أن كل الشرائع لا بد أن تخضع لشريعة العقل والعلم، ويستدلون له بنظريات أرسطو، وأفلاطون، وفيثاغورس، وذلك يدل على قوة ارتباط الباطنية بالفلسفة اليونانية، وكانوا يتظاهرون خلال ذلك بالتقوى والصلاح، وينتسبون لآل بيت النبي ﷺ، وقد أرسل الحسن بن الصباح رسالة إلى ملكشاه، يدعوه فيها إلى عقيدته، ويحذره من وزيره الناصح: نظام الملك، وذلك بعد فشل حملات ملكشاه من الاستيلاء على قلاعهم.

لقد كانت دعوة الحسن بن الصباح دعوةً منظمة بدقة، وأعضاؤها مقسمون على سبعة مراتب، أوَّلها: رئيس الدعوة، وهو نائب الإمام المستور، ويسمى: شيخ الجبل، وسابعها: المستجيبون، وهم عامة الناس المؤيدون للدعوة، وكان لكل مرتبة أعمالها الخاصة، والمتأمل في طريقة الدعوة النزارية، وما تقوم عليه من تدرج في الدعوة والتنظيم، والمتأمل في أساليب الماسونية في العصر الحديث، وطرق الدخول فيها؛ يجد أن ثمَّت خيطًا رفيعًا يربط بين الباطنية والماسونية؛ ألا وهو: اليهودية العالمية، التي استطاعت أن توجد الباطنية وفرقها في القديم، والماسونية ومؤسساتها في الحديث.

كان من أجل أعمال السلاطين السلاجقة وأعظمها؛ تأخير سقوط الخلافة العباسية قرنين من الزمن، وقد كانت قبل مجيئهم قاب قوسين أو أدنى من السقوط بيد

البويهيين في العراق، والفاطميين في بلاد الشام ومصر، وكذلك وقوفهم بوجه التوسع الصليبي البيزنطي شمال العراق، بعد انتصارهم في معركة: (ملاذ كرد)، وكان من جليل أعمالهم: إكرام العلماء، وتوليتهم مناصب عليا في الدولة؛ مما شجع الوزير: نظام الملك على القيام بمشروع نهضوي عظيم، كان له أعظم الأثر في مواجهة المشروع الباطني، ونشر العلم بين المسلمين.

الفصل الخامس:
الدولة الزنكية والأيوبية

المبحث الأول: الحروب الصليبيَّة

المبحث الثاني: الدولة الزنكية

المبحث الثالث: الدولة الأيوبية

المبحث الرابع: الأيوبيون بعد صلاح الدين

المبحث الأول:
الحروب الصليبيَّة (488 - 690 هـ/ 1096 - 1291 م)

تاريخ الحروب الصليبية

يعتقد الكثير من المسلمين أن تاريخ الحروب الصليبيَّة بدأ منذ نهاية القرن الخامس الهجري، وانتهى نهاية القرن السابع الهجري، أي طيلة (**200**) سنة فقط، وهي مرحلة الحملات الصليبيَّة التي جاءت من أوربا الغربية، وهذا اعتقاد خاطئ، بل إن هذه الـ (**200**) سنة ما هي إلاَّ مرحلة من مراحل الحروب الصليبيَّة، التي كان لها سببها[1]، "استمرت هذه الحروب الشرسة فترة الخلافة العباسية ودولة السلاجقة، وكذلك الدولة الزنكية، فالأيوبية، فدولة المماليك، وانتهت بطرد الصليبيين الغربيين، وعودة الأراضي الإسلامية للمسلمين"[2].

الحروب الصليبيَّة بين المسلمين والنصارى بدأتْ منذ ظهور الإسلام، ومرَّت بمراحل مختلفة، وأشكال متنوعة مستمرة، وما تزال حتى هذا العصر، وقد كان أول احتكاك مباشر وحقيقي بين المسلمين والصليبيين عندما خرج المسلمون من الجزيرة العربية[3]، زمن الخليفة الراشد، أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عام (**13** هـ) لنشر الإسلام -كما مرَّ سابقًا- وكان على رأس من خرج إلى الشام: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين، وكانت معركة اليرموك العظمى بقيادة خالد بن الوليد، التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا عظيمًا، وانتشر بعدها الإسلام في بلاد الشام كلها، وفي شمال بلاد الشام كانت ثغور رباط الدولة الأموية فيما بعد، الذين حاولوا مرارًا فتح القسطنطينية، ولم يُكتب لهم ذلك، وبقيت دولة الروم قويةً في آسيا الصغرى، وبقيت الحروب مستمرة بينهم زمن الأمويين والعباسيين.

1- ينظر لمعرفة أسباب الحروب الصليبية ودوافعها بشيء من التفصيل: طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص: 33، وينظر: السرجاني، راغب السرجاني، قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي (القاهرة: مؤسسة اقرأ، ط 2، 2009) ص: 60، وينظر: قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية (الكويت، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990) ص: 47، وينظر: المطوي، محمد العروسي، تاريخ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (القيروان: دار الغرب الإسلامي، د. ط، 1982) ص: 29.

2- ينظر: السرجاني، قصة الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص: 21.

3- وقد سبقه احتكاك زمن النبي ﷺ، في معركة مؤتة وغيرها، كان أشبه بمقدمات وإرهاصات للاحتكاك الحقيقي زمن الصديق رضي الله عنه وما تلاه.

ثم لـمَّا بلغت الدولة العباسيَّة من الضعف ما بلغت، وتمكن منها البويهيون، وأقدموا على أسر الخليفة العباسي، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية، ولقي المسلمون منهم في بغداد وما حولها ظلمًا واضطهادًا كبيرًا؛ جاء السلاجقة من بلاد قزوين وما حولها؛ فوحدوا تلك البلاد، وجمعوا أهلها على الإسلام، ثم توجَّهوا غربًا إلى بغداد، وأعادوا للخلافة الإسلامية مكانتها، وخلَّصوا بغداد من البويهيين الشيعة، ثم تفرغوا بعدها لقتال الروم البيزنطيين؛ فخاضوا معهم معركة عظيمة في تاريخ الإسلام، بل حتى في تاريخ النصارى، معركة غيَّرتْ موازين القوى في المشرق النصراني كله، عرفت بمعركة: (ملاذ كرد) عام: (**463** هـ)؛ ضعف النصارى بعدها عن قتال المسلمين في المشرق، فاستنجدوا بنصارى الغرب، فأنجدهم بابا الفاتيكان بحملة صليبيَّة عظيمة[1]؛ ومن هنا بدأتْ الحملات الصليبيَّة تأتي من أوروبا الغربية، واستمرت طيلة (**200**) سنة، وكانت تلك الاستغاثة من أبرز أسباب قيام الحروب الصليبية.

مؤتمر كليرمونت وانطلاق الحملة الصليبية الأولى

قام بابا الفاتيكان بعقد مؤتمر في فرنسا، عرف بمؤتمر «كليرمونت» سنة (**1095**م) دعا فيه أوروبا إلى إنقاذ قبر المسيح، والأرض المقدسة من ذلكم الجنس اللعين الذي طغى فيها، وصور لهم بشاعة ما يلقاه النصارى على أيدي السلاجقة المسلمين؛ فألهبت كلماتُه تلك حماسةَ أوربا، وأثارت حِنقها على المسلمين، وتعالت لذلك أوروبا على كل خلافاتها، ونزاعاتها، وأحقادها، واجتمعت على حرب المسلمين، فجهزت الحملة الصليبيَّة الأولى على بلاد المسلمين، وهي أول عمل تعاوني لأوروبا الغربية، الخارجة من عصور الظلام!

ولقد كان القساوسة والرهبان والمتطوعون -على رأسهم: بطرس الناسك- يطوفون القُرى والبلدات، يحضُّون النصارى على الجهاد؛ لتخليص قبر المسيح في القدس، واستخدموا في سبيل ذلك كلَّ أساليب الترغيب والترهيب، ومنها توزيع صكوك الغفران على المشاركين في الحملة، تلك الصكوك التي أصبحت فيما بعد سُبَّةً وعارًا على الكنيسة، وأخذوا يبثون روح الطمأنينة في نفوس المقاتلين، قائلين لهم: مَن كان له مالٌ، أو عقارٌ؛ فليتركه للكنيسة تحفظه له، ثم تردُّه إليه بعد رجوعه من الحرب المقدسة، كما استخدموا كلَّ أساليب التهديد ضد كلِّ من يرفض الذهاب للحرب المقدسة، فهدَّدوه باللعنة، والطرد من الكنيسة.

1- سبق الحديث عن تلك المرحلة في قسم: دولة السلاجقة.

العجيب في كل ذلك غيابُ المسلمين عمَّا كان يُدبَّرُ لهم في أوروبا، فلم يكن أحدٌ من المسلمين يعلم بما كان يجري في أوروبا، ولم تذكر كتب التاريخ أن أحدًا من المسلمين تنبه لذلك، فالسلاجقة كانوا غارقين في حروبهم الداخلية على الملك، والخليفة العباسي كان أضعف من أن ينتبه لذلك، فلم يكن لديه جهاز استخبارات يكشف له تحركات أعداء أمته، كما هو حال الدول، لذا وصلت الحملة الصليبيَّة الأولى إلى شواطئ القسطنطينية، دون أن يعلم بها أحدٌ!

تحرَّكت الأساطيل الأوروبية من البرتغال، وإيطاليا، وفرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، وغيرها من دول أوربا، وكانت القسطنطينية مكان اجتماعهم، ثم وصلتْ الحملة الصليبيَّة إلى شواطئ آسيا الصغرى (تركيا)، وكان البيزنطيون قد اشترطوا على الصليبيين -لتقديم الدعم لهم- ألا يدخلوا القسطنطينية، ووصل عدد الصليبيين-مع مَن انضمَّ إليهم من نصارى بيزنطة ونصارى الشرق- إلى نحو مليون مقاتل، وقد قيل في عددهم: "كانت الجيوش الصليبية عبارة عن شعب كامل يسير"[1]، وسواء كانت الروايات التي بالغت في ذكر أعداد الصليبيين صحيحة أم لا؛ فإن بعض المؤرخين يؤكدون أن جيوش المسلمين كانت أقوى من جيش الصليبيين؛ لأن أكثرهم كان من العبيد والأقنان، الذين لا يحسنون فنون القتال والحرب، ومع ذلك غلب ذلك الجيش جيوش المسلمين، يقول ابن تغري (ت: **874** هـ): "والعجب أنّ الفرنج لـمَّا خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع، وعدم القوت؛ حتّى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوّة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرّقوا جموعهم"[2].

بعد وصول الصليبيون تنبَّه لهم السلاجقة، لكنَّ السلاجقة -كما ذكرت- كانوا قد أُصيبوا بمرض المسلمين، مرض التنازع والاختلاف، والانقسام على السلطة، ومن ثم السقوط؛ لذا انهزموا أمام الصليبيين في أول حرب دارت بينهم، وسقطت فيها عاصمتهم نيقية عام: (**490** هـ).

اجتاحت الحملة الصليبيَّة بلادَ الشام متوجِّهة إلى القدس، وارتكب الصليبيون في طريقهم إلى القدس أبشع المجازر والخيانات، ولم يجدوا في طريقهم مقاومةً تذكر؛

1- المطوي، تاريخ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، مصدر سابق، ص: 49.

2- ابن تغري، يوسف بن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر (5/ 148)

نظرًا للتمزق السياسي، والخراب الاقتصادي الذي عمَّ البلاد، فكانوا يُعطون أهل المدينة الأمان؛ ليدخلوها سِلْمًا، وبعد أن يدخلوها؛ ما يلبثون يغدرون بأهلها، وينزلون بهم أبشع المجازر، وقد قتلوا في مَعرَّة النُّعمان[1] وما حولها -كما قدَّر ابن العديم- أكثر من عشرين ألفًا، بين رجل وامرأة وصبي، في حين أن ابن الأثير قدر عدد القتلى بمائة ألف مسلم، وقع ذلك بعد أن أعطى الصليبيون أهل المعرة الأمان.

كانت كُلُّ بلدة من بلدات الشام، وكُلُّ مدينة من مدنه إذا ما غشيها الصليبيون؛ تستنصر بجارتها المسلمة، فلا تجيبها جارتُها، كانت كلُّ مدينة تقول: نحن دولة لنا سيادتنا، ولنا حدودنا، ولا دخل لنا بهذه الحرب، وكان كُلُّ أمير يُؤمِّل من اعتزله هذه الحرب؛ أن يبقيه الصليبيون على عرشه، ولا يتعرضون له، بل إن بعضهم كان يُراسل الصليبيين يهادنهم، ويمدهم بالمؤن، ويرسل إليهم الهدايا، ويسمح لهم بدخول أسواق مدينته، يشترون منها ما يحتاجون إليه من سلاح ومتاع، وكل ذلك بثمن بخس؛ طمعًا في أن يُبقيه الصليبيون على عرشه، ولكن ذلك لم ينفعهم في شيء.

ولقد كان المسلمون من أهل تلك البلاد يرسلون إلى الخليفة العباسي لينجدهم، ويعلن النفير العام في الأُمَّة، ولكن هيهات، لقد تقطعت بين المسلمين روابط الإسلام والأخوة، فلم يستجب لهم الخليفة، ولا غيره من المسلمين، ولقد كان الباطنيون من الإسماعيلية والنُّصيْرية عونًا للصليبيين في حملتهم تلك، كان هؤلاء -والحملة في طريقها إلى القدس- يطلعون الصليبيين على أماكن المجاهدين؛ ليقتلوهم، وعلى أماكن الآبار، والينابيع التي كان يطمرها المسلمون إذا ما حُوصروا، مع أن هؤلاء الباطنيون كانون يعيشون آمنين في بلاد الإسلام، وتحت رايته!

سقوط القدس

وصل الصليبيون إلى القدس يوم الثلاثاء، في (**15**) رجب، عام: (**492** هـ)، وكان الفاطميون قد أرسلوا جيشًا لحماية القدس من الصليبيين[2]، يقاتل مع أهلها، فحاصر الصليبيون القدس (**39**) يومًا، ضربَ خلالها أهلُها أروع الأمثلة في البطولة، والدفاع عنها، وقاتل معهم الفاطميون، ثم سرعان ما انسحب الفاطميون من القدس، بعد أن

1- مدينة بين حلب وإدلب في شمال سوريا.

2- عند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى كانت القدس تحت حكم السلاجقة؛ فاستغل الفاطميون انشغال السلاجقة بمقاومة الصليبيين فأقدموا على الاستيلاء على بيت المقدس، ينظر: المطوي، تاريخ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، مصدر سابق، ص: 52.

طلبوا الأمان من الصليبيين، فأعطاهم الصليبيون الأمان، فخرجوا منها آمنين، لم يتعرَّض لهم أحد بسوء! وبعدها انهارتْ قوة المسلمين، ودخل الصليبيون بيت المقدس.

يذكر ابن الأثير: أنَّ الصليبيين لـمَّا دخلوا القدس قتلوا في المسجد الأقصى أكثر من سبعين ألف مسلم؛ مِمَّن احتمى فيه من العلماء والعُبَّاد والزُّهاد، وغيرهم، ثم توزَّعوا في القدس فقتلوا أهلها، ومارسوا فيهم أبشع صنوف القتل والتعذيب، فقطعوا الرؤوس، وجمعوها أكوامًا، وكذا فعلوا بالجثث، وكانوا يرمون الناس من الشواهق، حتى لقد غاصتْ خيولهم بدماء القتلى، فلم يعد يُرى في المدينة إلَّا الموت، والجثث والأشلاء، ودخلوا على اليهود في معبدهم؛ فأحرقوهم فيه، ولا يُعرف كم كان عددهم فيه.

أقام الصليبيون مملكة لاتينية، امتدت حدودها من بيروت إلى العقبة، اتخذوا من القدس عاصمة لها، ثم أنشؤوا في القدس فرقتين كبيرتين، هما قوام مملكتهم، أطلقوا على الأولى اسم: (الداوية) اختصت بقتال المسلمين بشراسة وهمجية، ولقي المسلمون منها شدةً واضطهادًا، وكانت الثانية تسمى: (الاستبارية) كان عملها الاهتمام بحجاج بيت المقدس، والمرضى النصارى، ثم تحولت والداوية إلى هيئة حربية، مقرها المسجد الأقصى.

حققت الحملة الصليبيَّة الأولى على بلاد المسلمين نتائجَ وأهدافًا كثيرة، كان من أعظمها الاستيلاء على بيت المقدس، وعمل الصليبيون بعد ذلك -للحفاظ على انتصاراتهم وبقائهم في بلاد المسلمين- على الاستيلاء على ساحل البحر المتوسط؛ بعد أن لمسوا تهاون الفاطميين في الدفاع عنه؛ فاستولوا على حيفا وعكا، وغيرها من الموانئ الشامية؛ ليبقى باب التواصل مع أوربا مفتوحًا، كما عملوا على إثارة النعرات والخلافات بين المدن الإسلامية؛ لتبقى مقسَّمةً ضعيفةً، وحافظوا كذلك على العلاقات الوثيقة مع حلفائهم الباطنيين الإسماعيلية.

بعد أن انتشرت رائحة الموت في كل مكان، وعلتْ أصوات أجراس النصارى فوق المسجد الأقصى، ودُنِّستْ صخرة المسجد الأقصى، ورُفع عليها الصليب؛ صحتْ الأمة من سباتها، ونهضتْ بعد هذا النوم الطويل، وأخذتْ تُعدُّ العدة لإخراج الصليبيين من بلاد المسلمين، ولكنَّ هذا السبات العميق كلَّفها عمل واحد وتسعين عامًا؛ حتى

استطاعت أن تستردَّ المسجد الأقصى، وتطرد الصليبيين من ديارها، حيث بقي المسجد الأقصى واحدًا وتسعين سنة بيد الصليبيين، لا يُرفع فيه أذان، ولا تُقام فيه جُمعة، ولا جماعة، حتى جاء آل زنكي، وبعدهم صلاح الدين، فطهروا البلاد من رجس الباطنيين، ثم خلصوا المسجد الأقصى من الصليبيين، واستمرت بعد ذلك الحملات الصليبيَّة على بلاد المسلمين، حتى استطاع المماليك فيما بعد طردهم من بلاد الشام كلها، كما سيأتي.

المبحث الثاني: الدولة الزنكية

تمهيد: ما إن وطئت أقدام الصليبيين بلاد المسلمين؛ حتى هبَّ المسلمون بقيادة السلاجقة لقتالهم، وتطهير بلاد المسلمين من رجسهم، وبدأت المعارك الإسلامية ضد الصليبيين من أرض الجزيرة الفراتية، التي كانت أول من اكتوى بنارهم، وقد استطاع السلاجقة أن يحققوا عدة انتصارات على الصليبيين، كان من أعظمها معركة: (حرَّان، وهرقلة الأولى، وهرقلة الثانية، وساحة الدم)، وغيرها من المعارك؛ وظلَّ المسلمون يقاتلون الصليبيين بقيادة السلاجقة إلى أن ظهر على ساحة الجهاد: عماد الدين زنكي، وبظهوره بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحروب الإسلامية الصليبيَّة.

عماد الدين زنكي

تولى عماد الدين زنكي إمارة الموصل عام (**521** هـ) وأدرك أنَّ الصليبيين يُريدون الاستيلاء على المنطقة كلِّها، وأن تواطؤ الباطنية معهم كان له أثرٌ كبيرٌ في تمكنهم من بلاد المسلمين، فوضع نصب عينيه تطهير بلاد الشام من رجسهم، وأخذ يعمل على ذلك، فنظَّم إمارته إداريًا وعسكريًا، وأسس جبهةً داخليةً متماسكةً؛ لتكون نواة دولة قوية تنهض بالأمة، وضم المدن والإمارات التي حوله إلى إمارته، وعمل على توعية المسلمين بخطر الباطنيين، ثم أخذ يُجابه الصليبيين عسكريًا.

رأى عماد الدين أنَّ الصليبيين لـمَّا قدموا بلاد الشام أقاموا لهم أربع إمارات، هي: الرها، وأنطاكيا، والقدس، وطرابلس، فعمل على تحرير الرها من الصليبيين، وكان له ذلك، ثم خاض معهم معارك عديدة، نتج عنها بعد سقوط الرها إرسالُ الصليبيين حملةً صليبيةً ثانية، لكنَّ المسلمين كانوا لها بالمرصاد، تصدوا لها وردُّوها، ففشلت الحملة الصليبيَّة الثانية، وزاد هذا النصرُ عمادَ الدين قوةً ومكانةً في أعين المسلمين، فعمل بعدها على توحيد الجبهة الإسلامية الداخلية وتقويتها، وكان من أعظم أعماله في ذلك نشر العلم، وتقريب العلماء؛ للتصدِّي للباطنية الذين توغلوا في بلاد الشام ومصر، والعراق والجزيرة العربية، الذين كان لهم الدور الأكبر في بقاء الصليبيين في بلاد المسلمين مدة طويلة، كما ذكر سابقًا.

نور الدين زنكي

جاء بعد عماد الدين زنكي ابنه: نور الدين محمود زنكي (ت: **569** هـ)، الذي جعل من عمر بن عبد العزيز قدوةً له في بناء دولة إسلامية، سار نور الدين على القواعد التي وضعها أبوه: عماد الدين زنكي؛ لتطهير البلاد من الباطنيين، ومن ثَم الصليبيين، وكانت خطة آل زنكي في ذلك: توحيد جبهة المسلمين الداخلية، وتطهيرها من الباطنية في الشام ومصر والجزيرة، فعَمِل نور الدين على بناء المدارس، وإصلاح الأراضي الزراعية، ووضع النُّظم العسكرية، فكان يبني الأمة بناءً عظيمًا ليصل إلى توحيد البلاد الإسلامية فيما بعد، وتطويق الصليبيين في القدس، بل وفي الساحل الشامي كُلِّه، ولقد أثمرت جهود نور الدين في بلاد الشام كلها؛ فتوحَّدتْ بلاد الشام على يديه بعد أن دخل دمشق، عام: (**549** هـ)، وتطهرتْ بلاد الشام على يديه من الباطنية، وبعدها توجَّه نور الدين إلى مِصر، وأرسل إليها عدة حملات عسكرية، حتى استطاع دخولها، بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي لم تدم ولايته عليها طويلاً، حيث عاجلته المنية بعد شهرين وخمسة أيام، ليخلفه عليها ابن أخيه: صلاح الدين الأيوبي.

صلاح الدين أميرًا على مصر

آلتْ وزارة نور الدين زنكي في مصر إلى صلاح الدين الأيوبي، وشعر الصليبيُّون بعد ذلك بخطورة موقفهم، فأرسلوا حملةً صليبيةً ثالثة على دمياط، لكنَّ صلاح الدين استطاع التصدي لها، ومن ثَم هزيمتها، بعد أن أمده نور الدين بالجيوش المتتابعة، وبعد هذا النصر العظيم؛ تفرغ صلاح الدين للتخلُّص من الدولة الفاطميَّة في مصر شيئًا فشيئًا، ووضع لذلك خطة مدروسة بالتعاون مع القاضي الفاضل: أبو الحسن عبد الرحيم البيساني (ت: **596** هـ)، بدأها بعزل القضاة الفاطميين، ثم ألغى الأذان بـ (حي على خير العمل)، وبعدها أمر أن يترضى في خطبة الجمعة على الخلفاء الراشدين الأربعة، ومن ثم الدعوة للخليفة العباسي فيها، وبعدها أعلن قطع الخطبة للفاطميين، كما أتلف الكتب الشيعية الفاطميَّة، وألغى الأعياد المذهبية للفاطميين، وأحيا قضية انتحال الفاطميين للنسب النبوي؛ ليهدم بذلك سندهم الشرعي المزيف في الخلافة، وعادت بذلك مصر على يدي صلاح الدين إلى حضن الأمة الإسلامية، وعمت الفرحة بلاد المسلمين كلها، وقد استطاع صلاح الدين أن يكشف المؤامرة الانقلابية التي قام بها الفاطميون في مصر بالتعاون من الصليبيين، ويقضي عليها، وهكذا توحَّدتْ بلاد الشام ومصر، وأطراف من العراق، وتحقق هدف مرحلي عظيم من أهداف نور الدين زنكي.

المبحث الثالث: الدولة الأيوبية
(569 - 661/1174 - 1263)

تحركات صلاح الدين بعد وفاة نور الدين

بعد وفاة نور الدين زنكي عام: (**569** هـ) انطلقت أطماع أمراء الدولة الزنكية من عقالها، وأخذ كلٌّ واحدٍ منهم يسعى ليستحوذ على نصيب من الدولة المترامية الأطراف، التي تركها نور الدين بعده، فاستولى صاحب الموصل: سيف الدين غازي على المدن التي حوله، حتى أضحت مدن الجزيرة الفراتية بيده، والتفَّ أمراء دمشق حول الملك الصالح: إسماعيل ابن نور الدين، البالغ من العمر (**11**) عامًا، وجعلوه أميرًا عليهم، واستقل ابن الداية وأخواه بحكم حلب وما حولها، كما استغل الفرنجة حالة الانقسام هذه فقاموا بمهاجمة حصن بانياس جنوب الجولان.

لـمَّا بلغ نعيُ نور الدين زنكي صلاحَ الدين في مصر؛ أقام له مجلس عزاء، مدة ثلاثة أيام، وجلس بعدها يرقب الحال التي آل إليها وضع أمراء البلاد بعد نور الدين، فأخذ يراسل جميعَ هؤلاء الأمراء، محتجًّا عليهم تارة، وناصحًا إيَّاهم تارةً أخرى، ولـمَّا لم تكلل مراسلاتُه بالنجاح، ورأى أنانية أمراء الشام، وسعيهم وراء مصالحهم الشخصية، ورأى أن صاحب حلب، الأمير ابن الداية، الذي يراه صلاح الدين أولى الناس برعاية الملك الصالح، وحماية دولته؛ لـمَّا رآه قد اعتُقل، وفُعل به ما فُعل، وأنَّ الفرنج قد استغلوا هذه الحالة التي آل إليها حال المسلمين، فأخذوا يهاجمون حصون المسلمين؛ لـمَّا رأى صلاح الدين كلَّ ذلك؛ قرر التدخل عسكريًا، وضم بلاد الشام وأطراف العراق إلى مصر، وقد وافقه الخليفة العباسي على ذلك، حيث كان يراه أهلاً لسدِّ الفراغ الذي تركه نور الدين بعده.

دخل صلاح الدين دمشق عام: (**570** هـ)؛ فاستقبله أهلُها استقبالاً طيِّبًا، وفتحوا له أبواب المدينة، ثم توجه شمالاً إلى حلب، وفي طريقه إليها ضم إليه حمص وحماة، ولـمَّا وصل حلب قام بحصارها، واستطاع ضمها إليه بعد مناورات ومكائد قام بها أميرها: كمشتكين، حيث قام الأخير بالاستعانة بالصليبيين، الذين قاموا بمهاجمة حمص، مما اضطر صلاح الدين لفك الحصار عن حلب، والرجوع لحمص، وبعد أن انتهى من أمر الصليبيين رجع فحاصر حلب، كما تحالف كمشتكين مع الشيعة الإسماعيلية؛ ليرد

صلاح الدين عن المدينة، فقدم لهم بعض التنازلات، ومنها إعادة الأذان بـ (حي على خير العمل) وبالمقابل قام الإسماعيلية بمحاولة اغتيال صلاح الدين، لكن محاولتهم باءت بالفشل، وبعد ذلك دخلت حلب تحت حكم صلاح الدين.

توجه بعد ذلك صلاح الدين إلى الموصل، واستطاع في طريقه أن يضم إليه كل المدن الفراتية، ثم قام بحصار الموصل مرارًا، ولكنه لم يستطع دخولها، حتى إذا ما تغيرت الظروف السياسية فيها، قام أميرها: عز الدين مسعود فعقد صلحًا مع صلاح الدين، أصبحت بموجبه الموصل تابعةً لصلاح الدين.

وبهذا استطاع صلاح الدين تحقيق الهدف المرحلي الأول من أهدافه، وهو توحيد الجبهة الإسلامية في مصر، وبلاد الشام والموصل، تحت زعامته، وكان قد ضم إليه سابقًا بلاد السودان، والجزيرة العربية واليمن، والمغرب الأدنى، ليصبح بذلك أقوى حاكم مسلم في المنطقة، ويصبح الصليبيون بذلك محاصرين، ليس أمامهم إلَّا البحر (البحر المتوسط) غربًا، وهنا تفرغ صلاح الدين لتحقيق هدفه الكبير، وهو تحرير القدس، وبقية البلاد من الغزاة الصليبيين.

معركتي الرملة وصفورية

بعد أن ضم صلاح الدين بلاد الشام، وأطراف العراق إلى مصر؛ أخذ يوجه ضربات عسكرية إلى الصليبيين، واستطاع هزيمتهم في عدة معارك، كما أنه تعرض أمامهم لهزيمة كبيرة، في معركة الرملة، جنوب فلسطين، سنة (**573** هـ) قتل فيها أكثر جيشه، وقد كانت هزيمةً لم يجبرها الله إلا بوقعة حطين، كما قال بعض المؤرخين، ولقد كانت تلك المعركة تجربةً قاسيةً لصلاح الدين، تعلم منها الكثير في معاركه التالية، وأدرك معها حقيقة تتعلق بهذه الجبهة مع الصليبيين، وهي طول خطوط الإمداد والتموين بين مركزه في القاهرة، وسهول فلسطين، ومنذ ذلك الحين قرر نقل مركزه الدائم إلى دمشق - بعد أن أعاد بناء قواته عسكريًا وسياسيًا - حيث خبرة قادتها أطول في مواجهة الصليبين، كما أن خطوط إمداده في معاركه قصيرة؛ مقارنة بها في مصر.

بعد أن انتقل صلاح الدين إلى دمشق أخذ يوجه الضربات العسكرية للصليبيين من جديد، وكانت الأحداث في بلاد الشام ومصر تجري بسرعة لمصلحته؛ وقد تمكن من

استغلال تلك الأحداث، وأنزل بالصليبيين خسائر فادحة، كان أعظمها ما تكبدوه من هزيمة نكراء، في وقعة صفورية[1] عام: (**583** هـ) حيث خسروا فيها الكثير من الأرواح والعتاد، وألقت هذه المعركة الرعب في قلوب الصليبيين، وكانت بحق باكورة البركات، ومقدمة للمعارك والانتصارات التي بعدها، وكان أعظمها معركة حطين، التي أخذ صلاح الدين يعد لها بعد هذا الانتصار.

بعد هزيمة الصليبيين في صفورية تجمعوا لقتال صلاح الدين من جديد، واجتمع لهم فيها جيش كبير، وقد كانت صفورية مكانًا ملائمًا للصليبيين، تمكنهم من الثبات أمام جيش صلاح الدين مدة طويلة، بل وهزيمته؛ وذلك لما يتوفر فيها من المراعي الخصبة، والمياه العذبة، وغيرها من الموارد الطبيعية اللازمة لذلك؛ لذا عمل صلاح الدين على استدراجهم منها إلى المكان الذي يحقق له النصر، وقد استطاع ذلك عندما قام بمهاجمة طبرية، التي ما إن سمع الصليبيون بمهاجمتها؛ حتى خرجوا للدفاع عنها بجيش عظيم، كان له صلاح الدين بالمرصاد، فما إن وصل جيش الصليبيين إلى طبرية متعبًا منهكًا عطشًا؛ حتى اشتبك معه جيش صلاح الدين، واستمر القتال حتى حجز الظلام بينهما، وقد حال صلاح الدين بجيشه بينهم وبين الماء.

معركة حطين

نزل الصليبيون في اليوم التالي إلى سهل حطين، قاصدين الوصول إلى ماء طبرية، وفيه دارت معركة حطين العظيمة، عام (**583** هـ) التي نصر الله فيها المسلمين على الصليبيين نصرًا عظيمًا، فقُتل فيها منهم خلقٌ كثيرٌ، وأُسِرَ فيها ملِكُهم، كما وقع عدد كبير منهم في الأسر، وقد ضرب المسلمون فيها أروع الأمثلة في الصبر والثبات أمام عدوهم، كما أظهر القائد صلاح الدين براعة عظيمة في قيادة جيشه إلى النصر، حيث استطاع أن يهزم الصليبيين نفسيًا قبل أن يهزمهم عسكريًا، وذلك عندما قام بالاستيلاء على صليبهم الأعظم، صليب الصلبوت[2]، وما إن تمكن من ذلك حتى حلَّ بالصليبيين البوار، وأيقنوا بالهزيمة والهلاك، وبعدها شدَّ المسلمون عليهم، حتى نزل نصر الله عليهم.

1- صفورية: قرية فلسطينية، تقع شمال غرب الناصرة، وهي إحدى بوابات الجليل الأدنى، سقطت بأيدي الاحتلال الإسرائيلي عام 1948، وأقيم مكانها مستعمرة (تسيفوري).

2- صليب الصلبوت: يعتقد النصارى أنه الصليب الذي صلب عليه المسيح.

خرَّ بعدها صلاح الدين شكرًا لله على نصره، ثم جيء له بالملك الأسير: جاي، وبالأمير: أرناط الذي كان قد نقض العهد مع المسلمين، وأقدم على مهاجمة قوافل الحجاج، وقتل منهم الكثير، وقال لهم: أين محمدكم ينصركم؟ وكان ينوي الاستيلاء على مكة والمدينة، فقال له صلاح الدين: هأنذا أنتصر لمحمد ﷺ، ثم قتله، وأعطى الأمان للملك جاي، ثم خير باقي الأسرى بين الإسلام والقتل، فأسلم بعضهم، وقُتل الباقون، ويعتبر ما فقده الصليبيون في هذه المعركة، من قتلى وأسرى من أفدح الكوارث التي حلت بهم، وآذنت بنهاية وجودهم في بلاد المسلمين.

كانت معركة حطِّين موطئةً ومقدمةً لفتح بيت المقدس، فبعدها توجَّه صلاح الدين لفتح الحصون والقلاع الصليبيَّة على شاطئ البحر المتوسط؛ ليطوِّق القدس بذلك، فسقطتْ بيده تباعًا، وأدرك الصليبيون أن وُجْهة صلاح الدين بعد ذلك هي القدس، فتحصَّنوا فيها، واستعدُّوا للقائه.

فتح بيت المقدس

توجَّه صلاح الدين إلى القدس في نفس العام (**583** هـ) وعرض على أهلها الصلح، وتسليمها دون قتال، لكنَّهم أبوا وتعنتوا، فأقسم ألا يدخلها إلا بحدِّ السيف، فحاصرها، وبدأتْ ضرباته إليها، ودام حصارها أيامًا، حتى إذا ما ضعف أهلها، وملُّوا القتال، وأيقنوا أنَّ المدينة ساقطة؛ عرضوا عليه الصلح كما طلب، فأبى إلَّا أن يبرَّ بقسمه، فخرج إليه قسيس من القساوسة، وكلَّمه في أن يدخلها صُلحًا مقابل دفع الجزية ممَّن قدر على دفعها، وأخذ البقية أسرى، وإلا فسيقتلون ذراريهم ونساءهم وأنفسهم؛ بعد أن يقتلوا من بأيديهم من أسرى المسلمين؛ فقبل صلاح الدين ذلك، وكفَّر عن يمينه، ثم دخل القدس سِلمًا بعد أيام من حصارها، وأخذ الجزية ممَّن قدر على دفعها من الصليبيين، ووقع الباقون في الأسر.

خرج هِرقل -عظيم الصليبيين - من القدس بخزائنه، وترك فقراء الصليبيين بيد صلاح الدين أسرى، لكنَّ صلاح الدين أحسن إليهم، ومَنَّ على أكثرهم، وضرب أروع الأمثلة في سماحة الإسلام، وحسن تعامله مع الأمم الأخرى، ومن ذلك أن أتتْ إليه نساء النصارى يبكين أزواجهنَّ وأولادهنَّ، فقال لهنَّ: مَن كان زوجها، أو ابنها في الأسرى، فهو حُرٌّ لوجه الله، ومَن مات زوجها، أو ابنها في الحرب؛ صرفنا لها مالاً يليق بأمثالها.

تقدَّم بطريق من بطارقة النصارى إلى صلاح الدين وقال له: ما يمنعك أن تنتقم ممَّن قتل المسلمين وأوقع بهم المجازر؟ فقال له صلاح الدين: يمنعني ديني الذي يأمرني بالوفاء بالعهد، واحترام المواثيق، وينهاني عن الغدر والخيانة، ديني الذي يأمرني أن أُحسن إلى من أساء إليَّ، ديني الذي يأمرني بمقابلة السيئة بالحسنة، فأسلم الرجل، ودخل عددٌ من النصارى في الإسلام؛ لـمَّا رأوا سماحة الإسلام وعدله، في شخص صلاح الدين، ولم يستطع المؤرخون النصارى أن يُنكروا هذه الشهامة من صلاح الدين، بل إن الكتَّاب الفرنسيين كانوا يقولون: إن صلاح الدين فيه دماء فرنسية، وأخذ الألمان والإنجليز يؤلفون القصص عن صلاح الدين، وينشرونها في قراهم ومدنهم، وصلَّى صلاح الدين شُكرًا لله على هذه النعمة التي امتن بها عليه وعلى الإسلام، وطهَّر المسجد الأقصى، والقدس من أدران النصارى، وأقام للمسجد الأقصى إمامًا وخطيبًا وقاضيًا، ثم أقيمتْ فيه أول صلاة جمعة، وعمَّتْ الفرحة والبهجة بلاد المسلمين بهذا النصر العظيم، وتابع بعد ذلك صلاح الدين فتوحاتِه في الشمال الشامي؛ إلى أن طلب منه الصليبيون عقد هدنة بينهم وبينه، فوافق على ذلك، وعاد بعدها إلى نحو الجنوب.

جاءت بعد هذا الانتصار العظيم حملة صليبية ثالثة، تعدُّ من أخطر الحملات الصليبية السابقة واللاحقة، عاش خلالها صلاح الدين وجنده تجربةً بالغة الشدة، وتحول بسببها من الهجوم إلى الدفاع، وأنجده في حربه هذه أمراء الجزيرة والموصل، الذين ترفعوا على خلافاتهم معه، مدركين خطورة الغزو الصليبي، واستطاع صلاح الدين بفضل تلك الإمدادات أن يفرض حصارًا على الصليبيين؛ حتى فشلتْ حملتهم أمام ضرباته، ولم تحقق سوى أهداف ضئيلة، كالاستيلاء على بعض المدن الساحلية، كان من أبرزها: مدينة عكا، وذلك بعد أن استسلم أهلها، وعقدوا اتفاقية مع الصليبيين، وقد استطاع الصليبيون في هذه الحملة أن ينقلوا عن المسلمين كثيرًا من العلوم والمعارف، والصناعات والفنون؛ التي كان لها أثرها البالغ في حضارة أوربا فيما بعد.

كان صلاح الدين قد سار في الناس سيرةً حسنةً، حتى استطاع تشكيل جبهة إسلامية موحدة، حيث أصلح من أحوال الناس المادية والاجتماعية، فرفع عنهم المكوس والضرائب، واهتم بالزراعة والصناعة، وبنى للناس المشافي، كما عمل جاهدًا على بعث الإسلام السني في نفوس أبنائه من جديد، فأكرم العلماء وقربهم منه، وأنشأ في بلاد الشام ومصر مدارس كثيرة، تُدرَّس فيها علوم الدين والدنيا، وأقام فيها كبار العلماء،

وأوقف عليها الكثير من الأرض والبساتين؛ لتقوم بنفقاتها، فكثرت لها الأوقاف، وعمَّ خيرها، حتى انتشرت المدارس في عهده انتشارًا واسعًا، وغدت بلاد الشام ومصر منارةً للعلم، يقصدها الطلاب والعلماء من شتى بقاع الأرض.

وفي صبيحة يوم الأربعاء (**27/2/589** هـ) توفي صلاح الدين، عن عمر يناهز الـ (**57**) عامًا، ودفن في الجامع الأموي بدمشق، فعليه رحمة الله.

المبحث الرابع: الأيوبيُّون بعد صلاح الدين

تمهيد: مات صلاح الدين الأيوبي، وترك بعده دولةً مترامية الأطراف، تشمل بلاد الشام، والجزيرة الفراتية، ومصر، والجزيرة العربية، وغيرها من البلاد، ولم يستطع أحد من أبنائه السبعةَ عشر، ولا من إخوته أن يسدَّ الفراغ السياسي والعسكري الذي تركه صلاح الدين؛ ولذا دخلت الأسرة الأيوبية بعده في خلافات ونزاعات على السلطة، ونتيجة هذا التشرذم والانقسام؛ عادت المنطقة إلى الوراء مرة أخرى، وتفككت عرى الدولة الإقليمية، التي جاهدت ثلاثة أجيال لإقامتها: عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وتطورت لذلك المشروعات الصليبية الأوربية وقويت، مستغلةً هذا الاضطراب بين الأمراء الأيوبيين، وأخذت تهاجم حصون المسلمين ومدنهم، وتستولي عليها، وانتهج الأمراء الأيُّوبيُّون معهم سياسة المهادنة، وردود الفعل، أكثر من المبادأة والمبادرة، وكانت هذه النزاعات والانقسامات من أسباب ضعف الدولة الأيوبية، وسقوطها فيما بعد.

الملك العادل

آل أمر الأيوبيين بعد الصراع على السلطة، إلى تولي الملك العادل، أخو صلاح الدين أمر البلاد في مصر والشام، ولم يستطع أن يسيطر على كل ما تركه صلاح الدين، وبعدها عمل العادل على توطيد أركان دولته، وإعادة الهيبة لها في أعين المسلمين، بل وفي أعين أعدائها الصليبيين، حيث هزمهم في معارك عدة، وفي زمانه جاءت الحملة الصليبية الرابعة والخامسة، وكانت وجهة الأولى القسطنطينية، حيث استولى الصليبيون عليها عام: (**602** هـ)، وأزالوا الإمبراطور البيزنطي من على عرشها، ونهبوا خيراتِها بشكل لا مثيل له في التاريخ، كاشفين عن طبيعتهم البربرية، وحقدهم المذهبي، وهم الذين حملوا شارة الصليب لخدمة المسيحية، ومحاربة المسلمين، فقتلوا من البيزنطيين ما يعسر إحصاؤه، بل لقد كان رجال الدين أشدَّ جند الصليبيين ضراوة ونهبًا، وكانت هذه أول مرة تسقط فيها القسطنطينية منذ أن بناها قسطنطين الأول عام: (**330** م)، وقد كان ذلك الاستيلاء من الصليبيين على القسطنطينية حماقة سياسية، وجرمًا لا ينسى، حرمهم مساعدة إخوانهم المسيحيين بعد دخولهم بلاد الشام، فبعد الاستيلاء؛ سار الصليبيون إلى بلاد الشام، وجرت بينهم وبين المسلمين معركة كبيرة في اللاذقية، هزموا فيها عزيمة منكرة، ووقع منهم خلق كثير في الأسر؛ فاضطروا

لعقد صلح مع الملك العادل، الذي كان يفضل السياسة السِلْميَّة مع الصليبيين، والحلول الدبلوماسية، أو التلويح باستخدام القوة، دون استخدامها فعليًّا!

أحدث استيلاء الصليبيين على القسطنطينية ونهبهم لها صراعًا داخليًا بين الأوربيين، انعكس على سير الحملات الصليبية، فبدلاً من توجيه الحملات إلى بلاد الشام، برزت مصر في حساب الغربيين، وبدأ الاتجاه العام في أوربا يتحول إلى مصر، كنقطة أولى في الطريق إلى القدس، بعد أن أدركوا أنها مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضد الصليبيين، فجهزوا حملة صليبية خامسة، جعلوا وجهتها دمياط في مصر، ولـمَّا وصلوا دمياط، وأخذوا يهاجمونها المرة تلو الأخرى، وهي تستعصي عليهم، بسبب متانة أسوارها، وثبات أهلها في الدفاع عنها، وقد كلفهم ذلك خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، حتى أدركوا أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليها، إلا بعد أن يستولوا على برج السلسلة، الذي هو بمثابة حصن وسط النيل، لحماية المدينة، وصد أي عدوان يقع عليها، فقاموا بمهاجمته مرارًا، برًا وبحرًا، حتى استطاعوا الاستيلاء عليه، وبعده استطاعت سفنهم أن تجتاز النهر إلى أسوار دمياط، وما إن بلغ الخبرُ الملكَ العادل حتى مات على إثرها، ليخلفه بعد ذلك ابنه: الكامل، قائد الجيوش الأيوبية في مصر.

الملك الكامل

بعد استيلاء الصليبيين على برج السلسلة؛ أدرك الكامل صعوبة الموقف في مصر، ورأى أنه لا قبل له بقتال الصليبيين، الذين أخذت تتدفق عليهم الإمدادات من الغرب، رجالاً وسلاحًا ومؤنًا؛ فعرض عليهم الصلح، على أن يتنازل لهم عن القدس، وعن كل الأراضي والمدن التي كانت بأيديهم قبل معركة حطين، لكنَّ عرضه هذا لم يلق قبولاً من الصليبيين، ولا شك أنَّ الكامل كان متساهلاً جدًا عندما قدَّم هذا العرض المغري للصليبيين، وبعد رفض الصليبيين الصلح مع الكامل؛ أخذ الكامل يجهز الجيوش للتصدي للصليبيين الذين أحكموا الحصار على أهل دمياط، فقلت عندهم المؤن، وارتفعت الأسعار، وعمَّ الجوع، فضعفت لذلك حاميتها عن الدفاع عنها، وتعذر على الكامل إمدادها بالرجال والمؤن، لتسقط دمياط، عام: (**616** هـ) بعد تسعة أشهر من الحصار، فدخلها الفرنج بعد أن أعطوا أهلها الأمان، لكنهم سرعان ما غدروا بهم، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسرًا، ولقد صار الغدر سمةً من سمات الصليبيين، سواء في بلاد الشام، أم في مصر، وجعل الصليبيون دمياط بعد ذلك دارَ هجرتهم، فأخذ عددهم يزداد فيها يومًا بعد يوم.

كان وقع سقوط دمياط على المسلمين عظيمًا، وازداد بعده موقف الكامل حرجًا وتأزمًا، لكنه لم يستسلم لذلك، بل أخذ يخطط من جديد للتصدي للصليبيين، فأرسل إلى الخليفة العباسي يحثه على الدعوة للجهاد، وطلب من أخيه المعظم أن يهاجم معاقل الصليبيين في بلاد الشام، كما أخذ يجند المزيد من الجنود، استعدادًا لمعركة حاسمة مع الصليبيين، اختار هو مكانها، وبنى فيها قلعة عظيمة، أطلق عليها اسم: المنصورة، وظل مرابطًا فيه.

أصاب الصليبيين الغرور والعظمة بعد استيلائهم على دمياط، فقرروا التوجه بعدها إلى القاهرة، والاستيلاء عليها، وتجهزت قواتهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين، وما إن علم الكامل بوجهة الصليبيين حتى استعد لهم أيما استعداد، واجتمع عنده من القوات ما قدِّر بـ (**40**) ألف فارس، خاضوا مع الصليبيين معركة المنصورة، وانتصروا فيها انتصارًا عظيمًا، أجبر الصليبيين على طلب الصلح، مقابل تنازلهم عن دمياط، وخروجهم من كامل مصر، فقبل الكامل ذلك، وسلمت دمياط إلى المسلمين، عام: (**618** هـ) وكان يومُها يومًا عظيمًا من أيام الإسلام، وخرج بعده الفرنج من مصر، وفشلت بذلك الحملة الصليبية الخامسة، فشلاً ذريعًا.

عظم شأن الملك الكامل في أعين المسلمين بعد هزيمته الصليبيين، واسترداده دمياط، واكتسب احترام العالم الإسلامي كله، وفرض سلطانه على الممالك الأيوبيَّة، وظن بذلك أنَّ الأمراء الأيوبيين سيدخلون تحت طاعته، لكن؛ ما إن زال الخطر الصليبي عن مصر حتى عاد الأمراء الأيوبيُّون إلى سالف عهدهم، وانبعثت الخلافات والنزاعات بينهم من جديد، فخرج المعظم في الشام عن طاعة أخيه الملك الكامل، وأخذ يعمل لتوسيع ممالكه، فتحالف مع الخوارزميين لتحقيق ذلك؛ مما دفع الملك الكامل لمراسلة الامبراطور البيزنطي؛ ليمدَّه بقوة عسكرية، تضعف من قوة أخيه المعظم، على أن يمنحه الكاملُ بيتَ المقدس، والمدنَ الساحلية التي فتحها صلاح الدين، ولقد كان الملك الكامل ينظر إلى بيت المقدس على أنَّه عبءٌ ثقيلٌ، لا بدَّ من التخلص منه، لذلك كان كثيرًا ما يعرضه على الصليبيين إن أحس بالخطر يهدد مركزه، وكأنه جاريةٌ في سوق النخاسة، متناسيًا بذلك أنهار الدماء التي جرت لتخليصه من أيدي الصليبيين، بقيادة عمه صلاح الدين.

كانت البابوية تضغط على الامبراطور فردريك الثاني للقيام بحملة صليبية سادسة، تصلح الوضع الذي نجم بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، فلاقى استنجادُ الملك الكامل به قبولاً وترحابًا، وأوجد له الدافع الذي يخرج من أجل تحقيقه، فجاء الامبراطور بحملة صليبية سادسة إلى بلاد الشام، وفي هذه الأثناء كان الملك المعظم قد مات، وزال بموته السبب الذي حمل الكامل على الاستنجاد بالإمبراطور، وهنا وقع الكامل في حيرة فيما يفعله أمام هذه الحملة، فهو الذي ألحَّ على الامبراطور بالمجيء، كما أن الامبراطور كان قد طُرد من الكنيسة؛ لخلاف بينه وبين البابوية، فلم تبارك الكنيسة حملته، كما أنه لم يأت بقوة عسكرية كبيرة، تستطيع قتال المسلمين، فجرت بينه وبين الكامل مراسلات، طلب فيها من الكامل تسليمه بيت المقدس كما وعده، وألحَّ على الكامل في ذلك، وبكى بين يديه، واستمرت المراسلات بينهما حتى آتت أكلها، وتنازل له الكامل عن بيت المقدس، بعد توقيع صلح بينهم، عرف بصلح يافا عام: (**626** هـ) وسلمت بعدها القدس للصليبيين، ودخلها الامبراطور فردريك الثاني.

أغدق الكامل بعد ذلك على الأمراء الأيوبيين الأموال الكثيرة؛ ليتستروا على تسليم بيت المقدس للصليبيين، وتفريطه به، وقال لهم: "إنِّا لم نسمح للصليبيين إلا بالكنائس، والمسجد ما يزال على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم بالأعمال والضياع"، لكنَّ هذا الفعل الشنيع منه أثار حفيظة المسلمين، وعدوه تفريطًا عظيمًا منه بحق الإسلام والمسلمين.

ولقد كان الملك الكامل قد أمر قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين ألا يصعدوا المنابر، ولا يؤذنوا في الحرم، فعيرهم الامبراطور بذلك، وعابه عليهم، وقال لهم: تغيِّرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون به عندنا، وكان مما قاله: والله إنَّه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين، وتسبيحهم في الليل.

لم يعجب هذا الصلح الأوربيين، الذين يرون أنَّ القدس لا تؤخذ إلا بحدِّ السيف، لا بالبكاء والاستعطاف، كما فعل الامبراطور، ثم ما لبثت هذه الاتفاقية أن حظيت بقَبول الجميع؛ بعد أن صالح الامبراطور البابا، ورُفع عنه حرمان الكنيسة، فأخذت الاتفاقية طريقها، بوصفها واقعة تاريخية، قبل بها الجانبان، وأصبحت نقطة تحول في التفكير

العالمي، فظهر أنصارها يدعون إلى السلام، وحل الخلافات عن طريق المفاوضات، كما فعل الامبراطور فردريك، وقد ظلَّت القدس بأيدي الصليبيين؛ إلى أن استردها منهم: الناصر داود، عام: (**637** هـ).

تفرغ الكامل بعد عقد هذا الصلح لتصفية خلافاته الداخلية مع الأمراء الأيوبيين؛ لتوطيد أركان دولته، وقد تمَّ له كلُّ ذلك؛ ولكنه كان نجاحًا مرحليًّاً، اهتزَّ عند أول خضة سياسية واجهت الأيوبيين؛ فما إن مات الكامل عام: (**635** هـ)؛ حتى عادت بوفاته الخلافات إلى البيت الأيوبي من جديد، وكانت وفاته نذيرًا بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها، حيث وصلت الخلافات بين الأيوبيين حدًّاً أبعد مما كانت عليه بين الكامل وأخيه المعظم، فقد احتدم الصراع بين صاحب مصر، نجم الدين أيوب، ابن الملك العادل، وعمه صاحب دمشق، الصالح إسماعيل؛ فتحالف الصالح إسماعيل، وصاحب حمص إبراهيم الأيوبي، مع الصليبيين، ضد نجم الدين في مصر، وتعهدوا لهم مقابل ذلك أن يعطوهم بيت المقدس، ويعيدوا لهم مملكة الصليبيين، على ما كانت عليه قديمًا، بما فيها الأردن؛ فثار المسلمون في مصر والشام على الصالح إسماعيل، ورفضت بعض حاميات الجيش أوامره، وانضمت إلى جيش نجم الدين في مصر، وسارع الصليبيون فاستولوا على بيت المقدس، واتجهوا بعده إلى غزة، ثم خرج الصالح إسماعيل، وصاحب حمص بجيش كبير لغزو مصر، فانشقت الحامية الشامية عن الصالح إسماعيل، ومالت مع جيش مصر على الصليبيين، فهزموهم هزيمة عظيمة، وعرفت هذه المعركة بمعركة حطين الصغرى، أو الثانية.

هكذا أدى النزاع بين الأيوبيين إلى التفريط مرة أخرى ببيت المقدس، فدخله الفرنج ثانيةً، وعبثوا بمقدساته، ودنسوا الصخرة، وأبطلوا الأذان والإقامة في المسجد الأقصى، وأعلنوا فيه بالكفر؛ مما اضطر نجم الدين أيوب إلى الاستعانة بالخوارزميين[1]، الذين استطاعوا استرداد بيت المقدس من الصليبيين، عام: (**642** هـ) وطردهم منه، ثم توجهوا بعدها إلى مصر، واتحدوا مع جيش نجم الدين في مصر، وخاضوا مع الحلف الشامي الصليبي في غزة معركة عظيمة، هزموهم فيها هزيمة نكراء، وذلك عام: (**642** هـ).

1- الخوارزميون: مسلمون أتراك، كان لهم دولة كبيرة في خوارزم، سقطت على يد المغول عام: (628 هـ)، تفرقوا بعدها في البلاد، فمنهم من ذهب إلى سلاجقة الروم، ومنهم من أوى إلى الأيوبيين في مصر، استعان بهم نجم الدين صاحب مصر؛ فاستطاعوا استرداد بيت المقدس من الصليبيين.

استطاع نجم الدين أيوب بعد معركة غزة بسط سيطرته على غزة والقدس، وعلى غيرها من المدن، وتوجيه ضربات موجعة للصليبيين، ثم انقلب عليه الخوارزميون، الذين ظنوا أن نجم الدين سيقاسمهم الغنائم، ويشاطرهم الملك، لكنه منعهم من دخول دمشق، وأعطاهم مدن الساحل فقط، فتغيرت نيَّاتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعته، فأعلنوا الثورة عليه، وتحالفوا مع أعدائه، لكنه بفضل ذكائه وحيلته؛ استطاع القضاء عليهم.

عمل نجم الدين بعد ذلك على تقوية علاقاته بالخلافة العباسية، وتطوير جيشه تطويرًا كبيرًا، واهتم بشراء المماليك والغلمان الأتراك اهتمامًا كبيرًا، وأدخلهم في الجيش، حتى أصبح العنصر التركي هو الغالب على الجيش الأيوبي، لتختفي بذلك العناصر المكونة للجيش الأيوبي، من البربر والسودان، وسرعان ما شكل هؤلاء الأتراك المماليك نواةً عسكرية سياسية نشطة، تحولت فيما بعد إلى دولة، نهضت بدور خطير في تاريخ مصر السياسي، لما يزيد على قرنين ونصف.

الحملة الصليبية السابعة

بعد انتصار الصالح: نجم الدين أيوب على التحالف الصليبي الشامي، بالتعاون مع الخوارزميين، في معركة غزة، وبسط نفوذه على القدس، وبلاد الشام؛ شعر الصليبيون بعدها في أوربا بتعاظم قوة المسلمين في المشرق؛ فقاموا بإرسال حملة صليبية سابعة إلى المشرق الإسلامي، جعلوا على قيادتها الملك الفرنسي: لويس التاسع، وكانت وجهتها مصر، وبعد أن وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى قبرص، وبقيت فيها ثلاثة أشهر؛ استطاع الصالح نجم الدين أيوب معرفة تحركاتها وخططها؛ فاستعدَّ لها أيما استعداد، كما أنه في هذه الحملة جرى اتصال بين الصليبيين والمغول؛ لاحتلال بيت المقدس، لكن هذه المراسلات لم تفلح، فتحركت الحملة إلى مصر، ورست قبالة مدينة دمياط، واستطاع الصليبيون الاستيلاء عليها عام: (**647** هـ) رغم ما قام به الأيوبيُّون من تحصين سابق لها.

بعد ذلك قرر الصليبيون الزحف إلى القاهرة، وكان المسلمون بقيادة تورانشاه -الذي خلَف أباه نجم الدين أيوب بعد وفاته- قد تمركزوا في المنصورة، مقبرة الصليبيين، وفيها جرت بينهم وبين الصليبيين معركة عظيمة، انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة، ووقع فيها لويس التاسع أسيرًا بيد المسلمين؛ مما اضطرهم لعقد صلح مع

المسلمين، مدته عشر سنين، ينسحبون بموجبه من دمياط، وفشلت بذلك الحملة الصليبية السابعة.

لم يكن تورانشاه رجل الساعة المطلوب، بل كان رجلاً عابثًا، جاهلاً بأمور الحكم والسياسة، اغترَّ بانتصاره على الصليبيين، ولم يقدر للمماليك موقفهم معه، وبلاءهم مع أبيه من قبل ضد الصليبيين؛ فتآمر عليه المماليك وقتلوه، وبموته عام: (**648** هـ) على يد المماليك انقضت دولة الأيوبيين، التي دامت (**81**) عامًا، وآل أمر البلاد بعدها إلى المماليك.

لقد اجتمعت عدة أمور، كانت سببًا في زوال الدولة الأيوبيَّة، من أهمها: نقص الفقه الحركي لدى الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين، إذ لم يكن عندهم استراتيجية واضحة في رسم سياسية الدولة، أو مشروعًا حضاريًّاً، يواكب تطورات العصر العلميَّة والتربويَّة، والثقافيَّة والحضاريَّة، ويجدد حيويَّة الدولة، ويضع أهدافها، لذا غلبتهم الظروف والتحديات، وآذنت بزوالهم.

الفصل السادس:
دولتي المرابطين والموحدين

المبحث الأول: دولة المرابطين

المبحث الثاني: دولة الموحدين

المبحث الأول:
دولة المرابطين (448 - 540 هـ/1056 -1145 م)

كان العالم الإسلامي عند ظهور المرابطين يعيش ظروفًا سياسية حرجة، فملوك الطوائف في الأندلس منقسمون على أنفسهم، والسلاجقة يحكمون بغداد، حيث أمر الخلافة فيها مهتزٌّ، والعبيديون في مصر قد تحالفوا مع الفرنجة الصليبيين؛ لأجل مصالحهم وأطماعهم، وكان المغرب مقسمًا إلى دويلات مفككة؛ في هذه الظروف الصعبة شاءت حكمة الله وقدرته، أن تخرج دولة المرابطين السُّنيَّة؛ لتوحِّد المغرب وتطهِّره من آثار العبيديين، وتكون سدًا منيعًا أمام أطماع النصارى في الأندلس، وتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم.

قامت دولة المرابطين جنوب المغرب الأقصى، بزعامة الفقيه: عبد الله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم، ثم توسعت حتى شملت المغرب الإسلامي كله، وبلاد الأندلس، وذلك بعد معركة الزلاقة، عام: (**479** هـ) بقيادة القائد الكبير: يوسف بن تاشفين، وفي مطلع القرن السادس الهجري، بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين، لا سيما بعد ظهور دعوة محمد بن تومرت (ت: **524** هـ) في المغرب الأقصى؛ لتسقط علي أيدي أتباعه الموحدين؛ بعد قتل أميرها: إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين[1].

يرجع نسب المرابطين إلى قبيلة لمتونة الصنهاجية، أكبر قبائل المغرب الإسلامي، وأكثرها انتشارًا، سكنت قبائل صنهاجة الشمال الإفريقي، جباله وسهوله، وكانت تعتمد الزراعة، وتربية المواشي مصدرًا للرزق، وقد كانت آثار العبيديين راسخةً في نفوس كثير من أبنائها، فانتشر بينهم الجهل، وكثرت فيهم العادات الجاهلية المستقبحة وتفشت، كالزنى والزواج بأكثر من أربع نسوة، وغيرها من العادات، حتى خرج أحد أمرائها؛ يحيى بن إبراهيم (ت: **440** هـ)؛ قاصدًا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم الشرعي، فساقته أقدار الله إلى مدينة القيروان، ورمت به في حلقة إمام أهل المغرب في زمانه، الإمام: أبو عمران الفاسي (ت: **430** هـ)، فحدَّثه الإمام عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وضرورة العمل على تغييرها، وبعث الإسلام في

1- ينظر: الصلابي، علي الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين (بيروت: دار المعرفة، ت، ط: 1432، ط: 4) ص: 259.

نفوس أهلها من جديد، فطلب منه الأمير: يحيى بن إبراهيم أن يبعث معه من يعلم قومه الإسلام؛ فأرسله أبو عمران إلى بلاد السوس أقصى المغرب، حيث تلميذه الشيخ: وجاج بن زلوا اللمطي (ت: **445** هـ)، وبعد أن وصل إليه؛ أرسل معه الشيخ وجاج: الفقيه عبدَ الله بن ياسين (ت: **451** هـ)، يعلم الناس الإسلام[1].

واجهت عبدَ الله بن ياسين صعوبات كثيرة في دعوة تلك القبائل، حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وقد ترك أكثرهم الصلاة، وانحرفوا عن العقيدة الصحيحة، وتلوثت أخلاقهم وفسدت، فصبر على ذلك وصابر، حتى أخذت دعوته تثمر فيهم، لكنَّ الله ابتلاه ببعض قساة القلوب، ممن تتعارض مصالحهم وأطماعهم مع دعوته؛ فضيقوا عليه وشددوا، وهموا بقتله؛ فأشار عليه الأمير: يحيى بن إبراهيم أن يتخذ لنفسه رباطًا في جزيرة بنهر السنغال، يربي فيها أصحابه ويعلمهم، فعمل بتلك المشورة، فهرع إليه الرجال، وأخذ ابن ياسين ينظمهم، ويحضرهم للمرحلة المقبلة التي يريد[2].

أنهى ابن ياسين بدعوته القبائل المرحلة الأولى من مراحل دعوته، وهي التعريف بالإسلام وشرائعه، وبدأ في رباطه المرحلة الثانية، وهي مرحلة التكوين، فربى مريديه على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، حتى حملوا الإسلام بصدق، ومن ثمَّ أصبحوا دعاتِه، فأخذ يرسلهم إلى قبائلهم، يعلمونهم الإسلام وسننه، ولـمَّا لم تستجب لهم قبائلهم؛ خرج إليهم ابن ياسين بنفسه، مُبتدِأً بذلك المرحلة الثالثة من مراحل دعوته، وهي مرحلة التنفيذ، فجمع شيوخ القبائل، ووعظهم وذكرهم، فلم يستجيبوا له؛ فأعلن الجهاد عليهم وقاتلهم؛ حتى أخضعهم له، فبايعوه بعدها، ودخلوا تحت لوائه، وبذلك أصبح للقبائل الصنهاجية في المغرب الأقصى؛ قيادة دينية وسياسية، لها مجالس شورى، تدير دفتها وحركتها، وتتطلع لضم المغرب الأقصى كله تحت قيادتها، وتزيل كل عائق يمنعها من تحكيم شرع الله تعالى.

أخذ ابن ياسين بعد ذلك يتوسع في المناطق المحيطة به، ينشر دعوته، وأخذت بعض القبائل تراسله للقدوم إليها، وكتب إليه فقهاء سجلماسة ودرعة، يرغبونه في الوصول

1- ينظر: بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، 1993) ص: 9.

2- الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: 27.

إليهم، وتخليصهم من ظلم الدولة الزناتية[1]، فسار إليهم، بقيادة الأمير: يحيى بن عمر اللمتوني، وضم بلادهم إلى دولته الناشئة، ثم توجه بعدها إلى بلاد السوس، فضمها إليه أيضا، بعد أن أُسندت قيادة الجيش إلى القائد الكبير: يوسف بن تاشفين، المؤسس الفعلي لدولة المرابطين، وقائد مرحلة التمكين، وكان هذا الإسناد أول ظهور حقيقي ليوسف بن تاشفين، على ساحة الأحداث في المغرب الأقصى، بعدها سار عبد الله بن ياسين إلى أرض برغواطة[2]، ونشبت بينهم معارك حامية الوطيس، أثخنت في جنود الدولة البرغواطية، وفرقت جموعهم، وكسرت شوكتهم؛ حتى أعلنوا الطاعة والولاء للمرابطين، وقد كان الشيخ عبد الله بن ياسين، قد أصيب في هذه المعارك، بجراح بليغة، أودت بحياته إلى الشهادة، وذلك عام: (**451** هـ) فعليه رحمات الله ورضوانه، واستمر بعده المرابطون يتوسعون في المغرب الأقصى، واختاروا مراكش عاصمةً لهم.

يوسف بن تاشفين (ت: 500 هـ)

آل أمر المرابطين إلى القائد الكبير: يوسف بن تاشفين، الذي ترعرع وتربى على تعاليم الفقيه: عبد الله بن ياسين، وكان قائدًا من قواد المرابطين، يتلقى الأوامر وينفذها بكل نجاح، ويطَّلع على خفايا السلطة، دون تحمُّل مسؤوليتها؛ فشحذت تلك المرحلة ذهنه، وأهلته للمراحل التالية، واستطاع بعد تسلم قيادة المرابطين؛ أن يقودهم من نصر إلى نصر، حتى شملت دولتهم المغربَ الإفريقيَّ كله، وبلاد الأندلس.

تابع يوسف بن تاشفين ضم بلاد المغرب إلى دولته، وتم له ذلك بعد جهادٍ استمر ثلاثين سنة، لينهيَ بذلك مرحلة التنفيذ، المرحلة الثالثة من مراحل دولة المرابطين، التي رسم خطوطها الفقيه: عبد الله بن ياسين، وينتقل إلى مرحلة التمكين في الأرض، المرحلة الرابعة من مراحل الدولة، فأخذ يطوف على قبائل المغرب، يتابع الأمراء، ويحاسب الولاة، وينشر العدل، ويرفع الظلم، حتى هابه الناس، وأيقنوا أنهم أمام قائد عبقري فذٍّ، لا يستهان به.

1- قامت الدولة الزناتية في المغرب بعد زوال دولة الأدارسة، واشتهر حكامها آخر زمانها بالجور والظلم، ينظر: العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس (بيروت: دار النهضة العربية، د ط، د. ت) ص: 288.

2- البرغواطية: إحدى الدويلات التي قامت في المغرب الأقصى، كانت متأثرةً بتعاليم اليهود المنحرفة، وببعض التعاليم الإسلامية، استمرت منذ عام: (125 هـ) إلى أن قضى عليها المرابطون، منتصف القرن الخامس الهجري، قاسى أهل المغرب بسببها محنة كبيرة، ينظر: العبادي، في تاريخ المغرب، مصدر سابق، ص: 278.

أصبحت بعد ذلك دولة المرابطين، حصنًا أمينًا للمسلمين، وملاذًا آمنًا للمظلومين، وقوةً تشكل خطرًا على النصارى في الأندلس، بعد أن استفحل خطرهم فيها وعمَّ، أمام انقسام ملوك الطوائف فيها وضعفهم؛ مما حمل يوسف بن تاشفين على دخولها، وضمها إلى دولته.

يوسف بن تاشفين ودخوله الأندلس

بعد سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين، عام: (**132** هـ)؛ استطاع عبد الرحمن الداخل الأموي الهروب إلى الأندلس، وتأسيس إمارة أموية فيها، عام: (**138** هـ)، ثم بعد ضعف الخلافة العباسية في بغداد، وسيطرة العبيديين على بلاد المغرب، وإعلانهم الخلافة الفاطمية فيها عام: (**298** هـ)؛ أعلن الأمير الأموي في الأندلس: عبد الرحمن الناصر قيام الخلافة الأموية فيها، وذلك عام: (**316** هـ)، وبعد أن نخرت هذه الخلافة الأحقاد والأطماع، والصراعات الداخلية؛ انقسمت الأندلس، وتفرقت إلى دويلات متناحرة؛ ليبدأ فيها عصر ما عُرف: بـ (عصر الطوائف)، وذلك عام: (**400** هـ)، ويدوم إلى عام: (**484** هـ).

قامت في الأندلس في عصر الطوائف أربع دويلات هي: مالقة في الجنوب ويحكمها الأدارسة. وإشبيلة في الغرب ويحكمها بنو عباد أقوى ملوك الطوائف. وطليطلة في الوسط ويحكمها بنو ذي النون، الذين تحالفوا مع ملك قشتالة النصراني ودفعوا له الجزية. وبلنسية ومرسية في الشرق ويحكمها بنو عامر. ووقعت بين حكام هذه الدويلات خلافات كثيرة، جعلت القويَّ منهم يبطش بالضعيف، والضعيفَ يتحالف مع النصارى؛ يدرأ عنه خطر القوي؛ فاستغل هذا الانقسام ملك قشتالة، ألفونسو السادس، وانطلقت لذلك أطماعه من عقالها؛ فعمل على توحيد جهود النصارى، وسحق دولة الإسلام في الأندلس، واستطاع أن يستولي على طليطلة، وعلى غيرها من المدن الإسلامية حولها، ويعيث فيها قتلاً وتدميرًا، حتى تداعى علماء قرطبة وفقهاؤها، أمام هذا الضياع المفزع لممالك الإسلام في الأندلس، وأجمعوا على استدعاء المرابطين، الذين تربطهم بهم علاقات صداقة ومسالمة؛ فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين بذلك، لتبدأ بينهم وبين المرابطين مرحلة التحالف والتعاون[1].

1- ينظر: شوقي، شوقي أبو خليل، معركة الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين (دمشق: دار الفكر، ط 2، 1980) ص: (12 -21).

معركة الزلاقة (479 هـ)

حظي نداء أهل الأندلس بقبول يوسف بن تاشفين؛ فعبر بجيشه البحر لنجدتهم، ولما وصلها أخذ يراسل ملوكها وأمراءها؛ يستنفرهم للجهاد، فلبوا نداءه، وخرج إليه بعضهم برجاله وماله، وبعضهم أرسل بعض كتائبه تقاتل معه، وبقي الآخرون يقاتلون النصارى ويدفعونهم؛ فسار يوسف بن تاشفين بجموع المتطوعين، حتى وصل سهل الزلاقة، قريبًا من بطليوس، وهناك أخذ ينظم جيشه؛ استعدادًا للمعركة القادمة مع النصارى.

أزعج مجيء المرابطين ألفونسو، وشعر بعودة الروح المعنوية لأهالي الأندلس، الذين كان يسومهم العذاب الشديد، بقيادته حملةً صليبيةً شرسةً ضدهم، باركتها كنيسة روما، ودعمته بالجنود والعتاد والأموال؛ فاستنفر ألفونسو نصارى الأندلس كلهم لقتال المرابطين، وجنَّد كلَّ من يستطيع حمل السلاح منهم، صغيرًا كان أم كبيرًا، وخرج بجيش كبير لملاقاة المرابطين، قوامه أكثر من (60) ألف مقاتل، تتقدمه جموع الرهبان والقسيسين، يرفعون الإنجيل والصلبان؛ لإذكاء الحماس في نفوس الجنود.

قبل بدء المعركة جرت مراسلات بين ألفونسو ويوسف بن تاشفين، دعاه فيها يوسف إلى الإسلام، فلم يقبل ذلك ألفونسو، بل اشتاط غضبًا وحقدًا، وثار لذلك حِنْقُه على المسلمين، فهدَّدهم وتوعَّدهم، مختارًا بذلك الحرب، فكانت معركة الزلاقة، التي أبلى فيها المسلمون بلاءً عظيمًا، بقيادة الشيخ: يوسف بن تاشفين، البالغ من العمر (79) عامًا، قدموا خلالها تضحيات جسيمة، وسقط منهم الكثير من الشهداء، وزلزلوا فيها زلزالاً شديدًا أمام ضربات النصارى الحاقدة؛ حتى ظن ألفونسو أن النصر أصبح حليفه؛ ولكن براعة القائد يوسف القيادية، وخبرته الحربية غيرت مجرى المعركة لصالح المسلمين، وتمكن من الالتفاف على جيوش ألفونسو، ومباغتة معسكرهم من الخلف، وإبادة حراسهم، وإحراق خيامهم؛ حتى هلعت قلوب النصارى؛ خوفًا مما رأوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا، وأنزل الله نصره على المسلمين، بعد أن قتلوا آلاف الجنود من النصارى، وأصابوا قائدهم ألفونسو، إصابةً غير قاتلة، وانتهت المعركة بهزيمة تعيسة للنصارى.

لقد كان انتصار المسلمين في الزلاقة؛ انتصارًا لا يقلُّ أهميةً عن انتصارهم في

القادسية وحطين، وغيرها من معارك الإسلام الكبيرة، التي غيرت مجرى التاريخ، انتصارًا فتك في عضد النصارى، وحطم كبرياءهم، وقضى على أحلامهم في الاستيلاء على الأندلس، انتصارًا أخَّر سقوط الأندلس بأيديهم أكثر من (**300**) عام، رفع الله به مكانة المرابطين، وقائدَهم يوسف بن تاشفين في أعين المسلمين، وفي الأندلس والمغرب، وفي غيرها من ديار المسلمين، وأظهر وهن ملوك الطوائف في الأندلس وضعفهم، ومهَّد لزوالهم على أيدي منقذيهم، فيما بعد.

وكان من أهم أسباب انتصار المرابطين في الأندلس، وتمكين الله لهم في الأرض؛ ما أقاموا عليه دولتهم، من تحكيم شرع الله فيها، ورفع راية الجهاد في سبيل الله بصدق، ونشر العدل بين الناس، ورفع الظلم عنهم.

وبعد هذا الانتصار العظيم؛ ترك يوسف بن تاشفين غنائم المعركة لأهل الأندلس، ولم يأخذ منها شيئًا، ثم دعا أمراءها، وحضهم على الاجتماع والاتحاد، ضد عدوهم المشترك، وحذَّرهم التفرق والاختلاف، ثم قفل عائدًا إلى المغرب؛ بعد أن ترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي؛ للدفاع عن ثغور الأندلس، جعل على قيادتهم: سير بن أبي بكر[1].

واصل سير بن أبي بكر غاراته على النصارى؛ بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب، واستطاعت قواته أن تثخن فيهم، كما وجَّه المعتمد بن عباد في هذه المرحلة ضربات موفقة للنصارى، استطاع بها دحرهم، ثم توجه إلى مرسية، التي تجمَّع قربها النصارى وتحصنوا، ولكنَّ المعتمد لم يستطع دخولها، وتركها لمصيرها، وأخذت قوات النصارى تتجمع من جديد حول ألفونسو؛ الذي لم يمضِ عامٌ على هزيمته في الزلاقة؛ حتى استعاد لجيشه قوته ونشاطه، وأخذ يُغير على أهل الأندلس من جديد، بارك حملته هذه بابا الفاتيكان، وسانده فيها بعض أمراء الأندلس بأموالهم، كابن رشيق صاحب مرسية، فتأذى أهل الأندلس منهم كثيرًا، فأرسلوا إلى يوسف بن تاشفين في المغرب، ومعهم المعتمد بن عباد؛ ليخلصهم من ظلم النصارى، وتآمر بعض أمرائهم معهم.

فعبر يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس مرةً أخرى، وذلك عام (**481** هـ)، وأقدم على حصار حصن (لييط) الذي تحصن فيه عدد كبير من جنود النصارى، وظهر له في

1- ينظر: شوقي أبو خليل، الزلاقة، مصدر سابق، ص: 39، 47.

الحصار خيانة ابن رشيق لجيش المرابطين، فاضطر ابن تاشفين لرفع الحصار، والرجوع إلى المغرب، وقد اطَّلع خلال عبوره ذلك على خيانات أمراء الأندلس ونزاعاتهم، تلك النزاعات التي كانت سببًا في ضعفهم، وتمرد النصارى عليهم؛ فأيقن أنهم لا يصلحون للحكم، ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوعه إلى المغرب؛ عرض أمر الأندلس وما آل إليه حال أمرائها على الفقهاء والعلماء، فأفتوا له بضرورة ضم الأندلس إلى المغرب، وكتب الإمام أبو بكر بن العربي (ت: **543** هـ) إلى الإمام الغزالي (ت: **505** هـ)، يشرح له حال أمراء الأندلس، وموقفهم من حركة ابن تاشفين الجهادية؛ فأفتى لهم الإمام الغزالي بجواز قتال أمراء الأندلس، وضم بلادهم إلى دولة المغرب باعتبارهم بغاة، خارجين عن سلطة الدولة المرابطية، التابعة للخلافة العباسية في بغداد[1].

بعد ذلك عبر الأمير يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس مرةً ثالثة؛ بقوة ضخمة لضمه إلى المغرب، والقضاء على ملوك الطوائف فيها، ووضع حدٍ لمهزلتهم، ولقد حاول المعتمد ابن عباد (ت: **488** هـ)، وغيره من أمراء الأندلس، ثنيه عن هذه الخطوة، لكنه لم يلتفت إليهم، فقسَّم جيشه أربعة أقسام، واستطاع فتح غرناطة وأسر أميرها، ثم ضم إليه قرطبة، عام: (**484** هـ)، ولـمَّا وصل المرابطون ضواحي طليطلة؛ اشتد خوف أميرها: المعتمد بن عباد، فأرسل إلى ألفونسو، يستنجده ضد المرابطين.

وهكذا عقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهما؛ فأمده ألفونسو بقوات كبيرة، لكنها لم تغنِ عنه شيئًا أمام ضربات المرابطين، فسقطت طليطلة بأيديهم، ووقع المعتمد أسيرًا، كما سقطت إشبيلية عنوةً، على يد القائد: سير بن أبي بكر (ت: **507** هـ)، وبسقوطها تزعزعت باقي المدن والحصون الأندلسية، لتصبح بذلك إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية، وذلك عام: (**487** هـ)، إلا ولاية سرقسطة، التي أبلى حاكمها أحمد بن هود، في قتال النصارى بلاءً حسنًا، وجاهدهم جهادًا أقنع يوسف بن تاشفين؛ فأبقاه في ملكه، وظلَّ ابن هود سدًّا منيعًا في الثغور الشمالية الأندلسية، وشوكةً في حلق النصارى، وكلفهم خسائر هائلة في الأموال والأرواح[2].

وبعد هذا الانتصار العظيم ترك يوسف بن تاشفين الأندلس عائدًا إلى المغرب؛ ليرجع إليها مرةً رابعة، ويشرف على تنظيم شؤونها، وسير إداراتها بنفسه، كما هي

1- ينظر: شوقي أبو خليل، الزلاقة، مصدر سابق، ص: 58.
2- ينظر: شوقي أبو خليل، الزلاقة، مصدر سابق، ص: 60.

عادته في الحكم، ويعهد إلى ابنه علي بولاية العهد، أمام قادة الأندلس وأمرائها، وكان مما أوصاه أن يبقي في الأندلس جيشًا من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف جندي، يوزعون على ولاياتها، ثم عاد بعدها إلى مراكش مركز دولته، وفارق الحياة فيها، عن عمر يناهز الـ (**100**) عام، وذلك عام: (**500** هـ) [1].

سياسة المرابطين الداخلية

أقام المرابطون في بلاد المغرب والأندلس دولة قوية، ارتبطوا فيها بالخلافة العباسية في بغداد؛ واتخذوا السواد شعارًا لهم، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم، واستطاعت هذه الدولة أن تحفظ لأهل المغرب دينهم، بعد أن ساستهم بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ولقد حمى يوسف بن تاشفين خاصَّة أصولَ أهل السنة والجماعة من التحريف، وذلك بتشجيعه العلماء والفقهاء على نشرها بين الناس، مستخدمًا في ذلك سلطانه، وصلاحياته الشرعية، وكان من أبرز علماء دولة المرابطين: ابن رشد الجد: (ت: **520** هـ)، والقاضي أبو بكر بن العربي: (ت: **543** هـ)، والقاضي عياض: (ت: **544** هـ)، وغيرهم.

كما عمل المرابطون على تشجيع سائر فنون المعرفة والعلم، وفنون القتال والحرب، التي تنهض بدولتهم الناشئة؛ فازدهر في عصرهم علم الطب والأدب، وغيرها من العلوم، وبرز فيها علماء كبار، كما ازدهرت الصناعة والزراعة في عصرهم؛ ازدهارًا يدحض أكذوبة المستشرقين، وتقولهم على المرابطين من أن عصرهم كان عصر انحطاط وتخلف.

واستطاع المرابطون أن ينشروا العدل بين الناس، ويوفروا لهم الأمن والاستقرار، في حلهم وترحالهم، ويرفعوا عنهم المكوس والضرائب التي كانت عليهم، متَّبعين في ذلك نظامًا ماليًا، يقوم على قواعد الإسلام وسننه، في جمع الزكاة، وأخذ العشر والجزية من أهلها، وتخميس الغنائم؛ فأحبهم الناس لذلك، وقدموا لهم الطاعة والنصح.

زالت دولة المرابطين على أيدي الموحدين، أتباع محمد بن تومرت، بعد أن مضت فيهم سنة الله، في زوال الدول والحضارات، وكان أبرز معالم تلك السنة؛ شيوع الترف

1- ينظر: شوقي أبو خليل، الزلاقة، مصدر سابق، ص: 69.

والسرف فيهم، والدعة والركون إلى الدنيا، والتحجر الفكري عند علمائها المالكيين، وعجز الدولة عن توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها، وسنة الله أنَّ لكلِّ دولة أجلاً محدودًا[1].

1- ينظر: حركات، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، د. ط، 200/1420) ص: 169.

المبحث الثاني:
دولة الموحدين (524 - 668 هـ/ 1120 - 1270 م)

قامت دولة الموحدين في بلاد المغرب الأقصى، على أفكار دعوة: محمد بن تومرت، المخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة، بعد أن قضى حمَلتُها على دولة المرابطين السنية، وقد توسعت دولتهم حتى شملت: بلاد المغرب كلها، ثم الأندلس، وذلك بعد معركة الأراك، عام: (**591** هـ)، وكان الموحدون يرون عاصمتهم مراكش دار الخلافة الشرعية؛ لذا لم يعترفوا بالخلافة العباسية في بغداد، ومرت دولة الموحدين بأطوار مختلفة في حملها لأفكار مؤسسها: ابن تومرت، فبينما غالى بعض أمرائها في حمل أفكاره، وتطبيقها والدعوة إليها؛ عمل الأمير: أبو يوسف، يعقوب المنصور على إصلاح تلك العقائد والأفكار، والاقتراب بالموحدين من منهج أهل السنة والجماعة، وقد مرت دولة الموحدين؛ كغيرها من الدول، بمراحل قوة وضعف، ثم زالت على أيدي بني مرين، عام: (**668** هـ)، الذين أقاموا دولتهم على أنقاضها.

محمد بن تومرت (473 - 524 هـ)

ولد محمد بن تومرت في قرية (إيجلي) في بلاد السوس، جنوب المغرب الأقصى، واختلف المؤرخون في تاريخ ولادته، ويرجح أن يكون ولد عام: (**473** هـ)[1]، كما اختلف في نسبه أيضًا، فقيل: إنه عربي، يرجع نسبه إلى النبي ﷺ، وقد ادعى ابن تومرت ذلك لنفسه، وقيل: إنَّ نسبه بربريٌّ صرفٌ، وقد أثبت له ابن خلدون النسب النبوي، ونفاه عنه غيره.

تلقى دراسته الأولية في الكتاتيب طفلاً، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة، وعلوم العربية والفقه، ثم رحل إلى المشرق عام: (**500** هـ)؛ يطلب العلم، فجلس في تونس على الشيخ: أبي عبد الله المازري (ت: **536** هـ)، وفي مصر على الشيخ: أبي بكر الطرطوشي (ت: **521** هـ) ثم ذهب إلى الحجاز؛ فحج بيت الله الحرام، ومنه سافر إلى بغداد، ومكث فيها بضع سنين، وهناك تبحر في علم الأصول والكلام، وعقائد الاعتزال والأشاعرة، وأخذ من كلٍّ ما يخدم أفكاره وطموحاته، ويحقق أهدافه

1- اختلف في تاريخ ميلاده، فرجح عبد المجيد النجار أنه ولد عام: (473 هـ)، ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: 254، وذكر إبراهيم حركات أنه ولد عام: (485 هـ) ينظر: حركات، المغرب عبر التاريخ، مصدر سابق، ص: 246/1.

المستقبلية، ومن أبرز من جلس عليهم في بغداد، وتأثر بهم: الإمام الغزالي (ت: **505** هـ)، والكيا الهراسي (ت: **504** هـ)، وغيرهم.

تمكن ابن تومرت في رحلته المشرقية هذه؛ من الاطلاع على أحوال العالم الإسلامي، ومعرفة أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيه دويلات بلاد المغرب، خاصَّة المرابطين منها؛ فدفعه ذلك إلى الطموح في القضاء عليها، والعمل لإقامة دولة، لا في بلاد المغرب فقط، بل في العالم الإسلامي كله؛ من كل هذا الخليط الفكري بنى محمد بن تومرت شخصيته، فجمع فيها بين رجل الدين، والعلم والسياسة، فهو في تدينه وتقشفه صوفيٌّ، وفي علمه بحرٌ متلاطم الأمواج، وفي خططه وسياسته فريدُ عصره، فقد خطط لقيام دولة الموحدين، ومهَّد لها، واضعًا أسسها وأفكارها التي قامت عليها.

وفي عام: (**510** هـ) قفل ابن تومرت عائدًا إلى بلاد المغرب، واستمرت رحلة عودته أربع سنين، كان يمرُّ خلالها بالمدن والقرى الإسلامية ينشر علمه، وأفكاره فيها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بأسلوب قاسٍ شديد، جرَّ عليه كثيرًا من الويلات؛ ولما وصل مدينة ملالة الجزائرية؛ لقي عبدَ المؤمن بن علي (ت: **558** هـ)، حيث كان الأخير متَّجهًا إلى المشرق لطلب العلم؛ فصرفه ابن تومرت عن ذلك، بعد أن لمح فيه علامات الذكاء والفطنة، ورأى أنه الرجل الموصوف في كتاب الجفر[1] -الذي يحمله ابن تومرت معه- ويكون النصر على يديه؛ فأخبره بما ينوي القيام به؛ فبايعه عبد المؤمن على السمع والطاعة، وأخذا يعملان سويًا لتقويض دولة المرابطين.

كان ممن انضم لدعوة ابن تومرت أيضًا: عبد الله الونشريسي، الذي كان على درجة عالية من العلم والثقافة؛ فاتفق معه ابن تومرت على أن يخفي علمه عن الناس، ويتظاهر بالجهل والعجز؛ حتى يظهره في الوقت المناسب؛ فيكون بذلك آية من آيات صدق ابن تومرت في دعوته، فقام الونشريسي بذلك، وأتقن فنَّ الخداع والمكر، إلى أن أظهر علمه للناس دفعةً واحدة، وذلك بعد ادِّعاء ابن تومرت المهدية.

1- كتاب الجفر: يعتقد الإمامية أن جعفر الصادق كتبه لهم، فيه كل ما يحتاجونه، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ينظر: المصدر السابق، ص: 265، وإن صحت هذه الحادثة عن ابن تومرت؛ فربما دل هذا على أنه تأثر في رحلته المشرقية بالرافضة الإمامية، ويؤكد هذا الظن؛ ادعاؤه المهدية والعصمة لنفسه، لكن الأستاذ: عبد المجيد النجار نفى ذلك عنه؛ عند تعليقه على ادعاء ابن تومرت المهدية، وذكر من الفوارق بين مهدية ابن تومرت، وعقيدة الرافضة في المهدي؛ أن ابن تومرت يؤمن أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان، كما أن مهديته تخلو من القول بالغيبة والرجعة، التي يؤمن بها الرافضة، والعصمة التي ادعاها ابن تومرت لنفسه تخالف أيضاً العصمة عند الرافضة، ينظر: النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، عبد المجيد النجار، (واشنطن: طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2، ت:1995 م) ص: 129.

استمر ابن تومرت يتنقل في المدن والقرى ينشر دعوته، ويكوِّن خلايا سرية تحمل أفكاره ومبادئه، ويستقطب لذلك الأشخاص ذوي القوة الجسمانية من قليلي التجربة؛ إلى أن وصل به الحال إلى مراكش مقر المرابطين، وهناك أخذ ينبه تلميذه عبد المؤمن إلى المواقع الاستراتيجية فيها؛ مشعراً إياه بأن حربه ضد المرابطين ستكون طويلة الأمد، ثم خرج مع تلاميذه إلى السوق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويطعن بأمير المؤمنين؛ مستغلاً شيوع المفاسد في مراكش، حتى شاع أمره فيها؛ فاستدعاه أمير المؤمنين :علي بن يوسف بن تاشفين، وسأله عن حقيقة حاله، فأظهر له ابن تومرت الزهد والتواضع، وأنه ليس بطالب دنيا؛ فرق له الأمير؛ لكنه بقي شاكًّا في حاله؛ فاستدعى علماء مراكش وفقهاءها لمناظرته، ومعرفة حقيقة أمره.

لقد كان أسمى ما يطمح إليه ابن تومرت في هذه المرحلة من دعوته؛ أن يحظى بمناظرة علماء دولة المرابطين وفقهائها؛ ليظهر عجزَهم أمام سطوع حجته وفصاحته، وجهلَهم بما عنده من العلم الذي تعلمه في رحلته المشرقية، ولا سيما علما الأصول والجدل، وتمَّت المناظرة بينه وبينهم في مجلس أمير المؤمنين، واستطاع ابن تومرت أن يسخِّر كلَّ كلمة فيها لتصوير الفساد الذي ترتع فيه دولة المرابطين، من بيع الخمور، وانتشار الخنازير في شوارعها، وغيرها من المفاسد، وأن الذي يتحمل ذلك هم حاشية الأمير وخواصُّه، الذين يخفون عنه ذلك.

ولـمَّا كشف ابن تومرت سوء أوضاع البلاد؛ أراد أن يثبت عجز العلماء عن مجاراته في العلم؛ فطرح عليهم من الأسئلة ما أعيتهم إجابتها، منهيًا بذلك المناظرة لصالحه، ولقد تنبه لخطره الفقيه: مالك بن وهب الأندلسي (ت:**525** هـ)، وعرف أنه طالب سلطان ودنيا؛ فأشار على الأمير بقتله، لكن رأيه لم يحضَ بقَبول الأمير، ولا برضاه[1].

أراد ابن تومرت بعد هذه المناظرة التي شهرته في مراكش وغيرها؛ أن ينتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي، فاتخذ من المقبرة مقرًا له، وبنى فيها خيمته؛ ليثبت للناس أنه ليس بطالب دنيا وسلطان، بل طالب آخرة، كما أن المقبرة توفِّرُ له مكانًا هادئًا، بعيدًا عن أعين الناس، يتيح له نشر أفكاره فيه كيف شاء؛ فتوافد إليه الطلاب، فأخذ يكوِّن منهم قاعدة شعبية، حملت أفكاره، ونصرت دعوته، واتخذ من رفع شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار الصلاح والتقوى؛ وسيلةً لذلك، ولذا كثر

1- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: 268.

أتباعه ممن انطوت عليهم أساليبه، في المكر والخداع، ولقد ذكر تلميذه البيذق (ت: **1164** م): أن ابن تومرت كان لا يتورع عن الكذب في أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر؛ وإذا خشي مكروهًا من جراء ذلك؛ خلط في كلامه حتى ينسب للجنون.

وبعد أن تمكَّن ابن تومرت من بناء قاعدة شعبية، غاية في التلاحم والترابط، وألَّف لهم كتابًا في العقيدة، يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته[1]؛ انتقل إلى المرحلة الثالثة من مراحل دعوته، فأخذ يظهر رأيه في دولة المرابطين، ويطعن في عقيدتها، واصفًا أنصارها بالتجسيم والكفر والنفاق، وأن قتالهم أوجب من قتال المجوس والنصارى، ولما وصل إلى هذه المرحلة، من الجهر بأهداف دعوته وغاياتها، وأدرك المخاطر التي تتهدده من المرابطين؛ انتقل إلى بلاد السوس مسقط رأسه؛ محتميًا بقبيلته: مصمودة من خطر المرابطين، معلنًا وأصحابَه خلع مبايعة أمير المرابطين: علي بن يوسف، وفي قبيلته أخذ يكرِّس دعوته في نفوس أتباعه من جديد، ويؤصل فيهم موقفه من دولة المرابطين، حتى استطاع أن يوجد حاجزًا نفسيًا بينهم وبين المرابطين، وهنا أطلق على أتباعه اسم (الموحدين)؛ تعريضًا باسم (المرابطين).

لما رأى ابن تومرت قَبول دعوته في أواسط الناس حوله وانتشارها؛ أخذ يرسل تلاميذه إلى القبائل المجاورة له، يدعوهم إلى الانضمام إليه، وقد نجحوا في تشويق الكثير من الناس للرحيل إلى ابن تومرت، فتوافدوا عليه؛ بعد أن رسَّخ طلاَّبُه في أذهانهم أن الظلم والفساد الذي ترتع فيه دولة المرابطين لا يزول إلا بالمهدي، وأن الإيمان به واجب، وأن هذا الوقتَ وقتُ ظهوره، وسيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جورًا وظلمًا؛ وهنا جمع ابن تومرت الناس، وقام فيهم خطيبًا، وأعلن فيهم أنه المهدي المنتظر، ودعا الناس إلى بيعته، فبادر إليه العشرة الملازمون له فبايعوه، ثم تتابع عليه البربر مبايعين له على السمع والطاعة في جهاده المرابطين، وذلك عام: (**518** هـ).

كان مما يستدل به ابن تومرت على مهديَّته أمور كثيرة، منها: التظاهر بالتقوى والتواضع، والزهد بالدنيا وملذاتها، كما كان يقول لهم: إن الموتى يشهدون بأني المهدي المنتظر، ولقد كان يتواطأ من بعض الناس على ذلك فيدفنهم أحياءً، ويترك لهم مكانًا للتنفس، ويأمرهم أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا أنه المهدي، وإذا ما فعلوا ذلك على

1- ينظر: المصدر السابق، ص: 271/270.

مسمع من الناس؛ هدم عليهم قبورهم؛ كي لا يفشوا سره بعده، كما سلك غيرها من المسالك لإقناع الناس بأنه المهدي المنتظر، الذي يقتل الدجال، وأنهم الطائفة المنصورة، التي ينزل فيهم عيسى بن مريم.

بذلك يكون ابن تومرت قد استكمل بناء قواعد دولته المستقبلية، وضمن لنفسه ولاء القبائل وطاعتهم؛ فأخذ ينظمهم بعناية فائقة، ويقسمهم إلى طبقات حتى يتمكن من مراقبتهم والإشراف عليهم، فكانت طبقاتهم: أربعة عشرة طبقة، لكلٍّ منها مهامها الخاصة، وكانت الثلاثة الأولى منها أهم تلك الطبقات، حيث ضمَّت كبار رجال الموحدين، وزعماء القبائل وشيوخها، وكان واجبها الأول؛ معالجة أمور الموحدين، وتسيير دفة الحكم في هذه الدولة الناشئة، وباقي الطبقات كانت تعنى بالأمور العسكرية والعلمية والدينية.

لقد تمكن ابن تومرت بتقسيماته تلك من الاطلاع على أمور مجتمعه الجديد، صغيرها وكبيرها، مظهراً بذلك ما يتمتع به من ملكة تنظيمية فريدة، سخَّرها لتحقيق مهمته الصعبة، في القضاء على دولة المرابطين، التي وحَّدت المغرب الأقصى مع الأندلس، واشتهر حكامها بالعدل والصلاح.

بعد أن أعدَّ ابن تومرت أصحابه إعدادًا عقائديًا؛ أخذ يعدهم إعدادًا ماديًا، وينظم صفوفهم لقتال المرابطين، ولقد كان المرابطون يتابعون تحركات ابن تومرت، ويردون على هجماته الدعائية ضدهم[1]؛ حتى إذا ما استفحل أمره، وعظم خطره، وعزم على مواجهتهم مواجهةً عسكرية؛ أرسل إليه الأمير: علي بن يوسف جيشًا كبيرًا؛ للقضاء عليه، لكن هذا الجيش رجع دون قتال؛ فاستغل ابن تومرت ذلك، وجعلها مِنَّةً من الله على الموحدين.

استمر بعد ذلك الأمير علي بن يوسف، يرسل الحملات تلو الحملات؛ لاستئصال شأفة الموحدين، لكن تلك الحملات كانت تفشل، وتنهزم أمام ثبات الموحدين وتصديهم لها، بل لقد أصبح الموحدون بعد ذلك يتعقبون تلك الحملات، ويقتلون منها أعدادًا كبيرة، ويغنمون منها غنائم كثيرة، حتى اغتم لذلك أمير المرابطين علي بن يوسف غمًا كبيرًا، ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة المرابطين؛ اتخذ من المدينة

1-ينظر: المصدر السابق، ص: 296/294.

الحصينة (تينملل)[1] مقرًا له، وهي المدينة التي قال عنها ابن الخطيب: "لا يعلم مدينة أحصن منها"[2].

ازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه كثيرًا بعد تلك الانتصارات؛ فقرر الانتقال من مرحلة الدفاع، إلى مرحلة الهجوم على المرابطين في عاصمتهم مراكش؛ فبادرهم برسالة يعرض فيها عليهم الدخول في طاعته، أو الحرب، وقبل أن يخوض معهم حرب الهجوم؛ أراد أن يطهر جيشه ممن يشك في ولائه له؛ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «إنَّ في هذه الأمة محدثين، وإنَّ عمر منهم»[3] وأوعز إلى صديقه الونشريسي، أن يظهر علمه للناس -وهو الذي كان يتظاهر بينهم بالجهل والبساطة، بل وبالجنون أيضًا- ليكون آيةَ تأييد الله له في حربه المرابطين، وسببًا في قضائه على المترددين في طاعته، الشاكين في مهديَّته.

أخذ الونشريسي يقرأ القرآن أمامهم بإتقان، ويخبرهم بما ألهمه الله من العلوم والأسرار، وما أطلعه عليه من خفايا النفوس، ومن ذلك أنه أطلعه على أسماء المشككين بالمهدي المعصوم ابن تومرت، وأنه لا بد من قتلهم؛ لأنهم من أهل النار فأخبرهم بها، وكان ابن تومرت قد زوده بأسمائهم من قبل فحفظها الونشريسي عن ظهر قلب[4]، فأمر ابن تومرت القبائل بقتل أولئك المشككين به من أبنائهم، ممن ذكرهم الونشريسي، فقتلوا من أبنائهم خلقًا كثيرًا، ووعد ابن تومرت تلك القبائل -تطييبًا لقلوبهم- باغتنام أموال المرابطين وديارهم، ثم بعثهم لقتال المرابطين.

كان ابن تومرت يريد حسم الصراع العسكري مع المرابطين بالاستيلاء على عاصمتهم مراكش؛ ولا بد له قبل ذلك أن يتجاوز كلَّ الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون للدفاع عنها؛ فاستنفر القبائل يحشدهم لذلك، فتجمع عنده نحو: (**40**) ألف مقاتل، جعل على رأسهم الونشريسي، ثم وجههم إلى مراكش، وقبل وصولهم إليها، خاضوا مع المرابطين معارك عدة، كانت كلها لصالحهم.

ضرب الموحدون الحصار على مراكش مدة أربعين يومًا، ولقي منهم المرابطون

1- تقع جنوب شرق مراكش، على بعد 100 كم.
2- ينظر: المصدر السابق، ص: 308.
3- البخاري، برقم: (3689).
4- ذكرت سابقًا ما كان ابن تومرت قد أمر به ابن الونشريسي لما التقى به.

خلالها عنتًا شديدًا، وسقط منهم كثير من القتلى، حتى خرج إليهم المرابطون بقيادة الأمير علي بن يوسف، لكن الأمير لم يوفق لهزيمتهم، بل لقد تشتت شمل جيشه، وولى هاربًا؛ فأخذت الغيرة القائد: عبد الله بن همشك، فخرج مع أصحابه الأندلسيين -المحاصرين داخل المدينة- لقتال الموحدين، وفك الحصار عن مراكش، واستطاع هذا القائد أن يهزمهم، ويقتل منهم المئات؛ فارتفعت بذلك معنويات جيش المرابطين، فأرسل الأمير: علي بن يوسف إلى كافة ولاته وقواده؛ للانضمام إليه في قتال الموحدين، فقدموا إليه، ونظَّم منهم جيشًا؛ استطاع أن يهزم الموحدين، ويردهم إلى أوكارهم، وسميت تلك المعركة: (البحيرة)، وذلك عام: (**524** هـ)، وقد قتل في تلك المعارك قائد جيش الموحدين: الونشريسي، فخلفه عليهم: عبد المؤمن بن علي، الذي أعاد الكرة على مراكش مرةً أخرى ولكنه هزم، وقتل من جيشه الآلاف، فعاد بمن بقي معه إلى وكر ابن تومرت، في تينملل، يجرُّ أذيال الهزيمة[1].

نزلت أخبار هذه الهزيمة على ابن تومرت كالصاعقة، وزلزلت ثقة القبائل به، إذ كيف يهزم المهدي المؤيد من السماء، فأعادوا النظر في عقيدة المهدي؛ فلجأ ابن تومرت إلى أساليبه في المكر والخداع؛ ليعيد لهم الثقة بدعوته ومهديته؛ فأخبرهم أن قتلاهم في الجنة، وأنهم ينطقون بذلك في قبورهم، وكان قد اتفق مع جماعة من الناس؛ فدفنهم أحياءً، وجعل لهم متنفسًا، وطلب منهم أن يجيبوه إذا استنطقهم، ثم خرج ليلاً بزعماء الموحدين وشيوخهم إلى تلك القبور، فنادى بهم: يا معشر الشهداء: خبرونا ما لقيتم من الله تعالى، فأجابوه قائلين: وجدنا ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ إضافة إلى ما لقنهم إياه؛ فذهل الناس مما سمعوا، وعادت إليهم ثقتهم بالمهدي، وبعدها أغلق ابن تومرت المنافس على المدفونين؛ فماتوا من فورهم.[2]

إن ابن تومرت كان يدرك بقرارة نفسه، أن تلك الهزائم التي مني بها جيشه؛ ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سخَّر حياته لأجلها ليقيم دولته المنشودة؛ فأورثه ذلك المرضَ الذي أودى بحياته، وقبل أن يفارق الحياة؛ استدعى أصحابه المقربين، وحذرهم الفرقة والتناحر، وأمَّر عليه تلميذه الأول: عبد المؤمن بن علي، وتوفي بعدها ابن تومرت، عام: (**524** هـ)، بعد أن رسَّخ في قلوب أتباعه دعوته وأفكاره فأطاعوه، وقتلوا أبناءهم لأجلها!

1- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: 313/311.

2- ينظر: الهرفي، محمد سلمان، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (بيروت: دار الندوة الجديدة، 1985/1405) ص: 122.

لقد قامت دعوة ابن تومرت على أسسٍ وأفكارٍ تخالف عقيدة أهل السنة ومنهجَهم، ومن ذلك ادعاؤه المهدية لنفسه، بل لقد زادَ عليها ادعاءَ العصمة أيضًا، فصار يُطلق عليه المعصوم، موافقًا بذلك الرافضة الاثني عشرية، الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم من الذنوب والرذائل والنسيان، واتخذ من ذلك وسيلةً لجمع الناس حوله في قتاله المرابطين، كما رسَّخ في نفوس أتباعه أن المرابطين كفارٌ مجسمة، يصفون الله بصفات البشر، ويشبهونه بهم؛ موظفًا بذلك المدارس الكلامية لخدمة أهدافه السياسية، ولقد اشتط ابن تومرت في انحرافه ذلك، حتى إنَّه قد كفَّر كلَّ من لم يوافقه على رأيه، ولو كان من أتباعه[1]!

كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ، اجتمعت فيه صفات قلما تجتمع في غيره، فقد جمع بين المكر والخداع، واستغلال الفرص، وفصاحة اللسان، وسحر البيان، والتبحر في فنون العلوم، بل والتفرد بإتقان علوم يجهلها علماء بلده، جمع جُلَّ ذلك في رحلته المشرقية، ووظَّفه في حركته التدميرية، التي هدمت أركان دولة المرابطين، ساعده على ذلك؛ سذاجة مجتمعه وجهله، وما عشعش في أذهانه من انحرافات العبيديين وتضليلهم، حتى ابتعد عن منهل الإسلام الصافي[2][3].

عبد المؤمن بن علي (487 – 558 هـ)

بايع الموحدون بعد وفاة ابن تومرت تلميذه الأول: عبد المؤمن بن علي، الذي كان يدرك ما في دعوة ابن تومرت من الشطط والغلو والظلم؛ لذا لم يكن جادًا في الالتزام الحرفي بها، وبدا ذلك واضحًا عندما تجرَّأ على تغيير نظام الطبقات، الذي وضعه ابن تومرت، والذي يعتبر الحاكم الفعلي في دولة الموحدين، ولم يذكر المؤرخون أن عبد المؤمن عمل على نشر دعوة ابن تومرت في البلاد التي فتحها.

تولى عبد المؤمن قيادة الموحدين في ظروف حالكة، وكانت مهمته صعبة، فعمل على إعادة الثقة لجيش الموحدين؛ بعد الهزيمة التي مني بها في معركة البحيرة (524 هـ)،

1- ينظر لكل ما سبق: حركات، المغرب عبر التاريخ، 246/1 إلى 255.

2- ينظر الهرفي، دولة المرابطين، مصدر سابق، ص: 123.

3- مع كل ما ذكر عن ابن تومرت؛ إلا أن بعض المؤرخين عدَّ حركته حركة إصلاحية رائدة، ومنهم: الأستاذ عبد المجيد النجار، في كتابه: (تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت) ونفى عنه ما رمي به من خرافات وتجاوزات، وخطّأه في ادعائه المهدية؛ لكنه رآها مناورة سياسية، اجتهد فيها ابن تومرت؛ ليضمن ولاء الناس، والتفافهم حوله، ويكفي لدحض عقيدة ابن تومرت، وبيان فساد طويته؛ ردُّ ابن تيمية عليه، ينظر: ابن تيمية، الفتاوى، مصدر سابق، 492/11.

على أيدي المرابطين، ولـمَّا تم له ذلك؛ واصل القتال ضد المرابطين، واستمر القتال بينهم سنوات، استطاع في نهايتها أن يهزم المرابطين، ويسقط دولتهم، بعد قتل أميرها: علي بن يوسف، عام: (**537** هـ)، وقتل ابنه من بعده: تاشفين بن علي، عام: (**539** هـ)، ثم دخل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين عام: (**540** هـ)، واستتب بعده الأمر لعبد المؤمن بن علي[1].

عبد المؤمن بن علي ودخوله الأندلس

استغلت كثير من مدن الأندلس وقراها الصراع الواقع بين المرابطين والموحدين فقامت بثورات، أعلنت فيها انفصالها عن المرابطين، وزادت هذه الثورات عنفًا بعد وفاة آخر أمراء المرابطين: تاشفين بن علي عام: (**539** هـ)، ولـما استتب الأمر لعبد المؤمن؛ وجَّه جيشه للقضاء على تلك الثورات، وضم مدن الأندلس إلى دولته، ولم تبدأ سنة: (**545** هـ) حتى أعلن رؤساء الأندلس -من الذين قاموا بثورات على المرابطين- طاعتَهم لعبد المؤمن، وأعلنوا الانضمام لدولته، كما استطاع عبد المؤمن أن يوسع نطاق دولته في المغرب، حتى امتدت من طرابلس شرقًا، إلى بلاد السوس غربًا.

كان من أعظم ما عني به عبد المؤمن تنظيم شؤون الحرب والجهاد، التي بثَّ فيها بجهوده ومتابعته نهضةَ إحياءٍ شاملة، حيث أنشأ مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش، وكان أحيانًا يشرفُ على تدريبهم العسكري بنفسه، ويختبرهم في الطعن بالحراب، والرمي بالقوس والسهم، والمبارزة وركوب الخيل، كما أنه أعدَّ بحيرة لتدريب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، وكان يمنح المتميزين الهدايا الثمينة بنفسه، وبنى كثيرًا من مصانع السلاح في قواعد دولته، وكان يستعدُّ في كل ذلك لتحقيق مشروعه الكبير، وهو دخول الأندلس بجيش كبير لم يسبق له مثيل؛ وذلك للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية فيه، وعلى كل تمرد ضد دولة الموحدين[2].

لـما وطَّد عبد المؤمن أركان دولته في المغرب، واستمال القبائل العربية والبربرية لصالحه، وقضى على كل المناوئين له، ومنهم أخوا ابن تومرت وأنصارهما، وبنى جيشًا كبيرًا؛ خرج عام: (**558** هـ) متجهًا إلى الأندلس لتحقيق حلمه الكبير، إلا أنَّ الموت عاجله

1- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: (351، 332).
2- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: (338، 349).

في الطريق، فخلفه على الموحدين ابنه يوسف، ورجع بأبيه إلى مراكش.

بايع الموحدون يوسف بن عبد المؤمن أميرًا عليهم، وقد ألغى يوسف هذا قرار مشروع العبور إلى الأندلس، وتفرَّغ للقضاء على الثورات التي قامت عليه في المغرب والأندلس، وكان أعنفها في الأندلس: ثورة ابن مردنيش (ت: **567** هـ)، وفي المغرب: ثورة سبع بن منحفاد (ت: **562** هـ)، وغيرهما، وتمكن يوسف بن عبد المؤمن من القضاء على تلك الثورات كلها، وهدأت الأمور في أرجاء دولته بعض الوقت، وعمَّها الاطمئنان والراحة، فانتعشت لذلك الزراعة والصناعة، وراجت حركة التجارة فيها.

رغم أن الموحدين استطاعوا القضاء على تلك الثورات التي قامت في المغرب والأندلس؛ إلا أنها قد هزلت هيبتهم وسلطانهم في نفوس النصارى الإسبان، وفي نفوس المغاربة أنفسهم، وكانت إحدى البذور التي أضعفت دولتهم؛ فانطلقت أطماع النصارى في الأندلس من جديد، وعادت لهم روح القتال والحرب، التي كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي، لذا قرر يوسف بن عبد المؤمن أن يعبر إلى الأندلس ويقاتلهم[1]، وكان عبوره عام: (**566** هـ)، واستطاع أن يهزم النصارى في معارك عدة؛ لكنه لم يستطع تحقيق نصر حازم عليهم، واستشهد عام: (**580** هـ)، وخلفه على الموحدين: ابنه يعقوب.

يعتبر عصر يعقوب بن يوسف العصر الذهبي لدولة الموحدين، حيث بلغت فيه الذروة في التطور والاتساع، لكنه كان عصرًا قصيرًا، لا يتناسب مع دولة ضخمة، مترامية الأطراف، كدولة الموحدين، التي حكمت بلادًا تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، فلم يدم حكمه سوى خمسة عشر عامًا، قاد فيها الدولة الموحدية قيادة حكيمة، أضفت على جيوشه هيبةً عظيمة في نفوس أعدائه.

كما يعتبر يعقوب بن يوسف أول من كسر السياج المحيط بدعوة ابن تومرت، وذلك بإحراقه الكثير من كتب الفروع الفقهية التي فيها مؤلفات ابن تومرت، ودعا الناس للعودة إلى الكتاب والسنة، وأعلن براءته من القول بعصمة ابن تومرت؛ مما حمل الكثير من الموحدين -ولا سيما المنصفين منهم- إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت، ودراستها بموضوعية وإنصاف، ومن ثمَّ التحلل من تعاليمها.

1- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: (351، 357).

هدأت الحرب بين الموحدين والنصارى في الأندلس زمن الأمير: يعقوب بن يوسف بضع سنين؛ وذلك لقيام بني غانية[1] في المغرب الأوسط بثورة ضد الأمير يعقوب بن يوسف، استمرت سنوات طويلة، كلفته الكثير من الأموال والرجال؛ حتى استطاع القضاء عليها عام: (**582** هـ)، وبعدها عمل على توحيد بلاد المغرب كلها تحت إمرته، وبنى فيها جبهة داخلية متماسكة؛ استعدادًا منه لقتال النصارى في الأندلس، الذين أعدَّ منهم ألفونسو الثامن حملةً عسكريةً كبيرةً، فتكت بالمسلمين وديارهم.

معركة الأراك (591 هـ)

كتب ملك قشتالة ألفونسو الثامن رسالة إلى الأمير: يعقوب بن يوسف، تشبه رسالة ألفونسو السادس، إلى القائد: يوسف بن تاشفين، يدعوه فيها للقتال، رسالة ملؤها الغرور، والاعتزاز بالنصرانية؛ فلما قرأها الأمير؛ اشتاط غضبًا، وأخذته الغيرة على الإسلام؛ فمزَّقها وكتب على قطعة منها، قوله تعالى: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (النمل: **37**)، الجواب: ما ترى، لا ما تسمع.

ولا كتبَ إلا المشرفيةُ عنده ولا رسلَ إلا الخميسُ العرمرمُ

استنفر يعقوب بن يوسف أهل المغرب كلهم لقتال النصارى، ودوَّت صيحات الجهاد في جميع أرجائه، في الوقت الذي كانت فيه أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين قد وصلت إليهم؛ فأحيت تلك الأخبار قلوبهم، وطهرت نفوسهم؛ فاستجاب له الشيوخ والشباب، فعبر بهم البحر إلى الأندلس، عام: (**591** هـ)، ولما سمع ملك قشتالة بقدوم الموحدين؛ استنفر ملوك إسبانيا المسيحية، واستصرخ البابا في روما؛ فقدمت إليه الجيوش، من فرنسا وألمانيا وهولندا، وغيرها من البلاد الأوربية، ونزلت في الأرَاك[2]، ونزل الموحدون على مقربة من المعسكر النصراني.

1- بنو غانية: من قبيلة مسوفة الصنهاجية، نسبوا إلى أمهم غانية، قاموا بثورات عدة ضد الموحدين، بقيت نحو نصف قرن، كلفتهم الكثير من الأرواح والعتاد، استطاعوا خلالها الاستيلاء على كثير من المدن والقرى، منها تونس والمهدية وغيرها، والدعاء فيها للخليفة العباسي جريًا منهم على عادة أسلافهم المرابطين، وقد كانوا يرون في الموحدين دولة منحرفة عن أصول أهل السنة والجماعة، خرجت عن طاعة الخلافة العباسية، لكن الموحدين استطاعوا القضاء عليها زمن الأمير يعقوب بن يوسف، ثم انطلقت ثورتهم من جديد زمن الأمير عبد الله الناصر، الذي استطاع القضاء عليها نهائيًا، وذلك بعد موقعة الزاب، عام: (604 هـ)، وفشلت بذلك محاولة بني غانية إعادة تأسيس دولة سنية، على نهج دولة المرابطين؛ بسبب ضربات الموحدين القوية والمركزة، وضعف الخلافة العباسية أن تمدهم بالعدة والسلاح، وانشغال الأيوبيين بعد صلاح الدين بمشاكلهم الداخلية، وبحروبهم مع الحملات الصليبية، ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: ٣٩٦، وينظر: حركات، المغرب عبر التاريخ، مصدر سابق، 294/1.

2- الأراك: حصن يقع في الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنه، ينظر: المصدر السابق: ص:377.

اجتمع يعقوب بن يوسف بمجلسه الحربي، ووضعوا خطة للحرب، شبيهة بخطة المرابطين في معركة الزلاقة، عام: (**479** هـ)، وعيَّن وزيره: أبا يحيى بن أبي حفص (ت:**591** هـ) قائدًا عامًا للجيش، وفي التاسع من شعبان، عام: (**591** هـ) دارت معركة الأراك الحاسمة، التي استمرت ساعات متتالية، أكرم الله فيها آلاف المسلمين بالشهادة، على رأسهم القائد العام: أبو يحيى بن أبي حفص، ثم انتهت بهزيمة مروعة للنصارى، بعد أن قتل منهم نحو (**30**) ألفًا، بينهم زهرة فرسانهم، وغنم المسلمون معسكر الإسبان، بما فيه من المتاع والمال، ثم اقتحموا حصن الأراك، وقلعة رباح المنيعتين[1].

علا صيت الموحدين في العالم الإسلامي بعد هذه المعركة، وعظمت مكانتهم فيه، وعادت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس خاصَّة؛ بعدما نزل بهم الويل والهلاك على يد ألفونسو الثامن، وسقطت هيبة ملوك النصارى في أعين المسلمين، وسارعوا إلى عقد معاهدات صلح مع الموحدين لإيقاف الحرب، بعد أن حطمت الهزيمة آمالهم في الاستيلاء على أرض المسلمين في الأندلس، وإبعادهم عنها، وتطلع بعدها الموحدون لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم، وهذا ما صرَّح به الأمير يعقوب بن يوسف نفسه[2].

وكان قد ساء الموحدين ظهور دولة صلاح الدين في مصر؛ لأن ذلك يعني رفع شعار العباسيين فيها، وهم الذين لم يعترفوا بالخلافة العباسية، وكانوا يرون عاصمتهم: مراكش دار الخلافة الشرعية، وكان أمراء الدولة الأيوبية يدركون ذلك؛ لذا لم يعترف صلاح الدين بخلافة الموحدين، ولم يخاطب أميرها في مراسلاته بـ (أمير المؤمنين)، بل كان يكتفي بكتابة (أمير)، وكان الموحدون يطمحون لضم مصر لدولتهم؛ ولا سيما بعد انتصارهم في معركة الأراك؛ مما دفع أمراء الدولة الأيوبية لتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب؛ ليضعوا فيها خط الدفاع الأول عن إمارات المشرق، والتصدي لأطماع الموحدين، وكانت غزوة قراقوش على بلاد المغرب إحدى هذه الخطوات التي بادروا باتخاذها، لكن أطماع الموحدين تلك ماتت بموت الأمير يعقوب بن يوسف، عام: (**595** هـ)[3].

1- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: 377، وينظر بركات، المغرب عبر التاريخ، مصدر سابق، ص: 277.

2- ينظر المصدر السابق، ص: 389.

3- ينظر: الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين، مصدر سابق، ص: (389، 391).

تولى حكم الموحدين بعد وفاة الأمير: يعقوب المنصور؛ ابنُه عبد الله الناصر، وكان يبلغ من العمر (18) عامًا، وكان شابًا طموحًا، معتزاً بنفسه، لا يحترم خبرات رجال دولته، ويرفض الأخذ بالنصائح، حتى من أقرب الناس إليه، لذا جرَّ ذلك على الموحدين الهزائم والويلات، ومن ثمَّ السقوط، وكان قد شُغل بداية حكمه بالقضاء على ثورة بني غانية التي انطلقت من جديد، حتى تَّم له ذلك عام: (604 هـ) بعد موقعة الزاب، وقد كلفه ذلك الكثير من الوقت، والرجال والعتاد[1].

معركة العقاب (609 هـ)

لم ينسَ ملك قشتالة ألفونسو الثامن هزيمته في معركة الأراك، عام: (591 هـ) فاستغل انشغال الموحدين بالقضاء على ثورات المغرب، ولا سيما ثورة بني غانية، فأخذ يستعدَّ للثأر لتلك الهزيمة الخالدة التي هزَّت هيبته، وهيبة ملوك أوربا كلهم، فحصَّن القلاع الواقعة على الحدود الإسلامية، ونظَّم الجيوش، وتحالف مع الأمراء من جيرانه، ثم أعلن نقض عهده مع الموحدين، وما إن انتهى الناصر من إخماد ثورات المغرب؛ حتى سمع باستعداد ألفونسو الثامن فأعلن الجهاد ضده، وحشد قوات كبيرة، بلغ عددها: (500) ألف مقاتل، قادها إلى الأندلس بنفسه.

ظهرت في هذه المعركة آثار قلة خبرة الناصر، واستبداده برأيه، حيث أقدم على دخول إشبيلية، وبعدها أرسل خيرة جيشه إلى حصن سلبطرة المنيع، ولبث الجيش محاصرًا له ثمانية أشهر، فأنهك بذلك قواهم، ومات الآلاف منهم مرضًا وجوعًا، وبعد أن تم له الاستيلاء عليه؛ تفجرت براكين الغضب النصراني في أوربا، فقام القساوسة والرهبان يثيرون حماسة الشعوب النصرانية لقتال الموحدين، كما قام بابا الفاتيكان: أنوسان الثالث، ينفخ روح الحقد في نفوس النصارى ضد المسلمين، ويحضهم على مؤازرة ملك قشتالة في قتاله إياهم؛ فتحركت الأمواج البشرية النصرانية متجهة إلى إسبانية، واجتمع في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى، المتعطشين لسفك دماء المسلمين.

وبالقرب من حص العقاب التقى الجيشان، ودارت بينهما معركة العقاب عام: (609 هـ) هُزم فيها الموحدون هزيمة قاسية، كانت سببًا في هلاك الأندلس، وبداية

1- ينظر المصدر السابق، ص: 395.

أفول شمس الإسلام منه، وقد قتل في هذه المعركة آلاف المسلمين، على رأسهم عدد من العلماء، منهم: أحمد بن هارون النضري (**542** -**609** هـ)، وأسر منهم الكثير، أقدم النصارى على قتلهم كلهم، وارتكبوا بعدها مجازر مروعة في المدن والقرى التي دخلوها بعد انتصارهم، كان أعظمها: مجزرة بياسة.

كان من أعظم أسباب هزيمة الموحدين؛ ضعف شخصية الناصر، وقلة خبرته، وإعجابه بجيشه الكبير، وانصياعه لآراء وزيره: أبي سعيد بن جامع، الذي كان الموحدون يشككون في نواياه، وإقدامه على قتل القائد: يوسف بن قادس، بعد هزيمته في قلعة رباح؛ بتحريض من وزيره الذميم؛ كل ذلك وغيره عمل على هزيمة الموحدين في معركة العقاب[1].

رجع بعد ذلك الناصر إلى المغرب؛ تاركًا وراءه الأندلس يواجه مصيره المحتوم، وبدأ بعده عصر الطوائف من جديد، وسقطت على إثره مدن الأندلس بيد النصارى، الواحدة تلو الأخرى، سقطت قرطبة عام: (**633** هـ)، ثم سقطت بلنسية عام: (**636** هـ)، ثم سقطت بعدها مرسية عام: (**644** هـ)، وإشبيلية عام: (**646** هـ) ولم يبقَ للمسلمين فيها إلا غرناطة، التي سقطت بعد نحو قرنين ونصف من الزمن، عام: (**897** هـ).

ولكي ينسى الناصر حزنه وكدره بعد هزيمته في العقاب؛ أمضى بقية حياته في الشهوات والملذات، تاركًا ولاية العهد لابنه يوسف، البالغ من العمر (**10**) سنين، ثم دسَّ له الخدم السمَّ في طعامه، ومات على إثره، وبموته بدأت مرحلة الانحدار، والصراع الداخلي في دولة الموحدين، واستمرت حتى سقطت عام: (**668** هـ) على يد بني مرين[1]، وقامت على إثرها دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط (الجزائر)، ودولة بني حفص في الشمال الإفريقي (تونس)، واستمر أمر المغرب على هذا الانقسام نحو ثلاثة قرون، تمكن الإسبان خلالها من الاستيلاء على عدد من مدنه؛ حتى دخله الفاتحون العثمانيون عام: (**962** هـ)، وطهروه منهم، ومن ثمَّ ضموا أكثر المغرب لإمبراطوريتهم.

1- ينظر: بركات، المغرب عبر التاريخ، مصدر سابق، 284.

الفصل السابع:
المغول ودولة المماليك

المبحث الأول: قيام دولة المغول

المبحث الثاني: دولة المماليك

المبحث الأول: قيام دولة المغول

تُعد المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون غربًا، وحدود الصين شرقًا؛ الموطن الأصلي للمغول، وهي ما يعرف بـ (منغولية)، وهم مجموعة من القبائل البدوية التي تعيش على الرعي والصيد، وتنتقل من مكان لآخر بحثًا عن الكلأ، كغيرها من المجتمعات البدوية، ويُعدُّ التتار إحدى تلك القبائل.

برز المغول قوةً عالمية خارج منغولية نهاية القرن السادس الهجري، واستطاعوا في وقت قصير تأسيس أكبر امبراطورية عرفها التاريخ، حيث تكونت امبراطوريتهم خلال ثلاثة عقود، وكانت النواة الأولى لمملكتهم؛ عندما حظي جدهم الأول (بدانتسار) بزعامة القبائل التي تعيش حولهم، وفي عام: (**1139**م) انتصر هؤلاء المغول على الجيش الصيني انتصارًا كبيرًا، كان البداية الفعليَّة لنهوضهم، وفي هذه الأثناء كان العالم الإسلامي منقسمًا إلى دويلات وإمارات متنازعة فيما بينها، وكانت الخلافة العباسيَّة أعجز من أن تناهض هذه الدولة الناشئة، أو تقاومها، وبالتالي فإن النتيجة الحتمية للمعركة القادمة مع المغول واضحة منذ البداية.

في عام (**602** هـ - **1206**م) تَّم تنصيب جنكيز خان (خان أعظم) على جميع ساكني الخيام في منغولية، وكان يتمتع بشخصية قيادية فذة، نبغت في التنظيم وبناء الجيوش، واكتشاف نقط الضعف لدى الأعداء وتسخيرها لصالحه، وبعد أن استقرت له الأوضاع في مناطق الصين ومنغولية؛ قرر الخروج من هذا النطاق، والانطلاق في بناء امبراطورية، تشمل العالم المعروف آنذاك، ووضع نصب عينيه إسقاط الخلافة العباسيَّة في بغداد[1]، وأخذ ينشر قوانينه المعروفة في التاريخ بـ (الياسا)[2]، فاستطاع التغلب على

1- أكثر المؤرخين يذكرون مشروع التتار والمغول التوسعي للسيطرة على العالم ومنه الخلافة العباسية دون ذكر بعض الأسباب الحقيقية التي جعلتهم ينقمون على المسلمين الخوارزميين ومن ورائهم العباسيين، وقد ذكر ابن كثير أن من أسباب إسقاط المغول للدولة الخوارزمية وبعدها الخلافة العباسية: سوء تصرف خوارزم شاه مع تجار جنكيز خان. قال ابن كثير: ولكن كان البداءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيزخان تجارًا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجة كشلي خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضى منه أو أنه لا يعلم به، فأنكره وقال له فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تتكره وتقتص من نائبك. فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيزخان لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرق وكبرت سنه. وقد ورد الحديث «اتركوا الترك ما تركوكم» فلما بلغ ذلك جنكيزخان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أشنع". البداية والنهاية، مصدر سابق، م/13. ص: (83، 119).

2- الياسا: هو القانون الذي وضعه جنكيز خان دستوراً لإمبراطوريته.

كل من وقف في وجهه، حتى أصبح حاكمًا على نصف العالم المعروف في ذلك الزمن.

رأى جنكيز خان أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية هي التمركز في أفغانستان وأوزبكستان، وجعلها قواعد إمداده، وذلك لبعد المسافة بين الصين وبغداد، كما رأى أنه لا يستطيع محاربة الخلافة العباسية وفي ظهره شعوب مسلمة تحاربه؛ فكان لا بد من الاستيلاء على هذه المسافات الشاسعة بينه وبين بغداد، أي محاربة الدولة الخوارزمية[1]، التي كانت تضم بين طيَّاتها عدة أقاليم إسلامية هامة، مثل: أفغانستان وأوزبكستان، وتركمانستان وطاجكستان، وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة الخوارزميين: مدينة أوجندة في تركمانستان، وقد كان بين جنكيز خان وملك الخوارزميين شبه اتفاق على حسن الجوار، لكن جنكيز خان لم يكن ممن يهتمون باتفاقياتهم، أو يحترمون عهودهم، فوضع من الأسباب ما برر له حربه للخوارزميين.

بدأ جنكيز خان تنفيذ ما عزم عليه، واستطاعت جيوشه دخول أكبر المدن الإسلامية في تلك البلاد وتدميرها، وارتكاب أبشع المجازر فيها، وكان على رأس المدن التي اكتوت بنارهم: مدينة بخارى وسمرقند، ومرو ونيسابور، وغيرها من مدن تلك البلاد، ولم يستطع الخوارزميُّون التصدي لهذا السيل الجارف من جيوش المغول؛ غير ما كان من انتصار جلال الدين منكوبرتي عليهم في سهول بيروان عام: (**618** هـ) لكنه كان انتصارًا مؤقتًا، ما لبث جنكيز خان أن ثأر له، وأنزل بالخوارزميين السيف.

ولقد كان الخوارزميُّون قد استنجدوا بالخلافة العباسيَّة مرارًا، لتمدهم بقوات في حربهم ضدَّ المغول؛ لكن شيئًا من ذلك لم يكن، بل لقد عمل الخليفة العباسي الناصر لدين الله على إذكاء نار الفتنة بين الخوارزميين، والتصدي لمشروعهم المقاوم للمغول؛ منتقمًا بذلك لما كان بينه وبينهم من خلافات، ومتغافلاً عن حقيقة الخطر المغولي الذي يهدد دولته، لذا ذمَّه المؤرخون، وتناولوا أعماله بالنقد اللاذع، وزالت بعد ذلك دولة الخوارزميين، وأصبح الطريق إلى بغداد مفتوحًا أمام المغول.

1- يرجع نسب الخوارزميين إلى مملوك تركي كان والياً على خوارزم، في عهد السلطان السلجوقي: ملكشاه بن ألب أرسلان، واستطاع أبناؤه من بعده الاستقلال بحكم خوارزم، عام: (538 هـ)؛ بعد حروب طاحنة بينهم وبين السلاجقة، وتنصيب قطب الدين محمد بن أنوشتكين الخوارزمي ملكاً عليهم، اعترف به الخليفة العباسي، وأرسل إليه الخلع، والتشريفات، وقد بقيت الدولة الخوارزمية حتى سقطت على يد المغول عام: (628 هـ) بعد أن قتلوا آخر ملوكها جلال الدين الخوارزمي، وتفرق بعده الخوارزميون في البلاد، فانضم بعضهم للخلافة العباسية في بغداد، ودخل قسم منهم في خدمة سلاجقة الروم، وأوى الآخرون إلى الأيوبيين في مصر.

آل أمر المغول بعد وفاة جنكيز خان إلى ابنه (أوكتاي) الذي واصل زحفه باتجاه العراق لإسقاط الخلافة، وتعاقبت بعده الأمراء على المغول، إلى أن جاء هولاكو، فوضع له هدفًا مرحليًّا يصل بعده إلى بغداد، وهو القضاء على الفرقة الإسماعيليَّة الباطنيَّة[1]، والاستيلاء على قلاعهم، واستطاع عام: (**654** هـ) الاستيلاء على قلعة (الموت/آلموت) آخر قلاع الإسماعيليَّة شمال إيران، ولم يستطع زعيمهم مقاومة هولاكو؛ فأعلن له الخضوع، وقبَّل الأرض تحت قدميه.

سقوط بغداد (656 هـ)

سار بعد ذلك هولاكو إلى بغداد لتحقيق هدفه الكبير وإسقاط الخلافة العباسية، وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت: المستعصمُ بالله، فأرسل إليه هولاكو يعرض عليه الصلح، وتسليم بغداد إليه دون قتال، لكنَّ الخليفة أبى عليه ذلك، فبعث إليه هولاكو برسالة أخرى، ضمَّنها إنذارًا نهائيًا، صاغه بلهجة شديدة عنيفة، ثم أمر جيوشه بمحاصرة بغداد، ولـمَّا رأى الخليفة أنَّ الأمر جدٌّ، وتذكَّر أنه لا قبل له بهذه الجيوش لأنه لم يستعدَّ لها؛ استشار حاشيته في ذلك، ومنهم وزيرُه الشيعي: مؤيد الدين بن العلقمي، الذي أشار عليه بالخروج إلى هولاكو، ومفاوضته على الصلح.

لـمَّا علم هولاكو بقَبول الخليفة للتفاوض، وأنه خارج إليه؛ طلب منه أن يأتي معه بوزرائه وحاشيته، وبعلماء بغداد وأعيانها، يشهدون الصلح، فخرج الخليفة إلى هولاكو في وفدٍ مهيبٍ، يضم (**700**) من سادة بغداد وأعيانها، وفيهم وزراؤه وحاشيته، خرج ذليلاً مهينًا، قد تحجرت الدموع في عيونه، والدماء في عروقه، خرج من بغداد التي كان أجداده يقودون الدنيا منها، ولـمَّا وصل الوفد إلى هولاكو، منعهم الحرس الملكي من الدخول، حتى يخضعوا للتفتيش الدقيق، ولم يدخل على هولاكو سوى الخليفة، ومعه سبعة عشر من حاشيته، وأُسْدِل السِّتار على البقية، فُقتلوا جميعًا، وبقي الخليفة ومَن دخل معه، ومنهم ابنُ العلقمي، وأدرك الخليفة هنا أنَّ المغول لا عهد لهم ولا أمان، وأخذ هولاكو يأمر الخليفة بما يريد، ومن ذلك أن أمره بإصدار أمر إلى أهل بغداد بإلقاء السلاح، والامتناع عن المقاومة، وأشار بتقييد الخليفة، وسوقه إلى بغداد بأغلاله، كما أمر بقتل ولدي الخليفة أمام عينيه، وأسر بناته.

1- تُعدُّ الإسماعيلية امتدادًا للدعوة الفاطمية في مصر، قام بنشرها في بلاد فارس وما حولها الحسن بن الصباح، وهو من أصل يمني، هاجر أبوه إلى الكوفة، ومن ثم إلى قم، ثم إلى الري حيث ولد الحسن، وقد سبق الحديث عن دعوته في مبحث دولة السلاجقة.

أخبر ابن العلقمي هولاكو أنَّ ثمَّ الكثير من علماء السنة ورجالهم ما يزالون في بغداد، فأمر هولاكو الخليفة أن يستدعيهم ليقتلوا جميعًا، فكان الرجل يخرج من بغداد معه نساؤه وأولاده، وأمواله يُخرج به إلى مكان يُحدده المغول فيُقتل على مرأى من أهله، ثم يؤخذ أهله سبايا، حتى أخرجوا أئمة المساجد والخطباء، وحملة القرآن، فقُتلوا كُلُّهم، والخليفة ينظر، وكان قد دهشه علاقة ابن العلقمي بهولاكو، واحترام هولاكو له، وأمر بعدها هولاكو باجتياح بغداد، فدخلها المغول، وأوقعوا فيها من المجازر والمذابح ما يندى له جبين التاريخ، يذكر المؤرخون المعتدلون أن المغول قتلوا في بغداد نحوًا من (**800**) ألف مسلم، ثم حرَّقوا مساجدها، وهدموا بنيانها، وأشعلوا الحرائق فيها.

ثم دخل هولاكو قصر الخليفة، فجلس على الميمنة، ولم يجلس على كرسي الخليفة، بل أمر بالخليفة فجيء به، فقال له هولاكو: اجلس مكانك، أنت المُضيف ونحن الضيوف، فقم بواجب الضيافة، وصدق الخليفة المسكينُ كلام هولاكو، فأمر لهم بألفين من الثياب، وأهدى لهم الجواهر والدنانير، وغيرها من الهدايا، فكان هولاكو لا يعبأ بها، بل كان يوزِّعها على جلسائه، ثم قال للخليفة: هذا الذي فوق الأرض، فما عندكم تحت الأرض؟ فقال الخليفة: في ساحة القصر حوض من الجواهر والإبريز، فأمر به فحُفر، فوجدوا حوضًا عظيمًا من الذهب، واللآلئ والمجوهرات وغيرها.

ثم أمر هولاكو أن يحصوا حرم الخليفة، فكان عنده من النساء والجواري نحوٌ من (**700**)، ومن الخدم نحوٌ من (**1000**) خادم، فتضرع الخليفة لهولاكو أن يُبقي على نسائه ممَّن لم يرين ضوء الشمس قط، فقال له: اختر منهنَّ (**100**) امرأة، ثم وُضع في قيده تحت الإقامة الجبرية، وأمر هولاكو بعد أربعين يومًا أن يكفُّوا عن بغداد.

طلب الخليفة وهو في أسره طعامًا ليأكل، فقدَّم له هولاكو طبقًا فيه ذهب، فقال الخليفة: وهل يُؤكل الذهب؟ فقال له هولاكو: إذا كنت تعرف أنه لا يؤكل؛ لِمَ لمْ توزِّعه على جُندك؟ لِمَ لمْ تحوِّل به أبواب بغداد الحديدية إلى سهام ترمي بها أعداءك؟ لِمَ لمْ تحم مملكتك بهذا الذهب؟ لِمَ لمْ تخرج إلى نهر جيحون تمنعني من قدوم بلادك؟ فقال: هكذا قدَّر الله، فقال له هولاكو: وما سينزل بك هو ما قدَّره الله.

كان من عادة المغول أنهم لا يقتلون الأمراء والملوك، أي لا يريقون دماءهم، بل

يخنقونهم خنقًا، أو يرفسونهم بالأرجل، فأمر هولاكو بالخليفة أن يُوضع تحت أرجل الخيل لترفسه، ففعلوا به ذلك، فمات رفسًا بأرجل الخيل، وهكذا سقطت بغداد، وسقطت الخلافة العباسية، وكان ذلك سنة (**656** هـ)، وكان سقوطها طعنةً قويةً في قلب الأمة الإسلامية.

لم يكتفِ المغول بخراب عمران بغداد وإحراقها، وهدم حضارتها، بل أمروا بمكتبة بغداد أن تُحرق، وأن توضع في دِجلة، تلك المكتبة العظيمة التي بناها هارون الرشيد، وكان فيها ملايين الكتب الإسلامية، كان فيها عُصارة الفكر الإسلامي كله، عُصارة سبعة قرون، ملايين من كتب الفقه والتفسير والحديث، واللغة والطب، والرياضيات والفلك، والكتب المترجمة من العلوم الأخرى، وضعوها في دِجلة، فتغيَّر لون مائه أيامًا.

وقد كان الجندي المغولي يعبر إلى ضفة النهر الأخرى مشيًا على تلك الكتب، وذلك لكثرتها، ولم تكن ثمَّ مكتبة تُضاهي مكتبة بغداد في العالم الإسلامي إلا مكتبة قرطبة في الأندلس، وكانت قرطبة قد سقطت بأيدي الصليبيين قبل بغداد بنحو (**20**) سنة، ولـمَّا سقطت قرطبة أُحرقتْ مكتبتها أيضًا على يد أحد القساوسة، وكذا فعل الصليبيون بمكتبة طرابلس في لبنان، وبمكتبة القدس وغزة لـمَّا دخلوها، وبغيرها من المكتبات الإسلامية، سقطت الخلافة العباسية، وقتل الخليفة العباسي، وضاع مُلك خمسة قرون.

سقطت بغداد بعد أن ابتعد حكامها عن تحكيم شرع الله تعالى، وانغمسوا في ملذات الدنيا ومتاعها، وتركوا فريضة الجهاد، وكفى بهذا سببًا لسقوط الدول وزوالها، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإسراء: (آية: **16**) سقطت بغداد بعد أن خذلها بعض الأمراء المسلمين من السلاجقة وغيرهم، وآثر بعضهم الدخول تحت لواء المغول في حربهم ضد المسلمين؛ ليبقوهم في إماراتهم، مرتكبين بذلك أكبر خيانة للأمة الإسلامية ولدينهم وعقيدتهم، ولقد كانت الفرق الباطنية في مصر والشام عونًا للحملات الصليبية عليها، أما في بغداد فكان النصارى أعوانَ المغول وعيونَهم، لذا علتهم الفرحة بسقوطها، ونالوا احترام المغول واهتمامهم.

الأيوبيون والمغول

بعد أن استولى المغول على بغداد، وفعلوا بها ما فعلوا؛ عزموا على اجتياح بلاد الشام من الشمال، فوضعوا أعينهم على الجزيرة الفراتية للاستيلاء عليها، وكان الملك الكامل الأيوبي، حاكم ميَّافارقين[1] لـمَّا سمع بتهديد المغول لبغداد؛ عمل على تشكيل جبهة شامية، ونجدة بغداد قبل أن يدخلها المغول، فذهب إلى الناصر يوسف الأيوبي، حاكم دمشق آنذاك، وأشار عليه بتسيير جيش إلى بغداد، لكنَّ الأخير لم يوافق على مشروعه، بل آثر الخضوع والخنوع للمغول، فرجع الكامل إلى ميَّافارقين، وعزم على التصدي للمغول، بعد أن بلغه سقوط بغداد[2].

لـمَّا وصل هولاكو بجيوشه إلى الجزيرة الفراتية؛ أرسل إلى الكامل يدعوه إلى الخضوع والطاعة، وتسليم بلاده دون قتال، لكنَّ الكامل أبى ذلك؛ لما علمه من غدر المغول وخيانتهم، فحاصر هولاكو ميَّافارقين، وأخذ يوجه ضرباته إليها، تشاركه في ذلك فرق أرمنية، وقوى مسيحية شرقية، فقام الكامل في شجاعة نادرة، يحرِّضُ أهلها على الجهاد والثبات، فاستبسل أهلها في الدفاع عنها، وصمدت المدينة أمام ضربات المغول، حتى أعجزتهم، لكنها لـمَّا طال حصارها، ونفذت أرزاقها، وعمها القحط والجدب، وتهدمت أسوارها، ولم تصلها أيُّ نجدة من المسلمين حولهم؛ سقطت بأيدي المغول، ولما دخلها المغول وجدوا جميع أهلها أمواتًا، إلا الكامل وبعض رجاله، فقبضوا عليه، وقتلوه شرَّ قِتلة، حيث أخذوا يقطعون لحمه قطعًا صغيرة، ويضعونها في فمه، ثم قطعوا رأسه، وطافوا به في البلاد، حتى وصلوا به دمشق، وعلقوه على باب الفراديس[3]، وذلك سنة: (**657** هـ)[4].

استولى بعدها المغول على مدينة ماردين، وعلى غيرها من مدن الجزيرة الفراتية، وكانت حلب أول مدينة شامية اكتوت بنار المغول، وواجهت عاصفتهم[5]، وبعد سقوطها؛ استولى المغول على حماة، ثم دخلوا دمشق، بعد أن تركها الناصر يوسف الأيوبي، وهرب

1- تقع الآن في الجنوب الشرقي من تركيا.

2- ينظر مشروع الكامل للتصدي للمغول في الشام: الصلابي، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1430/2009) ص: 92.

3- أحد أبواب دمشق السبعة.

4- الغامدي، عبد الله سعيد، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه نوقشت عام: 1407) ص: 75.

5- المصدر السابق، ص: 87.

إلى غزة، وبعد ذلك أصبحت السيطرة على باقي المدن الشامية مسألة وقت لا أكثر.

في هذا المقام أظهر نصارى بلاد الشام فرحتهم بما حل بالمسلمين، ونادوا بارتفاع دينهم على دين المسلمين، ورشوا الخمر على أبواب المساجد، وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل أهانوه، وأغصبوه عليه، وأظهر نائب هولاكو تعاطفه معهم، وفرحته بفعلهم[1]، وهرب عامة أهل الشام إلى مصر، لهول ما شاهدوه من بطش المغول وتوحشهم، وكان واقع مصر حينها ينبئ بظهور قيادة جديدة، يمكن أن يعولَّ عليها في مواجهة المغول، وكان حكمها قد آل إلى المماليك.

1- المصدر السابق، ص: 102.

المبحث الثاني:
دولة المماليك (648 - 923/1250 - 1517)

أصل المماليك

المماليك سلالة من الجنود الأتراك والأعاجم، جُندوا في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، ثم كثر عددهم زمن العباسيين، وبنى لهم المعتصم مدينة سامراء، ثم جاء نجم الدين أيوب بأعداد كبيرة منهم إلى مصر، وجندهم في جيشه، بل جعلهم عمدة الجيش الأيوبي، وسرعان ما شكل هؤلاء المماليك نواةً عسكرية، تحولت بعد بضع سنين إلى دولة المماليك، التي قدِّر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي، بل وفي تاريخ المنطقة كلها؛ لما يزيد على قرنين ونصف من الزمن[1].

كان أول ظهور حقيقي للمماليك على الساحة المصرية؛ عند تصديهم للحملة الصليبية السابعة، مع الملك الأيوبي تورانشاه، عام: (**648** هـ) عندما أظهروا بسالة منقطعة النظير في جهادهم الصليبيين، وكان من ذلك؛ أن استولوا على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين، وقتلوا جميع بحارتها، فكان ذلك مما أضعف الصليبيين، واضطرهم لطلب الصلح، فارتفع بذلك شأن المماليك بين المسلمين، وعلا صيتهم[2]، وبقتل الملك: تورانشاه بعد ذلك؛ زالت الدولة الأيوبية، كما ذكرت سابقًا، وآل حكم مصر إلى المماليك.

شجرة الدر

كان أول من رقي عرش مصر من المماليك الملكة: شجرة الدر، وهي جارية أرمنية، تزوجها حاكم مصر: نجم الدين أيوب بعد أن أعتقها، وكانت تتمتع بحنكة سياسية نادرة، مكنتها من القيام بدور خطير، زمن الحملة الصليبية السابعة على مصر، حيث توفي خلالها زوجها نجم الدين أيوب؛ فأخفت خبر موته عن الجيش المصري؛ حتى لا يضعف ويتخاذل، ويفلت الأمر من أيدي قادته، وعهدت بقيادة الجيش إلى الأمير فخر الدين، وبهذا التدبير الحكيم استطاعت أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، حتى انجلى الصليبيُّون عن مصر، وبعدها تم تنصيبها ملكةً على مصر، وخطب لها على المنابر، الأمر

1- ينظر في ذلك: الصلابي، السلطان سيف الدين قطز، مصدر سابق، ص: (21 -24).
2- المصدر السابق ص 37،40، 43.

الذي لم يُرضِ الخليفة العباسي في بغداد، ولا المسلمين في مصر، فثاروا عليها، حتى خلعت نفسها، وتنازلت عن الحكم لصالح الأمير: عز الدين آيبك، بعد أن تزوجته، وكان للشيخ العز بن عبد السلام (ت: **660** هـ) دور بارز في خلعها[1].

أزعج الأيوبيين في الشام تولي عز الدين آيبك عرشَ مصر، وهم الذين يعتبرون أنفسهم الحكامَ الشرعيين للبلاد، ويرون المماليكَ دخلاء عليهم، فانشقت دمشق وغيرها من المدن الشامية عن مصر، وبدأ النزاع بينهم وبين المماليك، وأصبح ثمت قوتان، الأيوبيون في الشام، والمماليك في مصر، وأدى النزاع بينهم إلى أن يراسل كلٌّ منهم الملك الفرنسي لويس التاسع، ليتحالف معه ضد الآخر، وعرض عليه الناصر يوسف الأيوبي، حاكم دمشق تسليم بيت المقدس له، شريطة أن يقف بجانبه في حربه ضد المماليك، لكن عز الدين آيبك حال دون هذا التحالف، وهدد لويس التاسع بقتل أسرى الصليبيين إن فعل ذلك؛ فالتزم لويس الحياد[2].

بعد أن يئس الناصر يوسف من لويس؛ زحف بجيشه إلى مصر لقتال المماليك، والتقى الجيشان قرب العباسية، ودارت بينهما معركة عام: (**648** هـ) هزم فيها الناصر يوسف، بعد أن انشقت عنه فرقة المماليك العزيزية[3]، وكان لهذه المعركة أثرها في تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة، وتوسعها إلى غزة، وغيرها من المدن الشامية.

استغل لويس التاسع الصراع الإسلامي لصالح الصليبيين؛ فتحالف مع عز الدين آيبك على مناوأة الأيوبيين، وعقد معه اتفاقية عام: (**650** هـ) يطلق بموجبها عز الدين آيبك سراح الأسرى الصليبيين، ويعده بالتنازل له عن مملكة القدس كلها[4]، لكن العداء بين المماليك والأيوبيين لم يُكتب له الاستمرار، حيث ظهر على الساحة عدوٌ جديد للمسلمين، أوجب عليهم أن يتحدوا، وهو ظهور المغول الذين وصلوا مشارف بغداد؛ فأرسل الخليفة العباسي رسولاً نجح في عقد صلح بين المماليك والأيوبيين، وكان هذا

1- السرجاني، راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1427/2006) ص: 229.

2- يوسف، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة (القاهرة: دار الكتب الجامعية، ط 3، 1971) ص: ص: 144، 150.

3- طقوش، محمد سهيل، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (بيروت: دار النفائس، ط 2، 1429/2008) ص: 398.

4- الصلابي، السلطان سيف الدين قطز، مصدر سابق، ص: 72.

الصلح بمثابة ضربة، وجهت إلى الملك الفرنسي: لويس التاسع؛ فاضطر بعده لمغادرة فلسطين، والعودة إلى فرنسا، مجروحًا ذليلاً[1].

بعد أن انتصر المماليك على الأيوبيين في وقعة العباسية، عام: (**648** هـ) ظنوا أن البلاد أصبحت ملكهم بلا منازع، وأيقنوا أنهم أصبحوا الحكام الشرعيين لمصر وما حولها، لكنَّ العرب في مصر لم يرضوا بسلطان مسَّه الرق، فقاموا بثورات تطالب بالملك، وكان من أبرز تلك الثورات: ثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب، الذي أقام دولة عربية في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري، لكن المماليك استطاعوا القضاء عليها، ومن ثمَّ أسر أميرها الشريف حصن الدين وقتله[2]، وبذلك تبدد شمل العرب في مصر، وخمدت جمرتهم، ولم تنجح ثوراتهم المستمرة فيما بعد من تغيير واقع مصر المملوكي.

تغيرت العلاقات بين شجرة الدر، وزوجها عز الدين آيبك؛ فأقدمت على قتله، وكان في ذلك حتفها، حيث قتلت بعده على يد ضرتها أم علي، التي نودي بابنها علي -البالغ من العمر خمسة عشر عامًا- ملكًا على مصر[3]، ولم يكن تنصيبه على عرش مصر إلا مسألة وقت، قُصد من ورائها الترتيب لاختيار أحد كبار المماليك حاكمًا لمصر، وشاء الله تعالى -ولا سيما بعد دخول المغول بغداد، واستيلائهم على بلاد الشام- أن يرقى عرش مصر الملك المظفر: سيف الدين قطز؛ ليقود المسلمين إلى نصر عين جالوت، ويدحر المغول[4].

عين جالوت (658 هـ)

أدرك قطز بعد توليه عرش مصر، أن بقاء دولته الفتية منوط باجتياز هذا الاختبار الصعب، المتمثل بالتصدي للغزو المغولي، الذي بات على مشارف مصر؛ فأجرى بعض الإصلاحات والتغييرات في المناصب الإدارية والقيادية في دولته، وأصدر عفوًا عامًا عن

1- غوانمة، يوسف حسن، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج (عمَّان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1995/1415) ص: 78.

2- السيد، محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية (القاهرة: مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، 1988) ص: 131.

3- العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت: دار النهضة العربية، د. ط، 1986/1406) ص: 139.

4- الصلابي، السلطان سيف الدين قطز، مصدر سابق، ص: 86.

كل المماليك البحرية، واستقدمهم من الشام[1]، وسعى لإذابة الخلافات بينه وبين الأيوبيين في الشام، فاستجاب له بعضهم وأبى آخرون، كما استطاع بمراسلته الصليبيين تحييدهم عن معركته القادمة مع المغول، وبذلك أصبحت مصر متأهبة لمواجهة المغول.

أرسل هولاكو إلى قطز رسالة تهديد ووعيد، يطلب فيها تسليم مصر إليه دون قتال، وكانت هذه الرسالة تحدٍ كبير لآخر قيادة إسلامية، يتوقف عليها مصير الإسلام وحضارته؛ فعقد قطز مجلسًا استشاريًا، استمع خلاله لآراء الأمراء والقادة، فاختلفت أقوالهم ومواقفهم، فمن قائل: لا طاقة لنا بقتال المغول، فمملكتهم ممتدة من الصين إلى فلسطين، ولا مناص من مصالحتهم، ومن قائل: إمَّا أن نُسلم بلادنا إليهم، أو أن نرحل إلى المغرب، وكان رأي القائد بيبرس أن يخوضوا الحرب معهم، وقال: إنِ انتصرنا فبفضل من الله، وإن كانت الأخرى مُتنا كُرماء، وهذا ما اختاره قطز، وكانت الحرب.

عمد قطز إلى رسل المغول فقتلهم، وعلَّق رؤوسهم على أبواب القاهرة؛ ليقطع بذلك كل مجالٍ للتردد في خوض الحرب؛ قائلاً للناس: لن يقبل منا المغول الصلح بعد هذا الفعل، حتى لو طلبناه منهم، ولا نستطيع الرحيل إلى المغرب لبعدها عنَّا، فما لنا إلا الحرب، فاستعدوا لها، وكان للعز بن عبد السلام موقفٌ عظيم في هذه الحرب، حيث أخذ يحرِّض الناس على الجهاد، فاستعد المسلمون لها أيَّما استعداد.

اتبع قطز استراتيجية جديدة لمواجهة المغول، بعد أن رأى أن مجرد الدفاع والتمترس داخل المدن لا يكفي، كما فعل المسلمون سابقًا، من الخوارزميين وغيرهم ممن اكتوى بنار المغول، بل لا بد من المواجهة والمنازلة؛ فاختار لذلك النزال مكانًا مناسبًا على أرض فلسطين هو عين جالوت، وجعل على قيادة الجيش: القائد بيبرس، وبعد أن تجمعت حشود الجيوش الإسلامية عند قطز؛ أرسل كتيبة بقيادة بيبرس إلى غزة لقتال الحامية المغولية فيها، فاشتبك بيبرس معها، وأوقع بها هزيمة نكراء، كانت أول معركة ينتصر فيها المسلمون على المغول، كما كان لها وقعٌ حسنٌ في نفوس جيش المماليك، حيث كانت مقدمةً للمعركة الكبرى.

1- كانت قد وقعت فتنة، زمن السلطان المملوكي الأول: عز الدين آيبك، بين المماليك المعزية –نسبة إليه– والمماليك البحرية –التي أنشأها نجم الدين الأيوبي– أدت لقتل زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي، بعد أن كان يطمح للوصول إلى السلطة، وبعد قتله فرَّ أكثر أنصاره إلى الشام، وعلى رأسهم القائد بيبرس البندقداري، ثم عفا عنهم قطز، واستقدمهم؛ ليكونوا من جنده في حربه على المغول، ينظر: المصدر السابق، ص: ٧٨.

في الخامس والعشرين من شهر رمضان، عام:(**658** هـ)، وصل قطز بجيشه إلى عين جالوت، وكان يدرك تفوق جيشه على جيش المغول في العدد؛ لذا أخفى عنهم قواته في التلال المحيطة، ولم يعرض إلا مقدمةَ جيشه، ليستدرجهم قائدُها بيبرس بتقهقره إلى التلال المحيطة، فاشتدت مطاردة المغول لهم، ووقعوا بذلك في فخ قطز، فأحاطت قواته بالمغول، وهناك دارت معركة عين جالوت.

اضطربت قوات المماليك بداية المعركة، وانكسرت ميسرتهم كسرة شنيعة، فأردف قطز الميسرة بنفسه، وحمل بعساكره على المغول حتى جبر كسر ميسرته، وأخذ يصيح في الجيش قائلا: وا إسلاماه، ويدعو الله، ويكبِّرُ في المسلمين، حتى كُسر المغول فتراجعوا، ثم تجمَّعوا أخرى، فهزمهم المسلمون، وقتلوا أكابرهم، ونزل بعدها قطز عن فرسه، وصلَّى ركعتين، ومرَّغ وجهه في التراب، ودعا الله تعالى، وكبَّر في المسلمين، ثم تجمَّع المغول ثالثة، فكان لهم بيبرس بالمرصاد، وهاجمهم بكل شجاعة وثبات، حتى أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم المغول، وغنم منهم بيبرس أموالاً عظيمة، وأسر منهم من أسر، وكان ممن وقع في الأسر: قائد المغول: (كتبغا)، فقتله قطز، وزال بذلك خطر المغول، ثم تبع قطز فلولهم، حتى دخل بجيشه دمشق، فاستتب الأمن فيها وعمَّ.

لم يكتفِ قطز بكل ذلك، بل أرسل مقدمةَ جيشه بقيادة بيبرس لتتبُّع الفارين من المغول، واستطاع بيبرس في بضعة أسابيع تطهير بلاد الشام من رجسهم، حتى أوصلهم إلى أعالي بلاد الشام من الجزيرة الفراتية، وأعلن بعدها قطز توحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة تحت زعامته، خُطب له على منابرها، وقد نزلت هزيمة المغول على رأس هولاكو كالصاعقة، فحاول بعدها أن يمحو هذا العار، بإرسال حملة مغولية جديدة إلى بلاد الشام؛ لكن الظروف لم تمكنه من ذلك؛ لانشغاله في حروب منافسيه على السلطة، ومات عام: (**663** هـ) دون أن يحقق حلمه، بضم مصر والشام إلى مملكته.

تعد معركة عين جالوت الحدث الأبرز، الذي مكَّن أيدي المماليك في الحكم، ارتفعت بعده أسهمهم في أعين المسلمين، وأعادوا بها للإسلام هيبته ومكانته أمام الدول، واستطاعوا توحيد مصر والشام في دولة واحدة، والقضاء على كل منافسيهم على الحكم من الأيوبيين وغيرهم، وأنقذوا العالم الإسلامي من خطر عظيم؛ بل لقد أنقذوا أوربا من شر المغول، إذ لو تمكن المغول من مصر، ومن الشمال الإفريقي؛ لتمكنوا من

عبور الطريق التقليدي إلى أوربا[1].

مقتل قطز وتولي بيبرس

إن المتأمل في تاريخ دولة المماليك يجد أن القتل وسفك الدماء؛ كان الطريق إلى ارتقاء عرشها، فقد ارتقت شجرة الدر سلطة العرش بعد قتل الملك الأيوبي الأخير: تورانشاه، ثم قتلت زوجها أول الأمراء المماليك، ثم قتلت هي بعده، ثم قتل الملك المظفر قطز، على يد قائد جيشه بيبرس؛ ثأرًا للأمير المملوكي فارس الدين أقطاي، الذي قتله قطز سابقًا، كما ذكر ذلك بعض المؤرخين[2]، وارتقى عرش مصر بعد قطز القائد بيبرس، الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، لما حققه من إنجازات سياسية، وإدارية كبيرة، ودام حكمه سبعة عشر عامًا.

دامت دولة المماليك (**270**) عامًا، كانت دولة قد جمعت بين متناقضات كثيرة، سواء في ذلك دولة المماليك الأولى، أي المماليك الأتراك، أم دولة المماليك الثانية، أي المماليك الشركس[3]، فرغم تصديهم للمشاريع الخارجية المناوئة لدولتهم، في الشام ومصر والجزيرة العربية، سواء منها الصليبية أم المغولية؛ فإن دولتهم قد انطوت على كثير من الفساد من داخلها، سواء في ذلك مؤسسات الدولة، أم أفرادها.

أما مؤسساتها فقد شاعت فيها الرشوة شيوعًا فاحشًا، حتى لم تعد الوظائف تُنال فيها إلا بالرشوة، فارتقى لذلك أراذل الناس وسفهاؤهم إلى الوظائف الجليلة في الدولة، سواء في ذلك وظيفة القضاء والحسبة، أم وظيفة نظر الدواوين، أم غيرها[4].

وأما أفرادها؛ فقد شاع الفسق والإقبال على اللهو والمجون عند كثير من سلاطينها وأمرائها، بل وحتى عند كثير من أطياف شعوبها، وحظي عدد من الغواني والجواري على

1- ينظر المعركة بتفاصيلها: الصلابي، السلطان سيف الدين قطز، مصدر سابق، ص: 107، وينظر: السرجاني، قصة التتار، مصدر سابق، ص: 243.

2- الصلابي، السلطان سيف الدين قطز، مصدر سابق، ص: 130.

3- قامت دولة المماليك على مرحلتين، الأولى: مرحلة المماليك البحرية، والثانية: المماليك البرجية، امتدَّ عصر دولة المماليك البحرية بين عامي: (648 - 784 هـ)، وبدأ بعدها عصر دولة المماليك البرجية، وامتدَّ حتى سقوط دولة المماليك على أيدي العثمانيين عام: (923 هـ).

3- وقد ذكر المقريزي (ت: ٨٤٥ ه) أن شيوع البرطيل في الدولة هو أصل الفساد، ورأى أنه أول أسباب التدهور الاقتصادي في الدولة، ينظر: المقريزي، أحمد بن علي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: كرم حلمي (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ١٤٢٧/٢٠٧) ص: ١١٧.

مكانة عالية في القصور السلطانية، وأُنفق عليهن الكثير من أموال الدولة، لا سيما زمن السلاطين من أبناء الناصر محمد بن قلاون (ت: **741** هـ) الذين أقبلوا على اللهو والمجون، وقد اشتهر من تلك المغاني: اتفاق، التي تزوجت ثلاثة من السلاطين على التوالي، وكيدا، وسلمى، وغيرهن ممن جمعن ثروات طائلة من السلاطين أبناء الناصر بن قلاون.

وحدث مثل ذلك الفساد وأكثر في عهد الدولة الثاني، عهد المماليك الشركس، فقد جعل برقوق (ت: **801** هـ)، وهو أول سلاطين دولة المماليك الشركس؛ جعل الخمر شعار دولته[1]، وانتشرت الرشوة في عهد السلاطين بعده؛ انتشارًا لم تعهده الدولة من قبل، وكان ذلك الفساد من أبرز أسباب سقوطها فيما بعد بيد العثمانيين.

كان من أقبح الفساد الذي انتشر زمن المماليك ما سمي بضمان المغاني، وهو تقنين الدولة لفاحشة الزنى، فكانت كل امرأة، جليلةً كانت أم وضيعة، تدفع الضمان (الضريبة) لضامنة المغاني، وتمارس بعده البغاء، دون أن ينكر ذلك أحد؛ لأن هذا الفعل كان يجري تحت حماية الدولة، التي تأخذ تلك الضريبة[1]، وقد كانت هذه الضريبة تُلغى ثم يُعاد فرضها؛ وذلك تبعًا لطبيعة السلطان صلاحًا وفسادًا، واستمر ذلك الحال حتى سقوط الدولة على أيدي العثمانيين.

وإضافة إلى ذكر جانب من الفساد، الذي انطوى عليه تاريخ دولة المماليك؛ فقد قدم كثير من سلاطينها للإسلام وحضارته خدامات عظيمة جدًا، حيث استطاعوا القضاء على المشروع المغولي في المنطقة، واستطاعوا تطهير بلاد الشام ومصر من الوجود الصليبي، والقضاء على آخر مملكة صليبية في الشام.

1- ينظر: البيومي، البيومي إسماعيل، النظم المالية في مصر والشام زمن السلاطين المماليك (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1998) ص: 201، وكان المؤلف قد عزاه لابن إياس في: بدائع الزهور، ولم أجده، وينظر: ماجد، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2، 1979) ص: 116، مصلحي، سامية علي، البغاء في مصر في العصر المملوكي (القاهرة: حوليات آداب عين شمس، مج/ 33، 2005) ص: 118.

2- المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1418) 200/1، وينظر: البطاوي، حسن أحمد، المغنيات ودورهن في دولة سلاطين المماليك عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون (القاهرة: مجلة المؤرخ العربي، ع/20، 2012) ص: 368، وينظر: مصلحي، البغاء في مصر، مصدر سابق، ص: 114.

ويعد عهدهم العلمي من العهود الزاهرة، وآثارهم العلمية والعمرانية شاهدة على تاريخهم المجيد، رغم ما وصفه الصليبيون من أنه عهد انحطاط وركود؛ إذ يكفي لدحض وصفهم هذا؛ الحركةُ العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالنووي، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، والسبكي وابنه، وابن خلدون، والسيوطي، وغيرهم.

الفصل الثامن:
الدولة العثمانية

المبحث الأول: أبرز السلاطين العثمانيين

المبحث الثاني: فتح القسطنطينية والسلاطين بعدها

المبحث الثالث: العثمانيون والشمال الإفريقي

المبحث الرابع: اضمحلال الدولة العثمانية

المبحث الأول:
أبرز السلاطين العثمانيين

تمهيد: تعرض تاريخ الدولة العثمانية للتشويه والتحريف من قبل عدد من المؤرخين الأوربيين واليهود، والأتراك والعلمانيين وغيرهم، ورغم اختلاف مشارب هؤلاء المؤرخين؛ إلا أنهم اجتمعوا على تزوير تاريخ السلاطين العثمانيين، وقد كان للمحافل الماسونية قصب السبق في كل ذلك.

يرجع نسب السلاطين العثمانيين إلى قبيلة تركمانية، تعود أصولها إلى تركمانستان، كانت تزاول الزراعة والرعي، ونتيجة لمجيء الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان، بداية القرن السابع الهجري؛ هاجر سليمان جد عثمان المؤسس مع قبيلته من كردستان، وسكن مدينة أخلاط[1] في بلاد الأناضول، وبعد وفاة سليمان؛ تابع ابنه أرطغرل الفرار بقبيلته من بطش المغول، متجهًا إلى الشمال الغربي من بلاد الأناضول، وهو في طريقه سمع جلبةً وضوضاءً؛ فلما دنا منها، وجد قتالاً بين سلاجقة الروم المسلمين والنصارى، كانت الغلبة فيه للنصارى؛ فنزل لنجدة إخوانه المسلمين، واستطاع أن يرجح الكفة لصالح المسلمين السلاجقة وينصرهم[2].

قدَّر السلاجقة هذا الموقف لأرطغرل؛ فأقطعوه أرضًا على الحدود الغربية للأناضول، بجوار الثغور الرومية، وأتاحوا له فرصة التوسع في بلاد الروم، وقامت بينهم وبين السلاجقة علاقة حميمة؛ نتيجة لوجود عدو مشترك لهم في الدين والعقيدة، واستمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، وبعد وفاته عام: (**699** هـ) خلفه ابنه عثمان، الذي سار على سياسة أبيه في التوسع في أرض الروم.

عثمان مؤسس الدولة العثمانية (699 - 726 هـ).

ولد عثمان بن أرطغرل عام: (**656** هـ)، في السنة التي سقطت فيها بغداد بأيدي

1- تقع مدينة أخلاط شرق تركيا الحالية، بالقرب من بحيرة وآن في أرمينيا، ينظر: الصلابي، علي الصلابي، الدولة العثمانية (بيروت: دار المعرفة، ط 6، 1431 هـ، 2010 م) ص: 41.

2- ينظر: أبو غنيمة، زياد أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، (عمان: دار الفرقان، ط 1، 1983/1403) ص: 36، وقد ذكر محمد حرب أن تلك المعركة كان يخوضها السلاجقة مع الخوارزميين وليس مع البيزنطيين، ينظر: حرب، محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، 1994/1414) ص: 10، وكذا ذكر محمد سهيل طقوش، ينظر كتابه: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (بيروت: دار النفائس، ط 3، 2013/1434) ص: 25.

المغول، وبظهوره على ساحة الأحداث؛ بدأت قصة التمكين للدولة العثمانية لِما كان يتمتع به من صفات قيادية فذَّة؛ مكنته من النهوض بدولته الناشئة، والعبور بها إلى برِّ الأمان، في وقت كانت البلاد حوله تعيش حروبًا طاحنة، فقد تحالف مع أمير دولة (سلاجقة الروم)، واستقطب الجماعات الجهادية المرابطة على ثغور الروم، كجماعة: (الإخيان) و(غزيا روم)[1]؛ وحقق انتصارات كبيرة على الروم؛ مما نبَّههم لهذا الخطر الإسلامي الجديد، الذي أطل برأسه على تخوم بلادهم؛ فتحالفوا ضده، لكنه استطاع هزيمتهم، والتوسع أكثر في بلادهم.

ولقد كان من أبرز ما فعله هذا القائد الكبير لدولته الناشئة؛ أن أوجد لها منفذًا على بحر مرمرة؛ واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في زمانه: أزنيق وبورصة[2]، ولعل أبرز ما يكشف لنا شخصيته؛ وصيته التي كتبها لابنه أورخان قبل وفاته عام: (**726** هـ)، والتي أصبحت منهاجًا سار عليه العثمانيون بعد ذلك؛ لما اشتملت عليه من الدعوة للاهتمام بالعلم والعلماء، ومواصلة الجهاد في سبيل الله، وبناء المؤسسات العلمية والعسكرية، وغيرها من الأمور[3].

أورخان بن عثمان (726 – 761 هـ)

تولى أورخان الحكم بعد وفاة أبيه عثمان، وسار على نهجه في الحكم والفتوحات، واستطاع فتح بورصة وأزنيق، وقد كان فتحهما نقطة تحول في الإمارة العثمانية الصغيرة، نقلها من مرحلة العشيرة وعاداتها، إلى مرحلة الكيان السياسي المتكامل الأركان[4]، وقام أورخان بتأسيس أول جامعة إسلامية في الدولة العثمانية، إضافة لتأسيسه جيشًا نظاميًا كبيرًا، يكون على استعداد دائم في حالة الحرب والسلم، وجعل له نظامًا خاصًّا، ثم أضاف إليه جيشًا آخر، عُرف باسم: (الانكشاية)[5] شكله من

1- الإخيان وغزياروم: جماعات كانت ترابط على حدود الروم، منذ العصر العباسي، وتصد هجماتهم عن المسلمين، كان منهم بعض التجار الذين يقدمون أموالهم لذلك، ينظر: المصدر السابق، ص: 44.

2- ينظر: كولن، صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، (القاهرة: دار النيل، ط 1، 2015/1435) ص: 7.

3- ينظر: أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: (18-23)، وينظر: حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مصدر سابق، ص: (11 -12).

4- ينظر: السيد، سيد محمد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط ١، 2007/1428) ص: (88 - 96).

5- كان من التهم التي وجهت للعثمانيين؛ تشكيلهم هذا الجيش من أطفال النصارى، الذين أجبرهم العثمانيون على اعتناق الإسلام، وقد فنَّد هذه التهمة وردها، أبو غنيمة في كتابه: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: 122، وتأسف من ذكر بعض المؤرخين لها أمثال: محمد كرد علي في كتابه: (خطط الشام) وغيره.

المسلمين الجدد، الذين ازداد عددهم بعد توسع رقعة الدولة[1]، واستطاع أن يخطوخطوة كبيرة في فتح القسطنطينية، استفاد منها من جاء بعده من السلاطين، حيث أقدم على عبور مضيق الدردنيل، والاستيلاء على عدد من قلاعه، ومنها: (غاليبولي)، التي أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا[2].

كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة؛ أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وقد استفاد أورخان من الصراع الواقع بين السلاجقة أنفسهم؛ فضم عددًا من مدنهم لدولته، واستمر الصراع بين السلاجقة والعثمانيين؛ إلى أن تَّم لهم إخضاع آسيا الصغرى كلها لدولتهم، وذلك في أيام السلطان: محمد الفاتح (ت: **886** هـ).

إن المتتبع لسيرة أورخان؛ يجد أنه كان يتمتع بفهم عميق لسنة التدرج في بناء الدول، وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب؛ فبعد أن ضم لدولته عددًا من مدن السلاجقة؛ بقي نحو عشرين سنة دون أن يقوم بأي حرب أخرى، بل كان يعمل على تنظيم جيشه، وتعزيز الأمن في دولته، وبناء المساجد، ورصد الأوقاف عليها، وإقامة المنشآت العامة، وغيرها من الأمور.

مراد الأول (761 - 791 هـ)

تولى حكم العثمانيين بعد أورخان؛ السلطان مراد الأول، المعروف بتدينه وشجاعته، وشغفه بالجهاد، وبناء المساجد والمدارس، ويعدُّ من أقوى السلاطين العثمانيين، حيث استطاع هزيمة أعدائه في آسيا وأوربا هزائم متتالية، وتوسعت الدولة العثمانية في زمانه توسعًا كبيرًا، ففي أوربا استولى على مدينة (أدرنة) ثاني مدينة في الدولة البيزنطية بعد القسطنطينية، واتخذ منها عاصمة لدولته[3]، وبقيت عاصمتهم؛ حتى فتح محمد الفاتح القسطنطينية، عام: (**857** هـ)، وجعلها عاصمة العثمانيين.

كان لانتصارات السلطان مراد الأول أصداء بعيدة في أوربا؛ فتكون ضده تحالف صليبي أوربي، باركه بابا الفاتيكان، لكن السلطان مراد استطاع هزيمته على (نهر

1- ينظر: مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، (بيروت: دار الشروق، ط 3، 1406/1986) ص: 43.

2- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 92، ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 45.

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 98، وينظر: كولن: سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 19.

مارتيزا)[1]، وفتح بعده مقدونيا، وتوسع في أوربا؛ حتى جنوب بلغاريا، وشرق صربيا، وترتب على هذه الهزيمة؛ توقيع بعض جيران الدولة العثمانية معاهدة صلح معها، حيث بادرت جمهورية (راجوزه) بذلك، وتعهدت بدفع جزية سنوية، قدرها: (**500**) دوكا ذهب[2].

أمام انتصارات السلطان مراد الكبيرة في أوربا؛ جمع التحالف الصليبي قواه مرة ثانية، وهاجم الجيش العثماني، الذي كان على أهبة الاستعداد؛ فهُزم التحالف الصليبي مرة ثانية، وذلك في موقعة: (قوصوه)[3]، عام: (**791** هـ)[4]، وبعد هذا الانتصار الكبير للسلطان مراد، أخذ السلطان وجنوده يتجولون بين صفوف القتلى؛ فألقى الجنود القبض على جندي صربي يتظاهر بالموت، فادعى أنه يريد إعلان إسلامه أمام السلطان، ولما جيء به إلى السلطان؛ تظاهر أنه يريد تقبيل يد السلطان، ثم أخرج خنجره، وطعن السلطان؛ فأرداه قتيلاً، وكان لهذه المعركة نتائج بعيدة المدى على الفتوحات العثمانية، حيث انساحت بعدها الجيوش العثمانية في بلاد البلقان، وغيرها.

بايزيد الأول (791 – 805 هـ)

تولى السلطان بايزيد الحكم بعد وفاة أبيه السلطان: مراد الأول، وسار على نهجه في الجهاد، ومتابعة الفتوحات الإسلامية، وكان يتنقَّل بين جبهاته في الأناضول والبلقان كالبرق، لذا لقِّب بـ (الصاعقة)، وفي عهده أصبحت كل الإمارات المسيحية في الأناضول تابعة للدولة العثمانية.

أقام السلطان بايزيد علاقة ودية مع الصرب، جعلهم بها حاجزًا بينه وبين المجر، ثم وجه بعد ذلك ضربة خاطفة لبلغاريا، استطاع بها ضمها لدولته، وذلك عام: (**797** هـ)، وأمام هذه الانتصارات الكبيرة؛ دعا ملك المجر وبابا الفاتيكان لتكتل أوربي صليبي ضد الدولة العثمانية، وتجمع حولهم أكبر تكتل صليبي واجهته الدولة العثمانية في تاريخها، دارت المعركة بينهما في (نيكوبوليس) عام: (**800** هـ) هزم فيها التحالف الصليبي شَّر

1- نهر مارتيزا أو مارتيسا: ينبع من غرب بلغاريا، ويصب في بحر إيجه.
2- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 48، وينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 101.
3- قوصوه: هي كوسوفا الآن.
4- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 109، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 49

هزيمة، وفرَّ ملك المجر هاربًا، ووقع الكثير منهم في الأسر، وغَنِمَ فيها العثمانيون غنائم وفيرة[1]، وبعد موقعة (نيكوبوليس) تضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوربي، وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة، وعلا صيت السلطان بايزيد في العالم الإسلامي، واتخذ لنفسه لقب (ملك الروم) دليلاً على وراثته لدولة (سلاجقة الروم) وسيطرته على كل شبه جزيرة بلاد الأناضول، وهاجر إلى دولته آلاف المسلمين، لا سيما الذين فرّوا من زحف تيمور لنك، في آسيا الوسطى.

بعد أن انتصر بايزيد في موقعة (نيكوبوليس)، وثبَّت أقدام دولته في البلقان؛ أخذ يعاقب حكام شبه جزيرة المورة، الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي ضده، كما طلب من الامبراطور البيزنطي تسليم القسطنطينية؛ لموقفه المعادي من العثمانيين، وقد كان الاستيلاء على القسطنطينية هدفًا رئيسًا في البرنامج الجهادي للسلطان بايزيد، فرفض الإمبراطور ذلك، واستنجد بأوربا، لكن دون جدوى؛ ففرض عليها بايزيد حصارًا محكمًا؛ أوشكت فيه المدينة على السقوط؛ لولا ظهور تيمور لنك[2] في الشرق، وضربه مؤخرة الجيش العثماني؛ مما اضطر بايزيد لفك الحصار عنها؛ "بعد قَبول الإمبراطور البيزنطي لزيادة الخراج السنوي، وإقامة حي عثماني في القسطنطينية، وبناء جامع للمسلمين الموجودين فيها، وتعيين قاضٍ مسلم للفصل في القضايا التي تنشب بين المسلمين والروم"[3].

توجه بايزيد شرقًا؛ لمواجهة الخطر المغولي، والتقى بايزيد بجيش تيمور لنك قرب: (أنقرة) عام: (**804** هـ)، هزم فيها هزيمة كبيرة؛ لنظراً لاندفاع بايزيد، وعدم اختياره مكاناً مناسباً لجيشه، ووقع بايزيد وعدد من حاشيته في الأسر، ومات في أغلاله؛ فعمت الفرحة بذلك الدول النصرانية في الغرب، واعتقدوا أنهم قد تخلصوا من الخطر العثماني إلى الأبد؛ فأخذوا يرسلون إلى تيمور لنك، يهنئونه بانتصاره على بايزيد، وأخذ تيمور لنك يذكي نار الفتنة بين أبناء بايزيد، الذين اختلفوا بعده على الحكم؛ ليزيد من

1- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 53، ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 121.

2- تيمور لنك: أحد ملوك المغول، تولى عرش خراسان عام: (1369 م) واستطاع توسيع دولته؛ فشملت القسم الأكبر من العالم الإسلامي، حيث انتشرت قواته من دلهي إلى دمشق، ومن بحر آرال إلى الخليج العربي، كما استولى على فارس وأرمينيا، وغيرها من البلاد، وباعتباره مسلماً وجَّه رسالة إلى السلطان بايزيد، يدعوه فيها للدخول في طاعته، كما دعاه بايزيد لذلك، ولما لم يتوصل الطرفان لحل؛ وقعت الحرب بينهما.

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 122، وينظر: كولن: سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 31.

ضعف العثمانيين؛ فاستمرت الخلافات بينهم أكثر من عشر سنوات، وقد كانت هزيمة العثمانيين في أنقرة نقطة تحول في تاريخهم، دخلوا بعدها مرحلة صعبة، كانت من أخطر المراحل التي مرت بها الدولة العثمانية، أطلق عليها المؤرخون العثمانيون: "عصر الفتور والضعف"[1].

محمد الأول (804 -824 هـ)

كانت مرحلة الخلافات بين أبناء بايزيد الأول مرحلة اختبار وابتلاء للدولة العثمانية، سبقت مرحلة التمكين الفعلي لها، المتمثل بفتح القسطنطينية؛ حيث تولى الحكم بعد ذلك السلطان: محمد الأول، الذي يعتبره بعض المؤرخين: المؤسس الثاني للدولة العثمانية، حيث حافظ على سفينة الإمبراطورية حين هددها طوفان الغزوات التترية[2]، وأفشل محاولات تيمور لنك في تفكيك الدولة العثمانية، وجعْلِها تابعة له، وبعد تفرده بالحكم قضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة، وتوطيد أركانها من جديد؛ بعد أن هزتها حملة تيمور لنك، وكادت تقضي عليها[3]، كما استطاع القضاء على الثورة التي قامت على أفكار بدر الدين محمود بن إسرائيل.

بدر الدين محمود بن إسرائيل

ولد بدر الدين محمود زمن السلطان مراد الثاني، وتعلم العلم على يدي والده، الذي كان قاضيًا في الجيش العثماني، ثم رحل في البلاد الإسلامية طلبًا للعلم، فحج البيت الحرام، وجاء مصر، ثم عاد إلى بلده؛ فعينه الأمير موسى -أخو السلطان محمد- قاضيًا على عسكره، ثم قتل موسى، وحبس بدر الدين محمود في أزنيق؛ فاستغل ضعف الدولة بعد حملة تيمور لنك، وانشغالها بالخلافات الداخلية؛ فطمع في الحكم، وبدأ يدعو إلى مذهبه الفاسد، وكان مما يدعو إليه؛ المساواة بين الناس في الأموال والأمتعة والأديان، وكان يقول: لا فرق بين المسلم وغيره في العقيدة، فالناس إخوة مهما اختلفت عقائدهم، وهذا ما تدعو إليه الماسونية[4].

1- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 55 وما بعدها، ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 131، وينظر: كولن: سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 32، وينظر: آصاف، عزتلو يوسف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ط 1، 2014) ص: 44.

2- ينظر: كولن: سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 39، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 62.

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (136-139).

4- لبدر الدين محمود كتاب يدل على مذهبه وأفكاره، اسمه: (واردات الإلهام).

انضم لدعوته عدد كبير من الناس، وغالى فيه أصحابه؛ حتى نسبوه إلى النبوة، ولـمَّا شاع أمره بين الناس؛ عمل السلطان محمد على مواجهته؛ فهرب إلى بلغاريا، وفيها أخذت تفد إليه المعونات الغربية، واستطاع وأتباعه القيام بثورة حقيقية ضد الدولة العثمانية، استطاع السلطان محمد القضاء عليها، وأسر بدر الدين، والحكم عليه بالإعدام؛ بناء على فتوى العلماء، التي استندت إلى حديث رسول الله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم؛ فاقتلوه»[1].

بعد هذه الخدمات الجليلة، التي قدمها السلطان محمد الأول للدولة العثمانية، وأعاد بها للدولة مكانتها، وقوتها؛ فاجأه الموت في مدينة أورنة، عام: (**824** هـ)[2].

مراد الثاني (824 – 855 هـ)

تولى السلطان مراد الثاني الحكم بعد وفاة أبيه، وعمره: ثماني عشرة سنة، وكان تقيًّا عادلاً، محبًا للجهاد، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوربا، استطاع في بداية حكمه القضاء على حركات التمرد، التي قادها عمه مصطفى، بدعم من الإمبراطور البيزنطي، وأعاد الدولة إلى ما كانت عليه قبل معركة أنقرة، ثم واصل جهاده بعد ذلك، فوطد دعائم حكمه في بلاد اليونان، وقضى على التمرد في بلاد البلقان، واستولى عام: (**834** هـ) على ألبانيا الجنوبية، واستعصى عليه الجزء الشمالي منها، وهزم فيه مرتين؛ لدعم الدول الأوربية لها، كما استطاع هزيمة المَجريين، وأسر عدد من جنودهم، لكنه أخفق في الاستيلاء على بلغراد عاصمة الصرب.

أمام هذه الانتصارات الكبيرة للسلطان مراد الثاني؛ تشكل في أوربا حلف صليبي كبير، باركه بابا الفاتيكان، جعل هدفه الأول طردَ العثمانيين من أوربا كلها، واستطاع هذا الحلف أن يوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين، عام: (**846** هـ) واضطر العثمانيون بعدهما لطلب الصلح، وأبرمت بينهما معاهدة صلح عام: (**848** هـ)، مدتها عشر سنين، تنازل فيها العثمانيون عن الصرب، والأفلاق[3].

1- مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، 1480/3، برقم: 1852.

2- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: ص: 145، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 64، وينظر: حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مصدر سابق، ص: 103.

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 155، وينظر: آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصدر سابق، ص: 48.

عاد بعد ذلك السلطان مراد إلى الأناضول، وتنازل لابنه محمد -البالغ من العمر (**14**) عاماً- عن العرش، لكن الأوربيين ما لبثوا أن نقضوا المعاهدة مع العثمانيين؛ بحجة أنها لم توقع بموافقة البابا؛ وقادوا حملة عسكرية ضد العثمانيين؛ عاد على إثرها السلطان مراد إلى العرش، وقاد جيشه لملاقاة الأوربيين، واستطاع هزيمتهم، وقتل ملك المجر، وذلك في موقعة قوصرة، عام: (**852** هـ) وبقي على العرش، حتى توفي عام: (**855** هـ) بعد أن بنى وشيَّد العديد من المساجد والمدارس، وسار بالناس سيرة حميدة[1].

1- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 156، وينظر: كولن: سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 54.

المبحث الثاني:
فتح القسطنطينية والسلاطين بعدها

السلطان محمد الفاتح (855 - 886 هـ)

هو السلطان محمد الثاني، الملقب بالفاتح، تولى السلطة بعد وفاة أبيه، وعمره (22) سنة، ودام حكمه (30) عامًا، كان شخصية فذَّة، جمعت بين العلم والعدل، والثقافة الواسعة، ولا سيما بتاريخ الأمم وأحوالها، انتهج النهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، وكان من أجلِّ الأمور التي عني بها بداية حكمه؛ تطويره الجيش، وإعادة تنظيمه، وتنظيم إدارات الدولة، وتحديد مواردها، وطرق الصرف فيها، فمنع الإسراف والبذخ.

تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته، ولا سيما شيخه المباشر: أحمد بن إسماعيل الكوراني (ت: 893 هـ)، والشيخ آق شمس الدين (ت: 863 هـ)، الذي كان يبث في نفسه حب الجهاد، ويوحي له بأنه المقصود في حديث رسول الله ﷺ: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1]، لذا منذ أن ولي السلطة؛ وضع عينيه على القسطنطينية، وأخذ يخطط لفتحها.

حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل السلطان محمد الفاتح إحدى عشرة مرة، ولم يكتب لهم فيها النجاح، كانت أولى تلك الحملات زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، عام: (44 هـ)، لكنها لم تفلح في فتحها، ثم كانت أعظم محاولة للأمويين لفتحها زمن: سليمان بن عبد الملك، عام: (98 هـ) لكنها لم تفلح أيضًا، وحاول بعدهم العباسيون فتحها ثلاث مرات، ثم العثمانيون مرتين، مرة كانت زمن السلطان بايزيد الأول، ولم يكتب لأحد من أولئك شرف فتحها، حتى منَّ الله سبحانه على هذه الأمة بالسلطان: محمد الفاتح، وكتب له شرف فتحها[2].

فتح القسطنطينية (857 هـ)

بدأ السلطان محمد الفاتح يخطط لفتح القسطنطينية منذ توليه الحكم، وبذل في

1- أحمد، المسند، مصدر سابق، 287/31.

2- ينظر: آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصدر سابق، ص: 52، وينظر: متولي، أحمد فؤاد، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر، د. ط، 2005) ص: 114.

سبيل ذلك جهودًا كبيرة، فبنى جيشًا قوامه (250) ألف مقاتل، مدرَّبًا على فنون القتال المختلفة، وجميع أنواع الأسلحة، كما اعتنى بإعداده إعدادًا معنويًا قويًا، وغرس فيه حب الجهاد، ورغَّبه في فتح القسطنطينية، وذكره بحديث رسول الله ﷺ فيها؛ حتى غدا الجيش مؤهَّلاً للعملية الجهادية المنتظرة، كما اهتم الفاتح بصناعة المدافع، وبناء الأسطول العثماني، وتطويره؛ حتى وصل عدده لأكثر من (400) سفينة، كما بنى قلعة (روملي حصار) على مضيق البوسفور، وعقد معاهدات صلح مع أعدائه المختلفين؛ ليتفرغ لعدوٍّ واحد، لكنها كانت معاهدات لم تصمد، حيث غدر أصحابها؛ عندما بدأ الهجوم على المدينة، وكان الإمبراطور البيزنطي قد استمات؛ محاولاً ثني السلطان محمد الفاتح عن السعي لفتح القسطنطينية، وبذل في سبيل ذلك الكثير، من رشوة وزراء السلطان، وغيرها من الأمور، ولكنه لم يفلح في شيء من ذلك.

بعد أن انتهى السلطان من استعداداته؛ سار بجيشه إلى القسطنطينية، ولما وصلها، قسم جيشه إلى أقسام، تمكنت من فرض حصار محكم على المدينة، ونشر سفنه في المياه المحيطة بها، لكنه لم يستطع عبور مضيق البوسفور؛ بسبب وجود السلسلة الحديدية الضخمة، التي كانت تحول دون عبور السفن، مما جعل الحصار ناقصاً؛ لوجود هذه الثغرة في القرن الذهبي، ولكن الفاتح استطاع ببراعته العسكرية أن يتغلب على هذه العقبة، فمهَّد الطريق في اليابسة، وجاء بألواح الخشب، ودهنها بالزيت والشحم، وحمل السُّفن العثمانية -وعددها سبعون سفينة- إلى اليابسة، فعل كلَّ ذلك في ليلةٍ واحدة، وحتى لا ينتبه الروم لهذا السبق الحربي العظيم؛ أوعز الفاتح لبعض جنوده بالاشتباك مع الروم تلك الليلة؛ فما راعهم صبيحة اليوم الثاني إلَّا والسُّفن العثمانية أمامهم، والعثمانيون يُكبِّرون فيها، ويهتفون وينشدون، فوهن ذلك في عضدهم، لكنَّهم دافعوا عن المدينة دفاعًا مستميتاً، وسقط الكثير من القتلى، من كلا الجيشين.

ضرب الفاتح في حربه هذه أفضل فنون القتال، والابتكار والتخطيط، فبعد أن اجتاز بسفنه اليابسة؛ أخذ يحفر الخنادق؛ ليصل إلى القسطنطينية من تحت الأرض، فاكتشفها الروم، وحفروا مقابلها خنادق، حتى إذا ما وصل العثمانيون إلى تلك الخنادق، ظنُّوا أنها سراديب تُوصل إلى البلدة، ثم ما لبث الروم أن أضرموا فيها النار والنفط، فاختنق بعض مَن بداخلها من العثمانيين واحترقوا، وفرَّ الباقون، ثم أعاد الفاتح حفر

غيرها من الأنفاق، حتى أنزل الله الرعب في قلوب الروم، فصاروا يخافون من قرع نعالهم، ويخيَّل إليهم أنها خنادق تُحفر تحتهم، ويشيرون هنا وهناك في فزع قائلين: "تركي تركي"[1].

كان الفاتح يفاجئ عدوه بين الحين والآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وبأساليب حديثة مبتكرة، وغير معروفة لعدوه، ومن ذلك أن أقدم على صنع مدافع، تستطيع اختراق سُمك حصون القسطنطينية، وتجاوز ارتفاعها، كما صنع قلعة متحركة، كان ارتفاعها أعلى من ارتفاع أسوار المدينة، وقلاعها، يَجُرُّها عدد كبير من الرجال، وعليها المهرة من الرماة، استطاعت أن تلامس أسوار المدينة، إلَّا أنها احترقت أمام ضربات الروم، وسقط مَن عليها من الرجال، وقُتل من قُتل منهم، فلم يملَّ الفاتح من ذلك، ولم ييأس، بل قال: غدًا نصنع أربعًا منها.

أمام هذا التصدي الأسطوري من الروم؛ دفاعًا عن المدينة؛ همَّ الفاتح بالانسحاب، بعد أن استشار قادة جيشه في ذلك، لكن الله ألهمهم الصبر والثبات؛ فضاعفوا ضرباتهم على المدينة برًا وبحرًا؛ حتى انهارتْ معنويات جيش الروم المدافعين، وازداد خوفهم، وأدركوا أن المدينة ساقطة لا محالة، لاسيما بعد أن خرج الناس في القسطنطينية، بتمثال كبير للعذراء، يطوفون به في المدينة، ويدعون بالنصر؛ فسقط من أيديهم وتحطَّم، ونزلت تلك الليلة أمطار وعواصف شديدة، وسقطتْ عاصفة منها على كنيسة آية صُوفيا أعظم كنائس النصارى؛ فتشاءم الناس بذلك، وتشاءم البطريق أيضًا، وعلم أن المدينة ساقطة، وأخبر قسطنطين بذلك.

حين أيقن الفاتح أن المدينة ساقطة لا محالة؛ أرسل إلى قسطنطين ملك الروم، يعرض عليه تسليم المدينة صُلحًا، وخيَّره بالبقاء فيها مع مَن يُحب، أو الرحيل عنها، لكنَّ قسطنطين اختار الدفاع عن عرشه حتى الموت؛ فشنَّ العثمانيون -بعد رفض قسطنطين تسليم المدينة- هجومًا بحريًا وبرّيًا، واستطاعوا اعتلاء أسوار المدينة، ورفع الأعلام على قلاعها، ولـمَّا رأى قسطنطين ذلك نزل من قصره، وركب جواده، وقاتل حتى قُتل، وما إن قتل قسطنطين؛ حتى فرَّ المدافعون عن المدينة، وسقطت بعد ذلك القسطنطينية، فدخلها الفاتح وحوله جيشه، فسجد لله شُكرًا على هذه النعمة، وقال لجيشه: لقد تحقق فيكم حديث رسول الله ﷺ.

1- ينظر: الرشيدي، محمد سالم، السلطان محمد الفاتح (القاهرة: دار البشير، ط 2، 2013/1434) ص: 98.

توجه بعد ذلك الفاتح إلى كنيسة آية صوفيا، وقد تجمع فيها الكثير من الناس، والرهبان والقساوسة؛ فخافوا خوفًا شديدًا؛ لكن الفاتح أمَّنهم على أنفسهم، وطلب منهم العودة إلى بيوتهم؛ فأسلم الكثير منهم؛ لـمَّا رأوا سماحة الإسلام في شخص الفاتح، ثم أمر الفاتح بتحويل الكنيسة إلى مسجد، تقاوم فيه الجمعة، وعمَّت الفرحةُ ربوعَ الديار الإسلامية، بتحقيق حلم الأجداد، وأمل الأجيال[1].

أثار فتح القسطنطينية سخط أوربا وحنقها على العثمانيين؛ فحاول بابا الفاتيكان أن يقنع العثمانيين باعتناق الدين النصراني، وأرسل إلى الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قسطنطين من قبل، ووعده على ذلك تكفير خطاياه، ومنحه صكًّا بدخول الجنة! ولـمَّا فشل في دعوته تلك؛ قاد حملة لتأجيج الحقد الصليبي على العثمانيين؛ فاستعدت لذلك بعض الدول الأوربية؛ ولـمَّا حانت ساعة النفير؛ اعتذرت دول أوربا؛ بسبب انشغالها بمشاكلها الداخلية، وحروبها مع مسلمي الأندلس، وفشل بذلك مشروع البابا الصليبي[2]، واستطاع الفاتح أن يضم إلى دولته بلاد الصرب واليونان، وغيرها من بلاد أوربا، في مدة قصيرة[3].

بجهود محمد الفاتح انتقل العثمانيون من مرحلة الدولة إلى مرحلة الإمبراطورية، حيث بنى الفاتح دولته بناءً حضاريًا، رغم انشغاله بالجهاد والفتوحات؛ حتى جعل منها أقوى دولة في زمانه، وفاق باهتمامه بها آباءه وأجداده، فاهتمَّ بالعلم والعلماء، وبنى المساجد والمدارس في أرجاء دولته، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، كما اهتمَّ بالشعر والأدب، والترجمات واللغات، لا سيما العربية منها، وازدهرت الحركة العمرانية في عصره ازدهارًا كبيرًا، فانتشر بناء القصور والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، والمستشفيات التي أقام بها حذَّاق الأطباء، وجعل لها نظامًا مثاليًا، كما جعل القسطنطينية أجمل مدن الدنيا وأعظمها، وازدهرت التجارة والصناعة في عصر الفاتح؛ بعد أن عمَّ الأمن والرخاء ربوع دولته، وأصبح للدولة العثمانية عملتها الذهبية

1- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 183، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 66، وينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: (116-139)، وينظر: آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصدر سابق، ص: 52.

2- ينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: 147.

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (193 - 195)، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 71، وينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: (141-143).

المتميزة، وأظهر الفاتح بذلك كفاءة ومقدرة عالية في تطوير دولته، وتنظيمها تنظيمًا إداريًا، وكان من أعظم ما اهتمَّ الفاتح بتطويره؛ الجيش والسلاح، حيث أولاهما اهتمامًا خاصًّاً، إذ هما بنظره أسس الدولة، وأركانها المهمة[1].

وفي عام (**886** هـ) خرج الفاتح ليقود جيشه في أسكدار، ويخوض به غمار المعارك كعادته؛ إلا أن الموت عاجله وسط جيشه العرمرم، وكان عمره (**52**) عامًا، فعليه رحمات الله ورضوانه، وقد أحدث موته دويًّاً هائلاً، اهتزت له بلاد الإسلام، وبكاه المسلمون ورثوه، وعمَّت بموته الفرحة ربوعَ الديار النصرانية، وأمر بابا الفاتيكان بفتح الكنائس، وإقامة الصلوات فيها والاحتفالات؛ ابتهاجًا بموت الفاتح وفرحًا[2].

بايزيد الثاني (886 - 918 هـ)

تولى بايزيد الثاني الحكم، بعد وفاة أبيه: محمد الفاتح، وكان فقيهًا أديبًا، شغوفًا بعلم الفلك، وبعد توليه الحكم خرج أخوه: (جم) عن طاعته، طالبًا الملك لنفسه، فرفض ذلك بايزيد، فعرض عليه جم تقسيم الدولة العثمانية قسمين، لكلٍّ واحدٍ منهما قسمٌ، فرفض ذلك بايزيد أيضًا، وسار بجيش لإخضاعه؛ ففر جم إلى المماليك في مصر؛ وبسبب إيواء المماليك له بدأت العلاقات بينهم وبين العثمانيين تسوء من جديد[3]، ولم يَزُلْ خطر جم بفراره إلى مصر، بل بقي يشكل خطرًا على بايزيد، منعه من الوقوف بقوة مع مسلمي الأندلس، الذين استنجدوا به من ظلم الإسبان وبطشهم.

وقد عرض بايزيد على جم الإقامة في القدس فرفض؛ فأرسل إليه حملة عسكرية لإخضاعه؛ استطاع جم أن يفرَّ منها إلى جزيرة رودس؛ ووقع بذلك في يد أوربا، التي استغلته أربعة عشر عامًا، عرض عليه خلالها بابا الفاتيكان النصرانية، وتنصيبه ملكًا على أوربا، وقيادة كل ملوكها لاستعادة أملاك أجداده؛ فرفض تبديل دينه، ومات عام: (**900** هـ)[4].

1- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 213، وينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: 164.

2- ينظر: الرشيدي، السلطان محمد الفاتح، مصدر سابق، ص: 322

3- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 217، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 74، وينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: 175.

4- ينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 136، وينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (217 - 224)، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: ٧٥، وينظر: متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، مصدر سابق، ص: 167.

وقد شكلت أوربا حلفًا صليبيًا جديدًا؛ انشغل بايزيد بالتصدي له، حتى استطاع هزيمته، وبقيت راية الجهاد في عهده مرفوعة، حتى أدركت أوربا أن لا قبل لهم بمواجهة العثمانيين في حرب نظامية؛ فلجؤوا إلى فتح علاقات دبلوماسية؛ كي ينخروا في عظام الأمة، ويكشفوا ضعفها وعوارها، وفي عهد بايزيد وصل أول سفير روسي إلى القسطنطينية، وذلك عام: (**898** هـ)[1].

وفي (**18**) صفر، عام: (**918** هـ) ترك بايزيد الحكم لابنه سليم الأول بدعم من الجيش، وكان يراه أهلاً لقيادة الدولة بعده، ومات بعد ذلك بايزيد عن عمرٍ يناهز الـ (**67**) عامًا.

سليم الأول والمماليك (918 - 926 هـ)

تولى السلطان سليم الأول العرش العثماني عام: (**918** هـ)، وبوصوله السلطة أحدث تغييرًا جذريًا في سياسة الدولة العثمانية، التي كانت على مفترق طرق، أمام التطورات الإقليمية حولها؛ فأوقف الزحف العثماني تجاه أوربا، وتوجه شرقًا؛ لإنقاذ العالم الإسلامي من الخطر الصفوي[2]، والمقدسات الإسلامية من الخطر الصليبي الإسباني البرتغالي، واستطاع هزيمة الصفويين في معركة (جالديران) عام: (**920** هـ)، ودخول تبريز، وتأمين حدود الدولة العثمانية في الشرق، وكان السلطان سليم يهدف "أن يحقق في إيران ما حققه صلاح الدين في مصر، من حيث القضاء على الحكم الشيعي، والسعي لإقامة اتحاد إسلامي، والوصول إلى تركستان والهند، إلا أن هذه المشاريع لم تتحقق"[3]، والعداء بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية لم ينتهِ بهذه الهزيمة، بل ازداد حدةً وضراوةً، وأقدم الصفويون بعد هذه الهزيمة على التحالف مع البرتغاليين ضد الدولة العثمانية[4].

1- ينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 139، وينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، 188.

2- يرجع نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (ت: 735 هـ)، الجد الأكبر للشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية، كانت بداية الدعوة الصفوية دعوة صوفية، نشرت أفكارها في إيران وغيرها من البلاد، ثم تطور بها الحال بعد الانتشار، وتأييد الكثير من الإيرانيين لها، وادعاء أصحابها النسب النبوي؛ فتحولت إلى الدعوة للمذهب الشيعي، وفرضه على الشعب بالقوة، والتنكيل بالمعارضين له من أهل البلاد السنة، وقتل الآلاف منهم، وقد توسعت دولتهم حتى شملت تبريز وأذربيجان، وبغداد، وغيرها من البلاد، بل وصلت إلى الحدود الشرقية للدولة العثمانية، مما جعل السلطان سليم الأول يوقف التوسع العثماني في أوربا، ويتجه شرقاً للقضاء على خطرها، ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 77، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 152.

3- ينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 177.

4- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (230- 233- 236)، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 80، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: (148-156)، وينظر: كولن، سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 91.

بعد أن تغلب السلطان سليم على الصفويين في جالديران؛ توجه للقضاء على المماليك في الشام ومصر، الذين كان لهم موقفٌ سلبيٌّ من عداء العثمانيين للصفوين، كما أن أهالي الشام ومصر، بل وعلماؤهم أيضًا؛ وجهوا نداءً للعثمانيين لضم الشام ومصر إلى دولتهم، وذلك بعد أن استفحل ظلم المماليك، وتجاوزهم فيهما؛ كل هذه الأسباب وغيرها حملت السلطان سليم الأول على دخول بلاد الشام ومصر، وضمهما إلى دولته، وكان له ذلك، بعد عدة معارك بينه وبين المماليك، أشهرها معركة: (مرج دابق) في بلاد الشام، عام: (**1517** م)، ومعركة (غزة) على أطراف مصر، وسقطت بعدها دولة المماليك، وآل أمرها إلى العثمانيين[1].

بعد دخول العثمانيين مصر؛ بادر شريف مكة: بركات بن محمد إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول، وتسليمه مفاتيح الكعبة؛ فأقره السلطان على مكة والحجاز[2]، وبضم الحجاز إلى الدولة العثمانية؛ بسطت السيادة العثمانية على البحر الأحمر، واستمر ذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر، وبعد ذلك دخلت معظم المدن اليمنية تحت نفوذ الدولة العثمانية، كعدن وصنعاء وغيرها.

لكن العثمانيين لم يستطيعوا السيطرة على كامل اليمين، بسبب تمرد عدد من قبائله، على رأسهم الزيدية[3]، وبضم مصر والشام والبلاد العربية للدولة العثمانية؛ دُفع عنها الخطر البرتغالي، حيث تمكن العثمانيون من صدهم، وتأمين البحر الأحمر، وحماية الأماكن المقدسة[4]، وفي عام: (**926** هـ) توفي السلطان سليم الأول، ودفن في القسطنطينية، وخلفه ابنه سليمان القانوني.

1- ينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: (165- 170)، وينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (242)، وينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: (81-84)، وينظر: إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة: يوسف عطا الله (بيروت: دار الفارابي، ط 1، 1988) ص: (57-59-67).

2- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: 245، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 175، وينظر: كولن، سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، 94.

3- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 148.

4- ينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مصدر سابق، ص: (245- 247)، وينظر: كولن، سلاطين الدولة العثمانية، مصدر سابق، 94.

سليمان القانوني (926 – 974 هـ)

تولى سليمان القانون الحكم وعمره (**26**) عامًا، ويعتبر عصره العصرَ الذهبي للدولة العثمانية، حيث بلغت فيه أوج اتساعها برًا وبحرًا، أمام دول العالم آنذاك، وتوسعت توسعًا لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليمها منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

واجه سليمان القانوني بداية حكمه عدة تمرُّدات داخلية، منها تمرد الشيعة في كلٍّ من يوزغات وقونية، واستطاع القضاء عليها كلها، ثم تابع مسيرة الدولة العثمانية في الفتوحات، ففتح جزيرة ردوس المتمردة، وتوسع في بلاد المجر وغيرها، حتى وصل إلى أسوار فيينا، لكنه لم يستطع دخولها؛ لطول خطوط المواصلات، وتغير موقف الحلفاء معه، وتنوعت مواقف الدول الأوربية المنقسمة على بعضها، من هذا التوسع الكبير الذي حققه السلطان سليمان القانوني، فرأى ملك فرنسا: فرانسوا الأول أنه بتحالفه مع الدولة العثمانية؛ سيضع حدًّا لطموحات منافسه على عرش الإمبراطورية الرومانية: تشارلز الخامس؛ فأقدم على عقد تحالف مع السلطان سليمان على شكل معاهدة، سميت فيما بعد بـ (معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية)، وذلك بعد هزيمته في معركة (بافيا)، عام: (**1525** م) أمام قوات تشارلز الخامس، ووقوعه في الأسر[1].

استفادت فرنسا من هذه المعاهدة، اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، ولم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية شيئًا، وكأن الاتفاقية عقدت لتلبية رغبات الفرنسيين، وتحقيق مصالحهم، دون مقابل يذكر، حيث فتحت لهم باب التجارة مع المشرق، دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضه البرتغاليون، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، وحصلت فرنسا بموجبها على حق حماية رعاياها في الدولة العثمانية، وكانت هذه الاتفاقية أول إسفين يُدق في نعش الدولة العثمانية، ظهرت آثاره فيما بعد، وفتحت الباب أمام الدول الأخرى لتنحو نحوها في ذلك؛ حتى صارت الدول تتدخل في شؤون الدولة العثمانية، بحجة حماية رعاياها داخل الدولة[2].

1- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: (89-94-95).
2- ينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 197.

المبحث الثالث:
العثمانيون والشمال الإفريقي

خير الدين بربروسة وتحالفه مع العثمانيين

حمل تغيُّر واقع المجتمع المغربي -بعد هجرة المسلمين الفارين إليه من بطش النصارى في الأندلس- إلى جنوح أعدادٍ كبيرةٍ منهم إلى الجهاد، ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط، وظل عمل هذه المجموعات الجهادية غير منظم؛ حتى ظهر على ساحة الجهاد فيه الأخوان: خير الدين بربروسة، وأخوه عروج، اللذان عملا على تجميع تلك المجموعات الجهادية في الجزائر، وتوجيهها إلى الهدف المشترك بينها، وهو قتال القوى المسيحية في البحر المتوسط، وصدها عن التوسع في مدن الشمال الإفريقي، والعمل على تقديم المساعدة لمسلمي الأندلس، وإنهاء الحكم الإسباني فيها.

استطاع هؤلاء الأبطال أن يحققوا انتصارات عظيمة على القراصنة المسيحيين، باتباعهم حرب العصبات، وأسلوب الكر والفر، واتخذوا من الجزائر مقرًا لهم؛ مما أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة حولهم، وأقلق القوى الخارجية المعادية لهم، والداخلية المتحالفة مع أوربا، كالحفصيين وغيرهم؛ فتشكل ضدهم تحالف قوي، أجبرهم على خوض معارك نظامية لم يعتادوها، وزاد من حرج موقفهم؛ استشهاد عروج في إحدى تلك المعارك؛ مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف قوي، يعينه على الاستقرار، ومواصلة الجهاد، وكانت الدولة العثمانية أقوى الدول المرشحة لذلك، التي كانت قد أبدت استجابتها لمساعدة الأخوين: خير الدين وعروج حين طلبا ذلك، وكانت هي الأخرى ترغب بمثل هذا التحالف؛ نظرًا لانشغالها بحروبها مع الصفويين على الجبهة الشرقية.

استجابت الدولة العثمانية زمن السلطان سليم الأول لنداء المسلمين في الشمال الإفريقي، وأمدتهم بعدد من السفن الحربية، المجهَّزة بالعتاد والجنود، واستطاع خير الدين بربروسة أن يحقق انتصارات كبيرة على الإسبان في البحر المتوسط، وعلى حلفائهم في المغرب، ويفرض سيطرته على كثير من مدن الشمال الإفريقي، ومنها تلمسان، لكن الإسبان استطاعوا استعادتها بعد مساعدة عملائهم في الداخل، وقتل

أخيه: إسحاق؛ فتركت هذه الأحداث أثرًا بالغًا في نفس خير الدين؛ حمله على الدخول التام تحت سيادة الدولة العثمانية.

دخلت الجزائر تحت سيادة الدولة العثمانية عام: (**925** هـ)، وعيَّن السلطان سليم الأول خيرَ الدين بربروسة أميرًا عليها، وأصبح بذلك أي اعتداء خارجي عليها؛ اعتداءً على الدولة العثمانية، واتخذ السلطان بعد ذلك خطوات تنفيذية؛ فأرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وألفين من جنود الإنكشارية، وأذن لمن شاء من المسلمين بالسفر إلى الجزائر، والانخراط في صفوف المجاهدين فيها، بل لقد شجع السلطان المتطوعين على ذلك، ومنحهم امتيازات كبيرة، وبذلك يكون دخول الجزائر تحت السيادة العثمانية زمن السلطان سليم الأول؛ البداية المتواضعة لمد نفوذ الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، أكمله بعده ابنه السلطان: سليمان القانوني[1].

كان على خير الدين بربروسة أمام هذا الوضع السياسي والعسكري الجديد؛ أن يعمل على جبهتين: الجبهة الخارجية المتمثلة بمواجه الإسبان، والقضاء على جيوبهم في الشمال الإفريقي، والجبهة الداخلة المتمثلة في العمل على توحيد الشمال الإفريقي، والتصدي للمتآمرين مع الإسبان، كبني زيان والحفصيين، وقد استطاع تحقيق نتائج كبيرة على كلا الجبهتين، فمدَّ نفوذ الدولة العثمانية في كثير من مدن الشمال الإفريقي، ووجه ضربات قوية للإسبان على سواحل المتوسط؛ أثمرت في إنقاذ آلاف المسلمين من إسبانيا، وذلك عام: (**936** هـ)[2].

سليمان القانوني ومحاولة استعادة الأندلس

عزم السلطان سليمان القانون بعد ما حققه من انتصارات كبيرة في أوربا، ولا سيما بعد استيلائه على بلغراد؛ عزم على دخول إسبانيا، وتخليص مسلمي الأندلس من ظلم النصارى وبطشهم، ورأى أنه لا بد له من قائد قدير، يُعتمد عليه في ذلك، ويكون عالمًا بحال البلاد وأهلها؛ فوقع اختياره على خير الدين بربروسة؛ المعروف بجهاده ضدَّ الإسبان، وإثخانه فيهم؛ فأرسل إليه أن يقدم إلى القسطنطينية لذلك.

1- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 92، وينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 274، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 217، وينظر: إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، مصدر سابق، ص: 99.

2- ينظر: أمجان، فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين (القاهرة: دار النيل، ط 1، 2014/1435) ص: 166.

في عام: (**940** هـ) سافر خير الدين بربروسة إلى القسطنطينية بأسطول بحري، قوامه (**44**) سفينة بحرية، وجعل مكانه على الجزائر المجاهد الكبير: حسن آغا الطوشي (ت:**951** هـ)، الذي أخذ يعمل على قهر القراصنة الأوربيين، وأبلى في سبيل ذلك بلاءً عظيمًا، حتى صار شخصه في الجزائر مثالًا بارزًا في البطولة والتضحية الإسلامية، واكتسبت الجزائر بفضل جهوده مهابةً وإجلالاً، جعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاهلها الأكبر: الإمبراطور شارل الخامس، مستنجدةً به، ومنضويةً تحت لوائه.

لما وصل خير الدين بربروسة إلى القسطنطينية؛ استقبله السلطان استقبال الفاتحين، وأكرمه غاية الإكرام، وأمر بإعداد أسطول بحري، يشرف عليه خير الدين بنفسه، وبعد أن تم إعداد الأسطول الجديد؛ أبحر به خير الدين نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، واستطاع الاستيلاء على عدد من مدنها، ثم توجه إلى تونس واستولى عليها، وضمها لسيادة الدولة العثمانية، وكان الاستيلاء عليها من أولى أهداف خير الدين؛ نظرًا لموقعها الجغرافي بين طرابلس والجزائر، وأهميتها في تنفيذ أهدافه المرحلية، المتمثلة في تطهير الشمال الإفريقي من الإسبان، كمقدمة لاستعادة الأندلس[1].

اعتبر بابا الفاتيكان، وملك إسبانيا استيلاء خير الدين على تونس، وقبلها على الجزائر؛ تهديدًا للمسيحية في أوربا؛ فاستغل ملك إسبانيا انشغال السلطان سليمان القانوني بحرب الدولة الصفوية، وضعف قوة خير الدين البحرية في تونس، وقلة جنوده فيها، وتحالف الحفصيين في تونس معه؛ فأقدم على القيام بعمل عسكري كبير، استعاد به السيطرة على تونس، وتنصيب: الحسن بن محمد الحفصي حاكمًا عليها؛ بعد تعهد الأخير بتحمل نفقات الحامية الإسبانية في تونس، ومعاداة العثمانيين، وذلك عام: (**942** هـ)[2].

عاد خير الدين بربروسة إلى الجزائر بعد خسارته تونس، واعتقد الإسبان أن شأن خير الدين لن يقوى بعد تلك الهزيمة؛ إلا أن خير الدين كان يدرك أن عليه توجيه ضربة للإسبان، يجبر بها هزيمته في تونس، لا سيما وهو قائد الأسطول العثماني في الجزائر؛ فأقدم في مضيق جبل طارق على مهاجمة السفن الإسبانية والبرتغالية، العائدة من

1- ينظر: أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، مصدر سابق، ص: (159 وما بعدها، وينظر ص: 168)، وينظر: السيد، تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 276.
2- ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 245.

الأراضي الأمريكية، المحملة بالذهب والفضة؛ فاهتزت لذلك الأوساط المسيحية، لا سيما بعد توقيع فرنسا معاهدة تحالف مع الدولة العثمانية، عام: (**943** هـ)، فشعرت الإمبراطورية الرومانية وكأنها طوقت من خصومها: الفرنسيين والعثمانيين.

عمل البرتغاليون والإسبان على تفتيت وحدة الشمالي الإفريقي في المغرب؛ فأقدم البرتغاليون على عقد هدنة مع الوطاسيين والسعديين؛ للحيلولة دون قيام تعاون بينهم وبين العثمانيين، وحاولت إسبانية عقد هدنة مع خير الدين بربروسة، تعترف به حاكمًا على الجزائر، مقابل تخليه عن الدولة العثمانية، ودفعه جزيةً بسيطة لها؛ تبتغي بذلك إيجاد تحالف إسباني، يجابه التحالف الفرنسي العثماني، ويعمل على فصل الشمال الإفريقي عن القسطنطينية؛ لكن خاب أملها برفض خير الدين ذلك العرض.

عزمت إسبانيا بعد ذلك على القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في حوض المتوسط الغربي، فقادت حملة عسكرية كبيرة، كان القائد الكبير: حسن آغا الطوشي قد استعدَّ لها أيَّما استعداد، واستنفر الناس للتصدي لها؛ فالتف حوله الشعب الجزائري المسلم، واستطاع هزيمة هذه الحملة الصليبية، وتحطيم أسطولها البحري؛ إلا من نجى منهم، فوقعت هذه الهزيمة على أوربا كالصاعقة المدويَّة، ونال حسن آغا بذلك إعجاب السلطان سليمان القانوني، وأنعم عليه برتبة: الباشوية[1]، واستمر القائد: حسن آغا الطوشي في جهاد الإسبان، حتى توفي عام: (**951** هـ)، وخلفه على الجزائر حسن خير الدين بربروسة، كما استمر خير الدين بربروسة في قيادة الأسطول العثماني، واستطاع تحقيق انتصارات كبيرة، هزت أوربا كلها، كان أعظمها معركة: (بروه زه) عام: (**945** هـ)، التي حققت السيطرة المطلقة للأساطيل العثمانية على البحر المتوسط، وأحكمت قبضتهم عليه، وعاد بعد تلك الانتصارات إلى القسطنطينية، وتوفي فيها عام: (**953** هـ)، وانطوت بوفاته صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله.

هكذا دخلت الدولة العثمانية المغرب الإسلامي، ومدت نفوذها فيه؛ لكنها لم تستطع ضم المغرب الأقصى لسلطانها؛ نظرًا لوجود الدولة السَّعدية فيه، التي جاهدت البرتغاليين، وانتصرت عليهم في معارك كثيرة؛ بفضل المساعدات الكبيرة التي أمدتها بها الدولة العثمانية، ولكن ما إن دانت البلاد للسعديين؛ حتى أظهروا رغبتهم بإنهاء

1- ينظر: الجمل، شوقي الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1977) ص: 98.

الحكم العثماني في المغرب، وتحالفوا مع الإسبان والبرتغال لذلك، وهيَّؤوا الجيوش لاسترداد الجزائر من العثمانيين، بدل أن يكملوا العمل الجهادي لاسترداد الأندلس، ونجدة المسلمين فيه، بل لقد أقدموا على خيانة أهله، وكشف مخططاتهم الثورية للإسبان، وبدأت بذلك مرحلة صراع السعديين مع العثمانيين[1].

أعادت حركة الجهاد في المغرب الإسلامي الروح المعنوية لمسلمي الأندلس المعذبين، فأخذوا يتأهبون لرفع الظلم عنهم، والانقضاض على الحكم الإسباني فيه، وكانت الدولة العثمانية تمدهم بمساعدات كثيرة، عبر قادة أسطولها في الشمال الإفريقي، إلى أن جاء قائد الأسطول العثماني: قلج علي (ت:**995** هـ)، الذي اتفق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورة عارمة؛ في الوقت الذي تصل فيه قواته من الجزائر إلى مناطق معينة في السواحل الإسبانية، ولكن في اليوم الذي وصلت فيه السفن العثمانية إلى السواحل الإسبانية؛ أحبط الإسبان مخطط الثورة؛ بسبب سوء تصرف أحد رجالها، فكُشف أمره، وضبط ما عنده من الأسلحة، كما هبت عواصف بحرية على الأسطول العثماني، أغرقت معظم سفنه، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان، وذلك عام: (**976** هـ)، وقد استمر قلج علي في إمداد مسلمي الأندلس؛ رغم الكارثة الكبيرة التي حلت بقواته البحرية، وأرسل العثمانيون المزيد من الرجال والسلاح لذلك، فأزعجت هذه التطورات الجديد الحكومة الإسبانية؛ فقمعت الثورة عامي: (**977** -**978** هـ)، وأتت من الفجائع والفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع والأخبار، ولم تقم للمسلمين بعد ذلك في الأندلس قائمة[2].

1- ينظر: الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مصدر سابق، ص: 99، وينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: (256-267).

2- ينظر: التِر، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية (بيروت: دار النهضة، ط 1، 1989/1409) ص: 223.

المبحث الرابع:
اضمحلال الدولة العثمانية

سليم الثاني (974 -982 هـ)

تولى سليم الثاني السلطة بعد وفاة والده سليمان القانوني، ولم يكن مؤهلاً للحفاظ على فتوحات والده الواسعة، وكان هو أول سلطان عثماني لا يقود الجيش بنفسه، فقد كان يمضي وقته في الملذات الرخيصة؛ ولولا وجود الوزير الفذ: محمد باشا الصقلي (ت: **971** هـ) لانهارت الدولة العثمانية، فهو الذي أعاد لها هيبتها في قلوب أعدائها[1].

في زمن السلطان سليم الثاني تم تجديد المعاهدة بين الدولة العثمانية وشارل التاسع ملك فرنسا، وزادت الامتيازات القنصلية الفرنسية، وقامت فرنسا بإرسال البعثات الدينية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية؛ خاصة بلاد الشام؛ مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة، حيث احتفظ النصارى بجنسياتهم ولغاتهم؛ وازداد عصيانهم، وتشجعوا على الثورات؛ ولما ازداد ضعف الدولة أخذوا يطالبون بالاستقلال عنها، تدعمهم في ذلك دول أوربا وتؤيدهم، ولقد كان لهذه الامتيازات نتائج وخيمة على الدولة العثمانية، حيث حطمت اقتصادها بتحطيمها النظام الضريبي العثماني، القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الخارجية، وأصبحت هذه الامتيازات بمثابة مواثيق مذلة للدولة العثمانية؛ وأصبح الأوربيون بسببها يشكلون حكومة داخل الدولة.[2]

استطاع العثمانيون زمن السلطان سليم الثاني فتح جزيرة قبرص، عام: (**979** هـ)، وتوطين عدد من سكان الأناضول فيها؛ فارتعدت لذلك فرائص الأمم المسيحية، فقاد البابا حملة جمعت شمل أوربا تحت راية البابوية، وخرجت أوربا بحملة صليبية لقتال العثمانيين، يقودها (دون جون) وجرت بينهما معركة كبيرة عام (**979** هـ) عرفت باسم: (ليبانتو) هزم فيها العثمانيون هزيمة مروعة، بعد أن فقدوا فيها نحوًا من (**30**) ألف مقاتل، وأسر الآلاف منهم، وغرق معظم أسطولهم البحري؛ فهللت لذلك أوربا وكبرت[3]، ولقد كانت نتائج هذه المعركة كارثية على العثمانيين، فقد زالت سيادتهم على البحر،

1- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: (143-148)، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 231.

2- ينظر: المصدر السابق، ص: 232.

3- ينظر: مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، مصدر سابق، ص: 147.

وقوتهم الهائلة، واختفت أسطورة عدم قهر العثمانيين، ولم تعد للوجود في البحر، وكان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية، وقد حاول البابا أن يستغل هذه الهزيمة، ويثير أعداء العثمانيين عليهم، كالصفويين، وملك الحبشة، وإمام اليمن؛ لكن المنية عاجلته قبل ذلك.

حاولت فرنسا استغلال هزيمة العثمانيين في (ليبانتو)؛ فعرضت عليهم فرض سيطرتها على الجزائر؛ لحماية المسلمين فيها، فلم يقبل السلطان ذلك؛ لكنها استطاعت الحصول على امتيازات فيها، وأقدمت إسبانية على احتلال تونس؛ بعد قيام الثورات فيها ضد حلفائها الحفصيين؛ لكن العثمانيين استطاعوا إعادتها، بقيادة قلج علي، بعد إعادته بناء الأسطول العثماني من جديد.

تولى عرش الدولة العثمانية بعد سليم الثاني عدد من السلاطين، قام بعضهم بإجراءات إصلاحية؛ للنهوض بالدولة، واستطاع بعضهم تحقيق انتصارات على أعدائها؛ إلا أن الضعف ظل ينخر جسد الدولة، لدرجة صعب علاجه فيها، وبدأت ملامح سقوطها تظهر إلى العلن؛ إلى أن جاء السلطان عبد الحميد الثاني؛ الذي عمل جاهدًا على أن يحول دون ذلك؛ لكن الظروف كانت أقوى منه، فعزل عن الحكم، وسقطت الدولة العثمانية بعده عام: (**1924** م).

السلطان عبد الحميد الثاني

هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية، ولد عام: (**1258** هـ/ **1842** م)، تولى السلطة وعمره: (**34**) عامًا، ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره؛ فتولت تربيته: زوجة أبيه الثانية، وكانت عقيمًا، فأحسنت تربيته وعنايته، وتلقى تعليمه على أيدي نخبة من رجالات زمانه، علمًا وخلقًا، فنشأ محبًا للعلم وأهله، عالِمًا بدينه، مهتمًا بالتصوف والأدب، والشعر والتاريخ، متقنًا استخدام الأسلحة بكل أنواعها؛ بما فيها السيف، وكان أكثر ما يميزه؛ اهتمامه بالسياسة العالمية، وتتبعه أخبار بلاده فيها بعناية فائقة.[1]

1- ينظر: حرب، محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار (دمشق: دار القلم، ط 1، 1990/1410)، ص: (31-32)، وينظر: أرباجي، سيف أرباجي، السلطان عبد الحميد مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، (القاهرة: دار النيل، ط 1، 2011/1432) ص: 18.

زار أوربا مع عمه عبد العزيز، عام: (**1867** م)، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكان لهذه الزيارة أعظم الأثر في شخصية السلطان عبد الحميد بعد توليه السلطة، حيث اطلع فيها على الحياة الأوربية بكل ما فيها من طرق معيشية وأخلاقية وغيرها، ووقف هناك على ألاعيب السياسة العالمية، ورأى تأثير الدول الأوربية على الدولة العثمانية، كما رأى التطور الصناعي الكبير الذي وصلت إليه تلك الدول، لا سيما في المجال العسكري، البري والبحري، وعرف أن فرنسا دولة لهو، وأن بريطانيا دولة ثروة وزراعة وصناعة، وأن ألمانيا دولة نظام وعسكرية وإدارة؛ لذا أعجب بها كثيرًا، ولـمَّا تولى السلطة عهد إليها بتدريب الجيش العثماني.

تولى السلطان عبد الحميد الحكم بعد أخيه مراد الثاني، عام: (**1293** هـ/ **1876** م) وتعرض بداية حكمه لأزمات شديدة، وظروف صعبة، وتآمر داخلي وخارجي، فخزينة الدولة فارغة، وجنودها عُزَّل، وعناصرها تدغدغ قلوبَها أحلامُ القومية الجميلة، وشعبها توَّاق للحكم البرلماني؛ فأخذ يعمل للتخلص من تلك الضغوطات، والنهوض بدولته، واستطاع تحقيق نتائج كبيرة في ذلك.

وقد كانت الضغوطات الداخلية التي تعرض لها السلطان متمثلةً في استبداد وزرائه، الذين جندتهم الأيدي الماسونية لخدمة أهدافها؛ فتآمروا عليه، وتواطؤوا مع بعض الدول الغربية المعادية للدولة العثمانية؛ فاضطر بداية حكمه لإعلان (المشروطية/الديمقراطية) أي الحكم بالدستور، الذي يحدد سلطات الحاكم، ويضمن الحريات المدنية، وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية، وأن البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثان، ومجلس الأعيان أو الشيوخ، الذي يضم كل شعوب الدولة العثمانية.

وقد بلغ من استبداد بعض وزرائه؛ أن الصدر الأعظم: مدحت باشا، كتب إلى السلطان عبد الحميد قائلاً: "لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق، وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة"[1]، ويعقب السلطان على هذه

1- آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مصدر سبق، ص: 134.

الرسالة من مدحت باشا قائلاً: "ولقد وجدت مدحت باشا ينصِّب من نفسه آمرًا ووصيًا عليّ، وكان في معاملته بعيدًا عن المشروطية/الديمقراطية، وأقرب إلى الاستبداد".[1]

لقد كان مدحت باشا وأصحابه من الماسونيين المدمنين على شرب الخمر، حتى إنه كان كثيرًا ما يفشي أسرار الدولة إذا ما ثمل، بل إنه قد تحدث ذات يوم وهو في نشوةِ سكره عن رغبته في إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية، وأنه سيصبحُ رئيسها!

لم يكن السلطان عبد الحميد راضيًا عن الحكم الدستوري، وكان يرى أنه لا يصلح لكل شعب، شأن الدواء الذي لا يصلح لكل مريض، وكل يرى في سوء تصرفات المنادين بالدستور، واستبدادهم دليلاً على ذلك، وبقي رافضًا له حتى بعد عزله عن السلطة، وكان من الأسباب التي يسوقها في رفضه للدستور قوله: "إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوبًا شتى، والمشروطية في دولة كهذه موتٌ للعنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الإنكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟"[2].

أسس السلطان عبد الحميد جهاز استخبارات مرتبط به شخصيًا؛ وذلك بعد أن علم أن وزراءه يرتشون من الدول الأجنبية ليهدموا دولتهم، ويتآمروا على سلطانهم، وكان مما قاله: "لا يمكن للدولة أن تكون آمنة؛ إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصًا، في درجة وزير أعظم"[3]؛ بناءً على ذلك أنشأ جهاز الاستخبارات الخاص به، واستطاع بفضل جهازه هذا كشف الكثير من المآمرات التي كانت تحاك بدولته، والاطلاع على خفايا الأمور في الداخل والخارج.

عملت النمسا وروسيا ومعهما بعض الدول الأوربية زمن السلطان عبد الحميد، على تحريض نصارى البوسنة والهرسك وغيرهم؛ على القيام بثورات ضد الدولة العثمانية، ظاهرها المطالبة بحقهم في الاستقلال الذاتي، وباطنها السعي للتدخل في شؤون الدولة العثمانية؛ لإضعافها ومن ثَمَّ الإطاحة بها، واستطاع السلطان عبد الحميد القضاء عليها، والقيام بإصلاحات تلبي مطالب أصحابها، ولكن المقصود من تلك

1- حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، مصدر سابق، ص: 60.
2- المصدر السابق، ص: 95.
3- عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة: محمد حرب (دمشق: دار القلم، ط 3، 1412.1991) ص: 159.

الثورات كان أعظم من ذلك، وكانت تلك الثورات ذريعةً ودافعًا قويًا لخوض روسيا حربًا طويلةَ الأمد ضد الدولة العثمانية، عمد قبلها السلطان عبد الحميد إلى مسالمة روسيا، وتقديم بعض التنازلات لها؛ ليجنب دولته الضعيفة عاقبة هذه الحرب، ولكن الذي أقحم الدولة العثمانية فيها، وأصرَّ على خوض الحرب، ورفض كل العروض التي قدَّمها السلطانُ للروس هو الصدر الأعظم: مدحت باشا ومعه وزراؤه، وكانت الحرب التي اتخذت سمة صليبية، هزمت فيها الدولة العثمانية هزائم كبيرة، وقتل فيها الآلاف من المسلمين العثمانيين، وشرد الآلاف عن ديارهم أيضًا، خسرت فيها الدولة العثمانية البلقان كلها؛ إلا بعض الولايات، وكانت تلك الحرب من أبرز أسباب سقوط الدولة العثمانية فيما بعد، حيث انتهت بعقد معاهدة: (أيا ستفانوس) بين روسيا والدولة العثمانية عام: (**1295**هـ/**1878**م)، وقعها عن الدولة العثمانية: صفوت باشا وهو يبكي، وكانت شروطها مجحفة بحق الدولة العثمانية، استقلت بموجبها كلٌّ من الصرب وبلغاريا ورومانيا، وغيرها من المدن عن الدولة العثمانية[1]؛ مما حمل السلطان عبد الحميد بعدها إلى تعطيل البرلمان (مجلس المبعوثان)، وتعليق الدستور، وتولى إدارة البلاد بنفسه، وتمكن بذلك من منع وقوع الحرب مع روسيا، ثم أقدم على عقد (مؤتمر برلين) مع بريطانية، منحها بموجبه حق احتلال جزيرة قبرص؛ لتحارب منها روسيا؛ وليخفف بذلك من آثار معاهدة: (أياستفانوس) على دولته[2].

خشي المستشار الألماني بسمارك أن يؤدي تصدي بريطانية لروسيا إلى نشوب حرب أوربية تقضي على الاتحاد الألماني الذي جاهد كثيرًا من أجل قيامه؛ فدعا الدول الأوربية العظمى لحضور مؤتمر برلين، فحضرته كلٌّ من: بريطانية وفرنسة، وألمانية والنمسا، وكان وقوف تلك الدول مع الدولة العثمانية ظاهره ضد روسيا التي شكل ازدياد نفوذها خطرًا عليها، وباطنه تنازل الدولة العثمانية عن مساحات واسعة من أراضيها لتلك الدول، فكان هذا المؤتمر في حقيقة الأمر من المعالم البارزة في تدهور الدولة العثمانية؛ حيث لم تفِ لها تلك الدول بتعهداتها، فأقدمت فرنسا على احتلال تونس عام: (**1299**هـ/**1881**م)، وأقدمت بريطانية على احتلال مصر عام:

1- ينظر: حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، مصدر سابق، ص: 38، وقد أشار محمد حرب في كتابه هذا إلى كتاب محمد اجيق: تاريخ الدولة الإسلامية، الذي عرض مشكلة زج الدولة العثمانية في الحرب مع روسيا، وينظر: طقوش: تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: (429-434).

2- ينظر: حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، مصدر سابق، ص: 40، وينظر: أرباجي، السلطان عبد الحميد مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، مصدر سابق، ص: (81-85)، وينظر: طقوش: تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: (440-447).

(1300هـ/1882م) معلنةً أن احتلالها مؤقت[1]، وأمام هذا الوضع المتأزم؛ أقدم السلطان عبد الحميد على اتخاذ لقب الخلافة؛ وإنشاء الجامعة الإسلامية؛ كي يجمع مسلمي الداخل والخارج حوله، ويواجه بهم تلك التحديات الجديدة.

السلطان عبد الحميد ومشروع الجامعة الإسلامية

بعد أن قام السلطان عبد الحميد بخطوات حدَّ بها من سلطة وزرائه المتأثرين بالفكر الأوربي؛ التفت لعمل مشروع أكبر، يواجه به الهجمة الشرسة التي تقودها الدول الأوربية ضد دولته؛ فنادى بفكرة الجامعة الإسلامية؛ لتجميع مسلمي العالم تحت راية الخلافة الإسلامية، التي لقَّب نفسه بها، ومواجهة الهجمة على دولته المسلمة، واستخدم لنجاح ذلك كل الإمكانات المتاحة لديه في ذلك الوقت، فأرسل الدعاة من مختلف الجنسيات إلى أرجاء العالم الإسلامي، يلتقون بالشعوب المسلمة، ويحيون الإسلام فيهم من جديد، وينقلون رغباتهم إلى السلطان، ويعرِّفون بفكرة الجامعة الإسلامية.

وأقدم السلطان على إقامة مراكز للدراسات الإسلامية في الداخل والخارج، من أعظمها جامعة: (دار العلوم الحميدية) في بكين، وطبع العديد من الكتب الإسلامية، وربط مدارس الدولة بشخصه، ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية، وأنشأ للفتيات مدارس خاصة بهن، ومنع اختلاطهن بالرجال، وسعى -لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية- لتعريب الدولة العثمانية؛ وأبدى أسفه لعدم تعريبها من قبل، واهتم بإنشاء المساجد في كافة أرجاء العالم الإسلامي وترميمها، وسعى لاستمالة زعماء القبائل العربية، وأنشأ مدرسة لتعليم أولادهم في إسطنبول، وتدريبهم على الإدارة.

وعمل السلطان عبد الحميد على استمالة شيوخ الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، والاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية؛ فالتف حوله مجموعة من علماء المسلمين ودعاتهم، منهم: مصطفى كامل في مصر، وأبو الهدى الصيادي في سوريا، وعبد الرشيد إبراهيم في سيبريا، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرهم، وتبنوا مشروع الجامعة الإسلامية ودعوا إليه[2].

1- ينظر: حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، مصدر سابق، ص: 43، وينظر: أرباجي، السلطان عبد الحميد مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، ص: (87-89)، وينظر: طقوش: تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: (439-448).

2- ينظر: حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مصدر سابق، ص: 165، وينظر: عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، مصدر سابق، ص: 23، وينظر: طقوش: تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 483.

لقد كان من أعظم الأعمال التي قام بها السلطان عبد الحميد لإنجاح فكرة الجامعة الإسلامية؛ إنشاؤه الخط الحديدي؛ ليربط به إمارات الدولة العثمانية بشخص الخليفة، ويحكم السيطرة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها، وبدأ السلطان تمويل هذا المشروع الكبير بـ (**50**) ألف جنيه ذهبيًّا من جيبه الخاص، ثم تبارى الناس يتبرعون لهذا المشروع؛ حتى تم إنجاز قسم كبير منه، وفي عام: (**1908**) وصل أول قطار يحمل حجاج بيت الله إلى محطة المدينة المنورة، قادمًا من دمشق، بعد أن استغرقت رحلته ثلاثة أيام، في حين كانت تستغرق مثل هذه الرحلة أكثر من خمسة أسابيع، وحقق هذا المشروع العظيم حلم الملايين من المسلمين؛ في أداء فريضة الحج، وحقق السلطان به أهدافًا سياسية وعسكرية كبيرة، وتقدم خطوةً كبيرة في طريق توحيد العالم الإسلامي.

لم يكتب لهذا المشروع أن يصل إلى مكة كما خطط له السلطان؛ بسبب عرقلة الشريف حسين له، الذي كان يتخذ من مكة مقرًا له، والذي خاف على نفوذه فيها من سيطرة العثمانيين، بل إن السلطان كان يهدف لمد الخط الحديدي إلى اليمن، ثم تم تدمير أقسام كبيرة من سكة حديد الحجاز على يد فيصل بن الشريف حسين وقواته[1].

كانت بريطانية وفرنسا، وغيرهم من أعداء الدولة العثمانية يدركون خطورة مشروع الجامعة الإسلامية عليهم، ويرون فيه تحطيمًا لمشروعهم التوسعي في البلاد الإسلامية؛ لذا اتخذوا كل التدابير للوقوف بوجه هذا المشروع وتدميره، وتحالفوا مع أعداء الدولة العثمانيين في الداخل والخارج للقضاء عليها، وبالمقابل عمل السلطان على إحباط مخططاتهم، واستمالة أعدائه والتودد لهم، بل واستدعاء بعضهم إلى إسطنبول، ووضعهم تحت الإقامة الجبرية؛ إن رأى في ذلك مصلحة، فعل ذلك بالشريف حسين، وبـ جمال الدين الأفغاني[2].

1- ينظر: المرجة، موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض (الكويت: مؤسسة صقر الخليج، د. ط، 1984) ص: 114.

2- ينظر: الصلابي، علي الصلابي، السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية (بيروت: المكتبة العصرية، ط 1، 2010/1431) ص: (30-33-43). وينظر في ذلك كتاب: هولاكو، متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة: محمد صواش (القاهرة: دار النيل، ط 1، 2011/1432) ص: (14-17) وغيرها، وينظر: طقوش: تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 492.

السلطان عبد الحميد واليهود.

عداء اليهود للإسلام قديم، تعود جذوره إلى زمن ظهور الإسلام، وإجلاء النبي ﷺ لهم من المدينة، وبعده عمر رضي الله عنه، الذي أجلاهم من الجزيرة العربية، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام، وبثّوا سمومهم في جسد الأمة الإسلامية، كعبد الله بن سبأ، وغيره كثير، ولـمَّا تعرض اليهود لبطش النصارى في الأندلس، وذاقوا ويلات محاكم التفتيش فيها؛ هاجر قسم كبير منهم إلى الدولة العثمانية[1]، ووجدوا فيها ملاذًا آمنًا، وحريةً تامةً، مارسوا فيها شعائر دينهم، وتمتعوا بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، ووصل عدد منهم إلى مراكز حساسة بالدولة، وشارك بعضهم في بعثة علي باشا وزير الخارجية العثماني، المرسلة إلى الدول الأوربية، وأصبح رئيس الحاخاميين مخولاً له السلطة الدينية والحقوق المدنية، وأصبحت قراراته قانونًا يخص اليهود، وتصدق عليها الدولة العثمانية[2]، وقد قوَّم وزير خارجية الدولة العثمانية وضع اليهود قائلا: "إن اليهود قد طردوا من أوربا، وقد وجدوا السلم والأمان، وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية"[3].

يهود الدونمة.

تطلق هذه التسمية على عدة معاني، منها المعنى العام، الذي يراد به اليهود الذين هربوا من الأندلس ولجؤوا إلى الدولة العثمانية، وتظاهروا باعتناق الإسلام، ومنها: المعنى الخاص، الذي يراد به مذهب يهودي دعا إليه شبتاي زيفي، الذي يُتعبر أول يهودي بشَّر بعودة اليهود إلى فلسطين، حيث ادعى بأنه المسيح المنتظر، الذي سيخرج عام: (**1648** م)، ويقود اليهود بصورة المسيح، ويحكم العالم من فلسطين، فصارت وفود اليهود تقدم إليه في أزمير، وقلدته هذه الوفود تاج: (ملك الملوك)، فقام شبتاي بعدها بتقسيم العالم إلى ثمانية أقسام، جعل على كل قسم منها ملكًا؛ اعتقادًا منه أنه سيحكم العالم، وكان يقول: "أنا سليل سليمان بن داود، حاكم البشر، وأعتبر القدس قصرًا لي"[4].

1- وقد لجأ اليهود بعد محاكم التفتيش في إسبانيا إلى القائد خير الدين بربروسة، وطلبوا منه تهريبهم إلى الدولة العثمانية، فأحسن إليهم، وهربهم إلى الدولة العثمانية، وأسكنهم في ثغورها، ينظر: النعيمي، أحمد نوري، اليهود والدولة العثمانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1997/1417) ص: 27.

2- ينظر: أوزدمير، حسين أوزدمير، فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد (القاهرة: دار النيل، ط 1، 2013/1434) ص: 97. وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 36.

3- المصدر السابق، ص: 39.

4- ينظر: قطب، محمد علي، يهود الدونمة أصلهم نشأتهم حقيقتهم (دار الأنصار، ط 1، 1978) ص: 9.

أصبح شبتاي بذلك مصدر قلق لحاخامات اليهود في تركيا؛ فرفعوا ضده شكوى للدولة العثمانية؛ فاستدعاه القاضي، وسأله أن يريهم معجزته؛ إذا كان هو المسيح؛ فأنكر ادعاءه ذلك؛ فعرض عليه القاضي دخول الإسلام؛ فأسلم، ثم طلب من الدولة أن تسمح له بدعوة اليهود للإسلام؛ فأذنت له؛ فانتهزها فرصة للدخول بين اليهود، ودعوتهم لمذهبه، وحثهم على ضرورة تجمعهم، وإظهارهم الإسلام، وإبطانهم اليهودية؛ حتى كشف أمره، وألقي القبض عليه مرتديًا زيًا يهوديًا، والنساء تحيط به، وينشدون الأناشيد اليهودية، وذلك في كنيس: (قوري جشمه) داخل المعبد، وحتى لا يحدث قتله فتنةً لأصحابه المعتقدين بمسيحيته؛ اكتفي بنفيه إلى ألبانيا، عام: (**1673**م)، ومات فيها بعد خمس سنوات.

كتب شبتاي عقيدته في ثمان عشرة مادة، يقول في المادة السادسة عشرة منها": يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة؛ لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألا يُظهر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان، ومن الأضحية، ولمن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ"، ويقول في المادة السابعة عشرة": إن مناكحتهم -يعني المسلمين- ممنوعة قطعًا[1].

لقد أسهم يهود الدونمة في هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثماني، وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية والماسونية فيه، والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة، واختلاطها بالرجال، وخاصة في المدارس، وقامت بدور بارز في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد، ولا سيما (جمعية التحاد والترقي)، وأخذت تعمل لعزله؛ لأنه كان الشخص الوحيد العالِم بتحركاتهم، ومآمراتهم ضد دولته، كما يذكر ذلك الجنرال جواد رفعت أتلخان بقوله: "إن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعا، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية، وأضرارهما على الترك والإسلام، وخطرهما تمامًا، وكافح ضدهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم؛ هو السلطان التركي العظيم، كافح هذه المنظمات الخطيرة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة، بذكاء وعزم، وبإرادة مدهشة جدًا كالأبطال"[2]، ونتيجة لموقف السلطان عبدالحميد منهم؛ قاموا بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا لذلك شعارات الحرية والديمقراطية، وإزاحة المستبد عبد الحميد، ونشروا فكر الشقاق والتمرد بين صفوف الجيش العثماني، وكانوا

1- قطب، يهود الدونمه، مصدر سابق، ص: 25.

2- الحسني، عبد الكريم الحسني، الصهيونية: الغرب والمقدي والسياسة (القاهرة: شمس للنشر والتوزيع، ط 1، 2010) ص: 217.

يطمحون من وراء ذلك تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين[1].

السلطان عبد الحميد وهرتزل

أراد اليهود كغيرهم استغلال حالة الضعف التي نابت الدولة العثمانية؛ فعملوا على تحقيق حلمهم بالعودة إلى فلسطين؛ فدخل تيودور هرتزل على السلطان عبد الحميد من باب فقر الدولة العثمانية، وحاجتها الماسة للمال، بعد أن تفاقمت ديونها، وأخذ مدينوها الأوربيون يزيدون من نفوذهم داخلها، بحجة مراقبة أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونهم؛ فعرض هرتزل على السلطان عبد الحميد سداد ديون الدولة العثمانية كلها؛ مقابل حصولهم على اعتراف من الدولة العثمانية بحق اليهود في إقامة وطني قومي لهم، في فلسطين، الأمر الذي لاقى رفض السلطان عبد الحميد بشدة، وأدرك السلطان ما وراء هذا الأمر من خطورة على الإسلام، ومقدساته في فلسطين، وأنَّ المراد ليس مجرد الحصول على مكان يجمع اليهود فقط، وإلا لمَ فلسطين بالتحديد[2]؟

أجرى هرتزل اتصالات مع كثير من الدول الأوربية؛ محاولاً تحقيق حلمه، واستطاع الحصول على تأييدها لذلك، وطلب من بعضها التوسط لليهود عند السلطان عبد الحميد؛ لكن تلك المحاولات باءت بالفشل، وكان مما ردَّ به السلطان عبد الحميد على نيولنسكي صديق هرتزل: "انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع؛ لأني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة؛ لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، وَرَوَوْهَا بدمائهم، فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة"[3].

بعد فشل محاولات هرتزل هذه، وغيرها؛ أخذ على عاتقه تشويه صورة السلطان عبد الحميد، ومن ثمَّ إسقاطه؛ فعمل على تحريك الصحافة العالمية ضده، وتوحيد

1- ينظر: قطب، يهود الدونمه، مصدر سابق، ص: 36.

2- ينظر: عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: ٥٤، وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 116.

3- وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 120، وينظر: أورخان، أورخان محمد، السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، (إسطنبول: بيوك جاملجة، ط 4، 2008) ص: 196، وينظر: طقوش، تاريخ العثمانيين، مصدر سابق، ص: 475، وينظر: أوزدمير، فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: 126.

أعدائه المقيمين داخل المجتمع العثماني، وكان للمحافل الماسونية دور كبير في ذلك، ولا سيما المحفل الإيطالي (ريزوتا) في سلانيك[1].

اتخذ السلطان عبد الحميد كل التدابير لمنع نجاح هذا المشروع، فمنع إعطاء اليهود أي امتيازات في فلسطين، وراقب هجرتهم إليها، وفرض عليهم من القوانين ما يمنع استيطانهم فيها، وراقب تحركات اليهود في العالم عبر سفرائه؛ حتى أدرك اليهود أنهم لن يستطيعوا تحقيق حلمهم والسلطان عبد الحميد على عرش الدولة العثمانية؛ لذا عملوا على إسقاطه بكل استطاعتهم، يقول هرتزل في ذلك: "إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة؛ ما دام السلطان عبد الحميد قائمًا في الحكم، مستمرًا فيه"[2]، ويقول أيضًا: "أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا؛ إلا إذا تغيرت حالتها السياسية، أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية، أو بالطريقتين معًا في آنٍ واحدٍ"[3]، وكان موقف السلطان هذا من أبرز الأسباب التي أدت لعزله عن سدَّة الحكم[4].

السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي

مع تردي أوضاع الدولة العثمانية؛ وضعفها أمام تسلط الدول الأوربية، وتطبيق فرنسا النظام الديمقراطي، وشيوع أفكار القومية والعلمانية، والتحرر من حكم الفرد؛ رأى عدد من الشباب العثماني، أن تخليص البلاد من الحالة المتردية التي وصلت إليها، لا يكون إلا بإيجاد نظام سياسي ديمقراطي؛ فأقدموا على تأسيس جمعة سرية، أطلقوا عليها اسم: (اتفاق الحميَّة)؛ لتعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي حصول طوائفه كالنصارى؛ على الاستقلال الذاتي، دون الحاجة لتدخل الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية لذلك، وتبريرها تدخلها بحجة حماية رعاياها.

1- ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 482، وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 221، وينظر: أبو غنيمة، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: 46.

2- ينظر: عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: 29، وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 158.

3- النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 147، وينظر: أبو غنيمة، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: 47.

4- ينظر: أبو غنيمة، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: 44، وينظر: عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: (54-55)، وينظر: قيصه كورك، نجيب فاضل، السلطان عبد الحميد خان الثاني واليهود، ترجمة: يوسف محلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1404/1984) وقد سبك المؤلف ما دار بين اليهود والسلطان عبد الحميد على شكل مسرحية، وينظر: أورخان، السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، مصدر سابق، ص: 202.

كان في فرنسا في ذلك الوقت: الأمير المصري: مصطفى باشا؛ الذي كان قد نازع فؤاد باشا على ملك مصر؛ فأعلن أنه مع التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وتم التواصل بينه وبين أصحاب جمعية: (اتفاق الحميَّة) وكوَّنوا جميعًا منظمة أسموها: (جمعية العثمانيين الجدد)، كان من أبرز أولئك الشباب نامق كمال (ت: **1888**م)، وعلي سعاوي (ت: **1878** م)، وغيرهم من الأدباء والشعراء والإعلاميين، وكان نامق كمال أكثرهم تأثيرًا على الساحة الأوربية، وهو الشخصية الازدواجية المضطربة؛ كما وصفه السلطان عبد الحميد في مذكراته.

كان نامق كمال يرى أن حركة التنظيمات العثمانية استَبدلت بسلطة السلاطين سلطةَ الباب العالي: (أي الصدور العظماء وهم الوزراء) ولم تستطع تحقيق نهضة اقتصادية في الدولة، وفتحت الباب أمام تدخل الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية؛ ورأى أن المناسب للدولة العثمانية في هذا الظرف؛ دستورٌ ديمقراطيٌ كالدستور الفرنسي، ينهض بالبلاد اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا، وقدم نموذجًا عنه للصدر الأعظم: مدحت باشا.

استطاع السلطان عبد الحميد كشف هذه المؤامرة التي تحيط به، بقيادة مدحت باشا؛ فأقدم على نفيه، وتشتيت أعضاء هذه الجمعية؛ فقامت بوجهه مؤامرتان تطالبان بخلعه: الأولى بقيادة: علي سعاوي أحد أعضاء جمعية: (العثمانيين الجدد)، والثانية: ماسونية، قامت بها جمعية: (كلانتي سكالييري) والمؤامرتان مدعومتان من إنكلترا، لكنهما فشلتا، وجعلتا السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد، والمتأثرين به.

في عام: (**1989** م) أسس إبراهيم تيمو في المدرسة العسكرية الطبية في إسطنبول منظمةً طلابيةً سريةً، أسماها: (الاتحاد العثماني)؛ بتحريض من بعض الأساتذة في المدرسة؛ للقيام بمعارضة الحكم، ونشكر أفكار جمعية (العثمانيين الجدد)، وتكوين دولة تناسب أفكار العصر، وتتخذ من السياسة الغربية نموذجًا، ومن هذه المدرسة سرت أفكار هذه الجمعية إلى المدارس العليا الأخرى، ولم تكن الجمعية متعجلة في نشر أفكارها، ولا في الدعاية لها، بل يذكر مؤسسها: إبراهيم تيمو؛ أنه كان يمضي أوقاته في الخارج محاولاً كسب أعضاء جدد، وتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، ويقرأ الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، كنامق كمال وغيره،

ويجري معهم الاتصالات، ونتيجةً للمراسلات السرية بين الطرفين في الداخل والخارج؛ تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني، ضد السلطان عبد الحميد، واعتماد اسم: (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين، وهكذا تشكلت هذه الجمعية[1].

أخذت هذه الجمعية تتغلغل في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، وكان الفكر السياسي لها يؤكد على المفاهيم الطورانية، والطورانية: تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي، نسبة إلى جبل توران، الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية من إيران، وكان في الجمعية تيار قوي، يؤكد على أن الأتراك أقدم أمم الأرض، وأعرقها مجدًا، وأسبقها حضارةً، وأنهم والجنس المغولي أصل واحد، ويلزم أن يعودا لذلك، وكان شعارهم عدم التدين، وإهمال الجامعة الإسلامية؛ إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، وقد تطرف هذا الاتجاه في الطورانية إذ كان يقول: "نحن أتراك فكعبتنا طوران"[2]، وكانوا يستشهدون برجالاتهم في التاريخ، أمثال: جنكيز خان وتيمولنك وغيرهم، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث الجنكيزية.

وقد كان تأثير اليهود كبيرًا وواضحًا في إرساء تيار القومية الطورانية، حيث تصدى علماؤهم للكتابة عن أصول الفكرة الطورانية، والدعوة لبعثها، والتعريف بها في الصحف الأوربية؛ لتفتيت الدولة العثمانية، ومن ثمَّ الحصول على وطن لهم في فلسطين، فقامت هذه الجمعية بعمل خطير في الدولة العثمانية، ساعدها في ذلك اليهود، والمحافل الماسونية، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد التعرف على تحركات هذه الجمعية، وجمعَ معلومات كافية عنها؛ لكن هذا التعرف جاء متأخرًا؛ فالجمعية كانت قوية، واستطاعت دفع الأهالي إلى الخروج بمظاهرات في عدة مدن تركية، كسلانيك وغيرها، والمطالبة بإعادة الدستور الذي أمر السلطان بوقف العمل به عام: (**1877**م)، وإحياء البرلمان، وهددوا بالزحف إلى القسطنطينية؛ الأمر الذي أدى بالسلطان للرضوخ لمطالبهم، وكان هذا مما أخر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي عن عزل السلطان[3].

1- ينظر: أورخان، السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، مصدر سابق، ص: 212، وينظر: حرب، السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: 267.

2- النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 165.

3- ينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 212.

لكن اليهود الطامحين من وراء تعاونهم من جمعية الاتحاد والترقي للحصول على وطن لهم في فلسطين؛ لم يكفهم ذلك؛ فأقدموا على تدبير أحداث (**31**) مارت، عام: (**1909**) في إسطنبول، التي قتل فيها عدد من عساكر جمعية الاتحاد والترقي؛ فتحركت على إثرها عساكر الجمعية من سلانيك، ودخلت إسطنبول، وعزلت السلطان عبد الحميد، ووجهت له تهمة: أحداث (**31**) مارت، وغيرها من التهم.

عُزل السلطان عبد الحميد عن الدولة العثمانية عام: (**1909**م) ونفي إلى سلانيك، ووضع تحت الإقامة الجبرية، واعتبر اليهود والماسونيون ذلك اليوم عيدًا لهم، وخرجوا بمظاهرات معلنين فرحتهم وسرورهم، وعبرت الصحف اليهودية عن غبطتها في الخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذي رفض الاستجابة لطلب تيودور هرتزل، وقد كلف هذا الرفضُ السلطانَ عبد الحميد كثيرًا، وأودى بعرشه، وكان من أسباب انهيار الدولة العثمانية فيما بعد.[1]

اكتشف بعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فيما بعد أنهم وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية؛ ولكن بعد فوات الأوان، فهذا أيوب صبري (ت: **1890**م) قائد الاتحاديين العسكريين يقول: "لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفَّذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية، في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد؛ لتنفيذ مطالبهم، إلا أنه لم يقبل بذلك"[2]، وهذا أنور باشا (ت: **1922** م)؛ الذي لعب دورًا مهمًا في الانقلاب على السلطان عبد الحميد يقول لجمال باشا -أحد أهم أركان جمعية الاتحاد والترقي-: "أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال: نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي"[3]، وفي هذا الصدد يقول برنارد لويس (ت: **2018** م): "لقد تعاون الإخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد؛ لأنه كان معارضاً قويّاً لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فلسطين"[4].

1- ينظر: المصدر السابق، ص: 221.
2- النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 228.
3- المصدر السابق، ص: 228.
4- ينظر: عبد الحميد مذكرات السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص: ٥٦، وينظر: النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مصدر سابق، ص: 228.

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطة بعد السلطان عبد الحميد أخوه محمد رشاد؛ إلا أنه لم يكن يملك سلطة فعلية، وإنما كانت السلطة الفعلية بيد جمعية الاتحاد والترقي، وغدت الدولة العثمانية تركيةً في مضمونها، قوميةً في عصبيتها، بعد أن كانت عثمانية في مضمونها، إسلامية في رابطتها، وقد تأثرت جمعية الاتحاد والترقي بالأفكار الطورانية، فاتبعت سياسة التتريك؛ فتأججت لمواجهتها حركة الدعوة إلى القومية العربية؛ وكوَّن العرب جمعيات عدة، تنادي بالاستقلال الذاتي عن إسطنبول، بل إن الجمعية الاصلاحية في بيروت والنهضة في المهجر قد طلبتا من فرنسا احتلال سوريا ولبنان، بينما طالب بعض المثقفين العراقيين إنكلترا بفرض سيطرتها على العراق؛ فبطش الاتحاديون بأعضاء هذه الجمعيات العربية؛ مما حمل العرب بعد قيام الحرب العالمية الأولى عام: (**1914-1918** م) إلى الوقوف مع دول الحلفاء: (بريطانية، وفرنسا، وروسيا) في حين وقفت تركيا إلى جانب: (ألمانيا والنمسا) فسادت بذلك فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والأتراك، وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب، واحتل الحلفاءُ اليونانَ، وأجزاء من الدولة العثمانية.

وبعد هزيمة الدولة العثمانية وألمانيا في الحرب العالمية الأولى؛ أخذت دول الحلفاء تنفيذ مخططاتها التي وضعتها أثناء الحرب وبعدها، وأهما ما يأتي:

تقاسم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية، وتجلى ذلك في معاهدة سايكس بيكو السرية سنة: (**1916**م)، في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال.

وعد بلفور الذي أصدرته بريطانية للصهيونية، في: (**1917/11/2**م) بأن تكون فلسطين وطنًا قوميًا لليهود.

تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب، وتدمير للقيم الإسلامية، بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي، إلى دولة غربيَّةَ الطابع.

قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتلت إنجلترا إسطنبول أصبح الخليفة أسيرًا بأيديهم، وأصبح المندوبُ السامي البريطاني صاحبَ السيادة الفعلية فيها، وكانت لعبة الإنجليز في القضاء على الخلافة العثمانية تستدعي اصطناع بطل، تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة، وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة أملها فيه،

ينقض هذا البطل في أوج عظمته على الرمق الأخير في جسم الأمة؛ فينهشها، ويجهز عليها؛ فتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزية بنجاح باهر، وظهر اليهودي: مصطفى كمال أتاتورك، المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان.

قام أتاتورك باستثارة روح الجهاد في الأتراك، ورفع القرآن، ورد اليونان على أعقابهم، فتراجعت أمامه قوات الحلفاء، دون أن يستعمل الأسلحة، وأخلت أمامه المواقع، وبدأ أتاتورك يطفو على السطح، وابتهج العالم الإسلامي بهذه الانتصارات، ومدحه الشعراء والأدباء، ولكن أتاتورك لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته؛ صنيعةً لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى؛ وخاصة إنجلترا، التي رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين، وأن ذلك لا يكون دون اصطناع رجل كأتاتورك، واستطاعت إنجلترا أن تجد ضالتها في أتاتورك، وتحقق هدفها المنشود[1].

دلت أفعال أتاتورك فيما بعد على بغضه الشديد للإسلام وأهله؛ فبينما رفع بداية ظهوره شعار المحافظة على الخلافة، وتحرير البلاد وسلطانها من الرق؛ نجده بعد أن تمكن من الحكم عام: (**1923**م) يعلن عبر: (الجمعية الوطنية) قيام الجمهورية التركية، وانتخابه أول رئيس لها، وتظاهر أتاتورك بالمحافظة على الخلافة مؤقتًا، واختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفةً، بدلاً من محمد السادس، الذي غادر البلاد إلى مالطة، على متن بارجة بريطانية، لكن السلطان عبد المجيد لم يمارس شيئًا من سلطاته[2].

لم يطق أتاتورك أن يرى الناس يعبرون عن محبتهم للسلطان، ويظهرون تعلقهم بآل عثمان، أو بالخلافة؛ فمنع الخليفةَ من الخروج للصلاة، ثم خفض مخصصاته إلى النصف، وحكم البلاد بالدم والحديد، بعد أن ضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية، ودعا الجمعية التأسيسية في (**3**/ آذار/ **1924**م) إلى اجتماع، طرح عليها فيه مشروع قرار إلغاء الخلافة العثمانية؛ فأجيز القرار الذي شمل أيضًا نفي الخليفة دون نقاش، وانطفأت على يد أتاتورك شعلة الخلافة، التي كانت رمز وحدة المسلمين وقوتهم؛ منفِّذًا بذلك بنود معاهدة (لوزان) عام: (**1923**م) التي فرضت على تركيا قطع كل صلة

1- أبو غنيمة، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، مصدر سابق، ص: 53.

2- ينظر: المصري، جميل عبد الله، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة (المدينة المنورة: مطابع الجامعة الإسلامية، ط 1، 1986/1407) ص: 112/1.

لها بالإسلام، وإلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تامًا، وإخراج الخليفة وأنصاره من البلاد، ومصادرة أمواله، واتخاذ دستور مدني، بدلاً من دستور تركيا القديم، وعمَّ بذلك الاستياء الشديد العالمَ الإسلامي[1].

لقد نفذ أتاتورك المخطط التغريبي كاملاً، وابتعد بتركيا عن الإسلام؛ فألغى وزارة الأوقاف عام: (**1924**م) وضمها لوزارة المعارف، وفي عام: (**1925**م) أغلقت المساجد، وقضت حكومة أتاتورك بقسوة بالغة على كل تيار ديني، وفي عام: (**1932**م) حددت الحكومة عدد المساجد المسموح بها، ولم تسمح إلا بمسجد واحدٍ في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها: (**500**) متر، وأعلن أتاتورك أن الروح الإسلاميةَ تعوق التقدم، وتمادى كثيرًا في تهجمه على المساجد، فخفض عدد الواعظين فيها، وأمرهم أن يتحدثوا في صلاة الجمعة عن الشؤون الزراعية والصناعية، وأغلق أشهر جامعين في الدولة: مسجد آية صوفيا وحوله إلى متحف، ومسجد الفاتح وحوله إلى مستودع، واتخذ من الإجراءات، وسن من القوانين ما من شأنه أن يقطع أي علاقة لتركيا بالإسلام، ويبث في الشعب التركي روح القومية؛ فعانى المسلمون تحت وطأته عناءً شديدًا[2].

أمام استبداد أتاتورك هذا، وعدائه للإسلام في تركيا؛ قام المسلمون فيها بثورات مسلحة، تطالب بإسقاط الحكم الأتاتوركي العلماني، المعادي للإسلام، ولا سيما في المنطقة الجنوبية الشرقية منها؛ فقمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير، وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء، وأهملت المنطقة لذلك اقتصاديًا وعلميًا؛ إلى أن قامت حركة النور، بزعامة الشيخ: بديع الزمان النورسي (ت: **1379** هـ)، وتلاميذه من بعده.

كتب النورسي العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان: (رسائل النور)؛ لتوعية المسلمين بدينهم، ومقاومة المبادئ الكمالية العلمانية، ولم تعمد حركته لحمل السلاح، بل اقتصرت على اللسان؛ فحاول أتاتورك استمالة النورسي، وناقشه واستنكر دعوته الناس للصلاة التي تفرق بين الناس بزعمه؛ فأجابه النورسي: "إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود"[3]؛ فسجنه أتاتورك، ثم نفاه؛ بعد أن اتهمه بمؤامرة قلب نظام الحكم؛ لكن دعوته استمرت في

1- ينظر: المصري، حاضر العالم الإسلامي، مصدر سابق، 113/1.
2- ينظر: المصدر سابق، 114/1.
3- ينظر: المصري، حاضر العالم الإسلامي، مصدر سابق، 122/1.

الانتشار بين صفوف الجامعيين، ومعسكرات الجيش، ودوائر الدولة، ثم مثُل النورسي للمحاكمة مرة أخرى، وأعيد بسببها إلى منفاه[1]، واستمر وضع المسلمين في تركيا على هذا الحال؛ إلى أن بدأت الدولة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم، بعد وفاة أتاتورك عام: (**1939** م)، وبدأت بذلك مرحلة جديدة في تاريخ تركيا.

1- ينظر: المصدر السابق، 122/1.

ورقات
في تاريخ القدس وفلسطين

(1) فضائل القدس والمسجد الأقصى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

فالمسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وقبلته الأولى، قال الله فيه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾ (الإسراء: 1)، صلى إليه رسول الله ﷺ وأصحابه سبعة عشر شهرًا، ثم ولَّى الله نبيه ﷺ إلى الكعبة، وجعلها قبلة المسلمين، روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه» يختص المسجد الأقصى بأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تشدُّ الرحال تعبدًا إلا لها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى» رواه البخاري.

ما أجر الصلاة في المسجد الأقصى؟ عن أبي الدرداء وجابر مرفوعًا: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي هذا ألف صلاة وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» رواه البيهقي. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ أيهما أفضل مسجد رسول الله، أو مسجد بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلى، وليوشكن أن لا يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس، خير له من الدنيا جميعًا، أو قال خير من الدنيا وما فيها» أخرجه الحاكم، وصححه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثا: حكما يصادف حكمه، وملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» فقال النبي ﷺ: «أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة» سنن ابن ماجه، صححه الألباني.

ما فضائل الأرض المحيطة بالمسجد الأقصى؟ عن معاوية بن حيدة قال: إن النبي ﷺ قال: «عليكم بالشام». وقوله ﷺ: «إن الله عز وجل قد تكفل لي بالشام وأهله». وعنه ﷺ: «ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام». وحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشام أرض المحشر والمنشر». وقد وصَّى النبي ﷺ بسكنى الشام فقال: «عليك بالشام فإنها خيرة الله في أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».

(2) فلسطين قبل الإسلام

فقد سكن العرب الفينيقيون ساحلَ البحر على أرض فلسطين قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، ثم جاءت بعدهم قبائل العرب الكنعانيين؛ فسكنت ضفةَ نهر الأردن الغربية، مُنسابةً إلى البحر المتوسط، وذلك بعد مجيء الفينيقيين إليها بنحو خمسمائة سنة، ولذا كانت تسمى بـ (أرض كنعان)، كما سكنتها قبائل من جزيرة (كريت) تسمى قبائل (فلستين)، واختلط أولئك الوافدون الجدد بالكنعانيين وغيرهم، وسميت المنطقة بعد ذلك بـ (فلسطين).

كان نبي الله إبراهيم ﷺ يعيش في العراق موطنه الأصلي، وبعد كفرِ قومِه بدعوته؛ هاجر وزوجتَه سارة، وابنَ أخيه لوط وغيرهم إلى أرض كنعان، عابرين نهر الفرات، ومن هذا العبور أطلق فيما بعد على بني إسرائيل اسم: (العبرانيين)، وفي أرض كنعان أوحى الله إلى إبراهيم ﷺ "إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك؛ فابتنى إبراهيم مذبحاً لله؛ شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس" وهذه الأرض هي بيت المقدس التي بني فيها المسجد الأقصى فيما بعد. بنى يعقوب عليه السلام في عهده معبداً على القبة التي اتخذها إبراهيم للعبادة، وصار مكانَ عبادة بني إسرائيل؛ إلى أن خرجوا إلى مصر، حيث يوسف عليه السلام، واستوطنها بعدهم الوثنيون، ثم أقام بنو إسرائيل في مصر إلى أن تسلط عليهم الفراعنة، ثم بعث الله إليهم موسى عليه السلام، وبدأ تعلق بني إسرائيل بالأرض المقدسة.

لـمَّا أغرق الله فرعون، ونجى موسى وبني إسرائيل؛ دعاهم موسى عليه السلام لدخول بيت المقدس، وتطهيرها من الوثنيين؛ فنكل بنو إسرائيل، وقالوا لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) ﴾ (المائدة: 24)؛ فكتب الله عليهم التيه في صحراء سيناء أربعين سنة، وفيها بنى موسى ﷺ قبة الزمان، التي كان يناجي فيها الله تعالى.

بعد أن انقضت مدة التيه؛ قاد يوشع بن نون عليه السلام بني إسرائيل، ودخل بهم الأرض المقدسة، وأقام تلك القبة على صخرة المسجد، واتخذوها قبلة، فلما بادت صلوا إلى الصخرة، وصلى إليها الأنبياء من بعدهم، وكانت قبلة المسلمين الأولى؛ إلى أن ولَّى الله نبيه ﷺ إلى الكعبة.

استولى العماليق على بيت المقدس بعد يوشع بن نون؛ طلبت بنو إسرائيل من نبيهم (صموئيل) أن يبعث لهم ملكاً، يقودهم في حرب العماليق؛ فملَّك عليهم طالوت، وكان في جيشه داود عليه رالسلام، الذي استطاع أن يقتل جالوت قائدَ جيش العماليق، ويفتح بيت المقدس؛ فتهيَّأ الأمر بعد ذلك لداود، وصار ملكاً على بني إسرائيل، وأخذ يعدُّ لبناء المسجد الأقصى (الهيكل)، ولكنَّ المنية عاجلته قبل ذلك؛ فقام ابنه سليمان عليه السلام بعده ببناء (الهيكل)، كما صحَّ بذلك الحديث عن نبينا ﷺ، وظلَّ المسجد قائماً بعده؛ إلى أن حاد أهله عن دين أنبيائهم؛ فسلط الله عليهم بختنصر، فاستولى على فلسطين، وسبى أهلها، ودمّر مسجدها (الهيكل)، وكان ذلك التدميرُ الأول له.

أعاد اليهود بناء المسجد الأقصى مرة أخرى بعد أن استولى الفرس على فلسطين، وظلوا تحت حكمهم؛ إلى أن استولى الأسكندر عليها، وتعاقب بعد ذلك على فلسطين البطالسة، والرومان الذين جددوا بناء المسجد (الهيكل) بعد أن هرم، وظل المسجد قائماً حتى بعث الله أنبياءه: زكريا وابنه يحيى، وعيسى بن مريم، عليهم السلام، وقد دلَّت نصوص الكتاب والسنة على أن المسجد كان قائماً زمنهم، وظل كذلك؛ إلى أن أقدم (طيطش) أحد ملوك الروم بعد زمن عيسى عليه السلام على تدمير بيت المقدس، بما في ذلك المسجد (الهيكل)، وكان هذا هو التدمير الثاني له، وظلَّ حال المدينة كذلك حتى وقعت حادثة الإسراء بنبيِّنا ﷺ.

(3) فلسطين في صدر الإسلام

فقد أسرى الله تعالى بنبيِّه محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، على البراق صبحةَ جبريل عليه السلام، وربط جبريل البراق بصخرة بيت المقدس، وفي المسجد جمع الله الأنبياء؛ فأمَّهم نبيُّنا محمد ﷺ، ودلَّ ذلك على أنه الإمامُ الأعظم، والرئيسُ المقدم، وكان ذلك إيذاناً ببدء العهد الإسلامي في الأرض المقدسة، وأنه الصبغة الأخيرة لها، وطيَّاً لصفحة بني إسرائيل من سجل التفضيل والاصطفاء أيضاً.

بعد معركة الأحزاب بعث رسول الله ﷺ رسائل إلى ملوك الدول، يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ فأدرك الروم بعدها خطورة الإسلام على المسجد الأقصى؛ فأخذوا يعدون لقتالهم، ووقع أول قتال بينهم في مؤتة عام (**8** هـ)، ثم إن رسول الله ﷺ سار إليهم في معركة تبوك؛ لكنَّ الروم فروا، ولم يلقَ رسول الله فيها قتالاً، وبعدها أعدَّ ﷺ جيشاً لقتالهم بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه؛ لكنه ﷺ مات قبل انطلاق أسامة رضي الله عنه بجيشه، وأمضاه بعده أبو بكر رضي الله عنه.

في عام: (**15** هـ) عيَّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قائداً عاماً لجيوش المسلمين في الشام، ووجهه لفتح بيت المقدس؛ فحاصرتها جيوش المسلمين نحواً من أربعة أشهر، ثم طلب أهلها الصلح؛ على أن يتولى تسلم المدينة منهم: الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فأجابهم أبو عبيدة لذلك، وأرسل إلى عمر رضي الله عنه؛ فجاء عمر رضي الله عنه وغلامَه إلى بيت المقدس، ولـمَّا أشرف عليهم رضي الله عنه كان يقود البعير بغلامه؛ فأكبرته النصارى لذلك وعظَّمته، فكتب لهم عمر رضي الله عنه وثيقة أمان، التي عرفت بـ (العهدة العمرية) منحهم بموجبها حرية الاعتقاد، وأمَّنهم فيها على صلبانهم وكنائسهم، ولبى طلبهم في إخراج اليهود من بيت المقدس.

دخل عمر رضي الله عنه بيت المقدس صحبةَ بطريرك النصارى، ينظر آثار الأنبياء فيها، وصلى في محراب داود عليه السلام، وصلى بالمسلمين صلاة الفجر من الغد، وأزال والمسلمون الأذى عن الصخرة، وسأل كعبَ الأحبار رضي الله عنه أين يبني المسجد؛ فأشار عليه كعب أن يجعله وراء الصخرة؛ فيجمع بذلك بين قبلة اليهود وقبلة المسلمين؛ فقال له عمر رضي الله عنه: ضاهيتَ اليهودية، ثم جعل المسجد في قِبْلِيِّ بيت المقدس، وهو المسجد العُمَري اليوم. كان من الأماكن التي دخلها عمر رضي الله عنه في بيت المقدس كنيسةُ القيامة، ولـمَّا أدركته الصلاة فيها؛ طلب منه البطريرك أن يصلي فيها لأنها من مساجد الله؛ فامتنع عن ذلك رضي الله عنه؛ خشيةَ أن يتبعه المسلمون، ويظنوا أن عمله سنة مستحبة، فيكرهوا بذلك النصارى، ويخرجونهم منها؛ مخالفين بذلك عهد الأمان، الذي كتب لهم رضي الله عنه، ولأجل ذلك امتنع عن الصلاة في كنيسة قسطنطين أيضاً.

(4) فلسطين في العصر الأموي والعباسي

عيَّن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، وكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتولى الإمامة والخطابة في المسجد الأقصى أحياناً، ولـمَّا آلت إليه الخلافة؛ نودي له بالبيعة في القدس، كما أن البيعة أخذت لأكثر من خليفة أموي في المسجد الأقصى، على ظهر الصخرة، منهم: الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان.

بعد أن آلت الخلافة الأموية إلى عبد الملك بن مروان؛ اهتمَّ بعمارة المسجد الأقصى اهتماماً كبيراً، وكذا فعل ابنه الوليد من بعده، فقد وجَّه عبد الملك بن مروان الأموال لبناء **مسجد قبة الصخرة**، ووكل على ذلك: رجاء بن حيوة، ويزيد بن سلام، وجمع لذلك الصناع من أطراف البلاد، وأمر رجاءَ بن حيوة ومن معه أن يفرغا الأموال على المسجد، ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، وبنوا القبة؛ فجاءت من أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون، وعملا للقبة جلالين: أحدهما من اليود الأحمر للشتاء، وآخر من أدم للصيف، وحفَّاها بأنواع الستور، وفرشاها والمسجد بأنواع البسط، وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك، والعنبر والزعفران، وكان الرجل إذا رجع من بيت المقدس إلى بلاده؛ توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياماً، ويعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس، وأنه دخل الصخرة، وما يزال مسجد قبة الصخرة قائماً معروفاً إلى يومنا هذا، ذو قبة ذهبية، في قلب السور القديم للمسجد، الذي يضم نحواً من مائتي مَعْلم، بين مسجد، ومأذنة، ومصطبة، وغيرها.

بنى عبد الملك بن مروان ما يعرف اليوم بالمصلى المرواني، وكان يطلق عليه التسوية الشرقية، والمقصود منها: تسوية هضبة المسجد الأقصى؛ ليتسنى بناء المسجد على أرض مستوية. يقع المصلى المرواني في الجهة الجنوبية الشرقية داخل سور المسجد الأقصى، ويتكون من (**16**) رواقاً، ويعدُّ أكبرَ مساحقة مسقوفة داخل المسجد الأقصى اليوم، خُصص زمن عبد الملك بن مروان لدراسة الفقه، والعلوم الشرعية، وظل عامراً كذلك؛ إلى أن استولى الصليبيون على القدس عام: (**492** هـ)؛ فحولوا هذه التسوية إلى اسطبلات لحيواناتهم، ومخازن لأسلحتهم، ولـمَّا فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس عام: (**583** هـ)؛ أعادها لـما كانت عليه سابقاً، ثم هُجر هذا المكان سنوات طويلة؛ إلى أن أطلق الشيخ: رائد صلاح نداءً لإعادة إعمار الأماكن المقدسة، فأعيد ترميم المصلى المرواني، وأُعدَّ للصلاة، وذلك عام: (**1996**)، بإشراف هيئة الأوقاف، ولجنة الإعمار في المسجد الأقصى.

ضرب زلزال بيت المقدس عام: (**131** هـ) أواخر العهد الأموي، أدى لتهدم الجزء الشرقي والغربي من المسجد؛ ولـمَّا زاره الخليفة العباسي: أبو جعفر المنصور، عام: (**141**هـ)؛ أمر بإعادة بنائه وترميمه، وبعد ذلك ضرب المسجدَ أكثرُ من زلزال، كان الخلفاء العباسيون يقومون على إصلاح ما تهدم منه، وقد عمَّ الأمنُ بيت المقدس زمن الخلفاء العباسيين، في عصورهم الزاهية.

وقد استولى الفاطميون العبيديون على بيت المقدس، ثم استرده منهم القائد السلجوقي: ألب أرسلان، ثم استطاعوا الاستيلاء عليه مرة أخرى، وظلَّ في إيديهم حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى عام: (**491** هـ).

(5) فلسطين والحلمة الصليبية الأولى

أدى انتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذ كرد عام: (**463** هـ) إلى تغير أوضاع نصارى المشرق؛ مما اضطرهم إلى توجيه نداء استغاثة إلى بابا الفاتكان؛ فاستغل البابا هذا النداء، وقام بعقد مؤتمر في فرنسا، عام: (**1095**م) عرف بمؤتمر: «كليرمونت» دعا فيه أوروبا كلها إلى إنقاذ قبر المسيح، والأرض المقدسة من ذلكم الجنس اللعين الذي طغى فيها، وصور لهم بشاعة ما يلقاه النصارى على يد السلاجقة المسلمين؛ فألهبت كلماتُه هذه حماسة أوربا، وأثارت حنقها على المسلمين، وتعالت لذلك أوروبا على كل خلافاتها، ونزاعاتها، وأحقادها، واجتمعت على حرب المسلمين، فجهزت الحملة الصليبيَّة الأولى على بلاد المسلمين.

وصلت الحملة الصليبية الأولى بحرَ القسطنطينية عام: (**491** هـ)، وكان قوامها قرابة مليون مقاتل، ومنه سارت إلى بيت المقدس، واستولت في طريقها إليه على المدن والقرى الشامية، مرتكبةً أبشع المجازر والخيانات، ولم يستطع السلاجقة الوقوف بوجهها؛ نظرًا للتمزق السياسي الذي أصابهم، والخراب الاقتصادي الذي عمَّ بلادهم، وفي عام: (**492** هـ) وصل الصليبيون بيت المقدس، وكان الفاطميون -حكام مصر- قد أرسلوا جيشًا لحماية القدس من الصليبيين، فحاصر الصليبيون القدس (**39**) يوماً، ضربَ أهلُها خلالها أروع الأمثلة في البطولة، والدفاع عنها، وقاتل معهم الفاطميون، ثم سرعان ما انسحب الفاطميون من القدس؛ فانهارتْ بعدها قوة المسلمين، ودخل الصليبيون بيت المقدس.

توجَّه الصليبيون إلى المسجد الأقصى؛ فقتلوا فيه أكثر من سبعين ألف مسلم؛ مَّمن احتمى فيه من العلماء والعُبَّاد والزُّهاد، وغيرهم، ثم توزَّعوا في القدس فقتلوا أهلها، ومارسوا فيهم أبشع صنوف القتل والتعذيب، فقطعوا الرؤوس، وجمعوها أكوامًا، وكذا فعلوا بالجثث، وكانوا يرمون الناس من الشواهق، حتى لقد غاصتْ خيولهم بدماء القتلى، فلم يعد يُرى في المدينة إلَّا الموت، والجثث، والأشلاء، ودخلوا على اليهود في معبدهم؛ فأحرقوهم فيه، ولا يُعرف كم كان عددهم فيه.

بعد أن انتشرت رائحة الموت في بيت المقدس، وعلتْ أصوات أجراس النصارى فوق المسجد الأقصى، ودُنِّستْ الصخرة، ورُفع عليها الصليب؛ صحتْ الأمة من سباتها، ونهضتْ لمقاومتهم، وبقي الصليبيون في بيت المقدس واحداً وتسعين سنة، لا يرفع في المسجد الأقصى أذان، ولا تقام فيه جمعة، ولا جماعة! إلى أن أكرم الله هذه الأمة بنور الدين، وبعده صلاح الدين؛ فخلص المسجد من رجس الصليبيين، وذلك عام: (**583** هـ).

(6) القدس في قبضة الصليبيين وبدايات المقاومة الإسلامية

استطاع بعض المقدسيين الهرب من القدس -بعد سقوطها- إلى دمشق، ومنها إلى بغداد، يستنهضون الخليفة العباسي؛ ليعلن النفير العام ضد الصليبيين، وينقذ من تبقى من أهل القدس المسلمين، ولكن الخليفة كان أضعف من أن يحرك ساكناً؛ فوجههم إلى السلاجقة، الذين لم يرفعوا بذلك بالاً؛ فلاقى من بقي من المسلمين في القدس شتى أنواع القتل والعذاب؛ حتى إن الصليبيين أخذوا يبقرون بطون المسلمين؛ ظانين أنهم قد ابتلعوا نقودهم ودراهمهم، ولـمَّا طال عليهم ذلك؛ أخذوا يجمعونهم أكواماً ويحرقونهم، ثم يبحثون في رمادهم عن الدراهم والنقود، وقد اختصر الصليبيون ما فعلوه بأهل القدس في رسالتهم إلى البابا قائلين: "**إذا ما أردت أن تعلمَ ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة، فثِقْ أنَّه في إيوان سليمان، أو معبده؛ كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين المتدفّقة إلى ركبتيها**".

أحدث الصليبيون تغييرات كثيرة في المسجد الأقصى، وفيما جاوره من أجزاء البلدة القديمة، لكنهم لم يمسوا قبة الصخرة بسوء، وإنما حوَّلوا مسجدها إلى كنيسة، رفعوا عليها الصليب، ووضعوا فيها التماثيل والصور، واتخذوا من مكان الأروقة المعمدة مستودعات لأسلحتهم، وجعلوا زاوية الحرم الجنوبية الشرقية اصطبلات لخيولهم،

وبنوا في القدس عدداً من الكنائس. أقام الصليبيون مملكة لاتينية، امتدت من بيروت إلى العقبة، اتخذوا القدس عاصمة لها، ثم أنشؤوا في القدس فرقتين كبيرتين، هما قوام مملكتهم، الأولى اسمها: (الداوية) اختصت بقتال المسلمين بشراسة وهمجية، ولقي المسلمون منها شدةً واضطهاداً، والثانية اسمها: (الاستبارية) عملها الاهتمام بحجاج بيت المقدس، والمرضى النصارى، ثم تحولت والداوية إلى هيئة حربية، مقرها المسجد الأقصى.

أدرك الصليبيون أن مُقاهم في القدس مرهون بالاستيلاء على ساحل البحر المتوسط؛ ليبقى باب التواصل مع أوربا مفتوحاً، وبإثارة النعرات والخلافات بين المدن الإسلامية؛ لتبقى مقسَّمةً ضعيفةً، أعانهم على تحقيق ذلك: الباطنيون الإسماعيليون. هبَّ المسلمون بقيادة السلاجقة لقتال الصليبيين، وتخليص المسجد الأقصى من أيديهم، وبدأت معاركهم من أرض الجزيرة الفراتية، التي كانت أول من اكتوى بنار الصليبيين، واستطاعوا أن يهزموهم في عدة معارك، كان من أعظمها: معركة حرَّان، وظلوا يقاتلون الصليبيين بقيادة السلاجقة؛ إلى أن ظهر على ساحة الجهاد: عماد الدين زنكي، وبظهوره بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحروب الإسلامية الصليبيَّة.

(7) فلسطين بين مشروع نور الدين وتحرير صلاح الدين

ارتبط تحرير بيت المقدس عند كثير من المسلمين بصلاح الدين الأيوبي، وغاب عنهم ذكر الرجل العظيم، الذي رسم صورة النصر وخطط له، ووضع قواعده وأرساها، وأعدَّ له الرجال وهيَّأها؛ إنه القائد العظيم: نور الدين محمود زنكي، الذي جعل من عمر بن عبد العزيز قدوةً له في استنهاض الأمة، وإعادة بنائها؛ وما كان صلاح الدين إلا ثمرة من ثمرات مشروعه الكبير، فلم يترك نور الدين الصليبيين يشعرون بالأمن في بلاد المسلمين، بل ظل يطاردهم من مكان لمكان، ومن حصن لحصن، وعيونه على بيت المقدس، حتى إنه قضى أكثر حياته على ظهور الخيل، وكان من أهم أعماله: هزيمة الفاطميين حكام مصر، وتولية صلاح الدين عليها، الذي استطاع تطهيرها من آثارهم.

معركة حطين الصغرى: كانت معركة صفوريَّة باكورة انتصارات صلاح الدين الكبرى على الصليبيين، كسر فيها شوكتهم، وكبَّدهم خسائر كبيرة؛ فاستعدوا للقائه ثانية؛ فاستدرجهم صلاح الدين إلى سهل حطين، واستطاع أن يحول بينهم وبين ماء

طبرية، ودارت بينهم معركة حطين (583 هـ)، هزمهم فيها صلاح الدين نفسيًّا؛ قبل أن يهزمهم عسكريًا، وذلك بعد أن استولى على صليبهم الأكبر صليب الصلبوت، فوهن ذلك فيهم فهزموا؛ بعد أن قتل منهم خلقٌ كثير، ووقع كثير منهم في الأسر، على رأسهم الملك: جاي، والأمير: أرناط، وكانت معركة حطِّين مقدمةً لفتح بيت المقدس.

فتح بيت المقدس: توجَّه صلاح الدين إلى القدس في نفس العام (583هـ)، وعرض على أهلها الصلح، وتسليمها دون قتال، لكنَّهم أبوا وتعنتوا، فأقسم ألا يدخلها إلا بحدِّ السيف، فحاصرها، وبدأتْ ضرباته إليها، ودام حصارها أيامًا، حتى إذا ما ضعف أهلها، وملُّوا القتال، وأيقنوا أنَّ المدينة ساقطة؛ عرضوا عليه الصلح كما طلب، فأبى إلَّا أن يبرَّ بقسمه، فخرج إليه قسيس من قساوستها، وكلَّمه في أن يدخلها صُلحًا، ويأخذ الجزية ممَّن قدر على دفعها، ويأخذ البقية أسرى، وإلا فسيقتلون ذراريهم، ونساءهم، وأنفسهم؛ بعد أن يقتلوا من بأيديهم من أسرى المسلمين؛ فقبل صلاح الدين ذلك، وكفَّر عن يمينه، ثم دخل القدس سِلمًا بعد أيام من حصارها، وأخذ الجزية ممَّن قدر على دفعها من الصليبيين، ووقع الباقون في الأسر.

هرقل وأسرى الصليبيين: خرج هِرقل من القدس بخزائنه، تاركاً فقراء الصليبيين بيد صلاح الدين أسرى، لكنَّ صلاح الدين أحسن إليهم، ومَنَّ على أكثرهم، وضرب أروع الأمثلة في سماحة الإسلام، وحسن تعامله مع الأمم الأخرى، ثم دخل المسجد الأقصى، وطهره والقدس من أدران النصارى، وأقام للمسجد إمامًا، وخطيبًا، وقاضيًا، ثم أقيمتْ فيه أول صلاة جمعة، وعمَّتْ الفرحة بلادَ المسلمين بهذا النصر العظيم.

(8) فلسطين بعد صلاح الدين وتسليم المسجد للصليبيين

ما إن مات صلاح الدين الأيوبي؛ حتى أرسل الصليبيون حملة صليبيَّة رابعة لاسترداد بيت المقدس؛ هزمها خلفه: الملك العادل في اللاذقية؛ فأدرك بعدها الصليبيون أن مصر هي مركزُ المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضدهم، وأنها النقطة الأولى في طريق الاستيلاء على بيت القدس؛ فأرسلوا حملة صليبيَّة خامسة وجهتها دمياط، حاصرتها تسعة أشهر؛ عرض عليهم خلالها الملك الكامل التنازل لهم عن بيت المقدس، وعن كل الأراضي والمدن التي كانت بأيديهم قبل معركة حطين، ولكنهم رفضوا ذلك، واستطاعوا الاستيلاء على دمياط عام: (616 هـ)، وكان ذلك فاجعة عظيمة حلت بالمسلمين.

لقد كان الملك الكامل متساهلاً جدًا عندما قدَّم هذا العرض المغري للصليبيين؛ لكنه استطاع بعد ذلك هزيمتهم في المنصورة مقبرة الصليبيين، وأجبرهم على طلب الصلح معه، مقابل تنازلهم عن دمياط، وخروجهم من كامل مصر، وسلموا دمياط للمسلمين، عام: (**618** هـ)، وكان يومُها يوماً عظيماً من أيام الإسلام.

ما إن زال الخطر الصليبي عن بيت المقدس؛ حتى عاد الأمراء الأيوبيُّون إلى سالف عهدهم، وانبعثت الخلافات والنزاعات بينهم من جديد، فخرج الملك المعظَّم في الشام عن طاعة أخيه الملك الكامل في مصر، وأخذ يعمل لتوسيع ممالكه، فتحالف مع الخوارزميين لتحقيق ذلك؛ مما دفع الملك الكامل لمراسلة الامبراطور البيزنطي؛ ليمدَّه بقوة عسكرية، تضعف من قوة أخيه المعظم، على أن يمنحه الكاملُ بيتَ المقدس، والمدنَ الساحلية التي فتحها صلاح الدين، ولقد كان الملك الكامل ينظر إلى بيت المقدس على أنَّه عبءٌ ثقيلٌ، لا بدَّ من التخلص منه، لذلك كان كثيراً ما يعرضه على الصليبيين إن أحس بالخطر يهدد مركزه، وكأنه جاريةٌ في سوق النخاسة، متناسياً بذلك أنهار الدماء التي جرت لتخليصه من أيدي الصليبيين، بقيادة عمه صلاح الدين.

استغل الإمبراطور البيزنطي العرض المغري من الملك الكامل، وجاء بحملة صليبية سادسة، وقَّع خلالها صلحًا مع الكامل، عرف بصلح يافا، عام: (**627** هـ)، سلمت على إثره القدس للصليبيين، ودخلها الامبراطور فردريك الثاني. أغدق بعده الكامل المال على الأمراء الأيوبيين؛ ليتستروا على تسليم بيت المقدس للصليبيين، وقال لهم: "إنَّا لم نسمح للصليبيين إلا بالكنائس، والمسجد ما يزال على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم بالأعمال والضياع"، لكنَّ هذا الفعل الشنيع منه أثار حفيظة المسلمين، وعدوه تفريطاً عظيماً منه بحق الإسلام والمسلمين.

أمر الكامل قاضي نابلس أن يوعز إلى المؤذنين في القدس ألا يصعدوا المنابر، ولا يؤذنوا في الحرم؛ مراعاةً منه لمشاعر الامبراطور الصليبي؛ فعيرهم الامبراطور بذلك، وعابه عليهم، وقال لهم: "تغيِّرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون به عندنا". ظلَّت القدس بأيدي الصليبيين إلى أن استردها منهم: الناصر داود، عام: (**637** هـ).

(9) فلسطين بعد صلاح الدين واسترداد المسجد من الصليبيين

معركة حطين الصغرى: أدى النزاع بين الأيوبيين إلى التفريط ببيت المقدس مرة أخرى، وتسليمه للصليبيين؛ فبعد أن احتدم الصراع بين صاحب مصر، نجم الدين أيوب، وبين عمه صاحب دمشق الصالح إسماعيل؛ تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، ضد نجم الدين في مصر، وتعهد لهم مقابل ذلك أن يعطيهم بيت المقدس، ويعيد لهم مملكة الصليبيين، على ما كانت عليه قديماً، بما فيها الأردن؛ فثار المسلمون في مصر والشام على الصالح إسماعيل، ورفضت بعض حاميات جيشه أوامرَه، وانضمت إلى جيش نجم الدين في مصر، وسارع الصليبيون فاستولوا على بيت المقدس، وذلك عام: (**641** هـ) ودنسوا الصخرة، وأبطلوا الأذان والإقامة في المسجد الأقصى، وأعلنوا فيه بالكفر، وخرج الصالح إسماعيل صاحب دمشق بجيش كبير لغزو مصر؛ فانشقت الحامية الشامية عن الصالح إسماعيل، ومالت مع جيش مصر على الصليبيين، فهزموهم هزيمة عظيمة، عرفت بمعركة حطين الصغرى.

الخوارزميون والمسجد الأقصى: الخوارزميون مسلمون أتراك، كان لهم دولة كبيرة في خوارزم، سقطت على يد المغول عام: (**628** هـ)، تفرقوا بعدها في البلاد، فمنهم من ذهب إلى سلاجقة الروم، ومنهم من أوى إلى الأيوبيين في مصر، استعان بهم نجم الدين صاحب مصر؛ فاستطاعوا استرداد بيت المقدس من الصليبيين، عام: (**642** هـ) وطردهم منه، ثم توجهوا بعدها إلى مصر، واتحدوا مع جيش نجم الدين في مصر، وخاضوا مع الحلف الشامي الصليبي في غزة معركة عظيمة، هزموهم فيها هزيمة نكراء، وذلك عام: (**642** هـ)، استطاع نجم الدين أيوب بعد معركة غزة بسط سيطرته على غزة والقدس، وغيرها من المدن، وتوجيه ضربات موجعة للصليبيين.

شعر الصليبيون بعدها في أوربا بتعاظم قوة المسلمين في المشرق؛ فقاموا بإرسال حملة صليبية سابعة إلى المشرق الإسلامي، جعلوا على قيادتها الملك: لويس التاسع، وكانت وجهتها مصر؛ فاستعدَّ لها صاحب مصر أيما استعداد، وجرت في هذه الأثناء اتصالات بين الصليبيين والمغول؛ لاحتلال بيت المقدس، لكن هذه المراسلات لم تفلح، ورست الحملة قبالة دمياط، واستطاع الصليبيون الاستيلاء عليها عام: (**647** هـ)؛ رغم ما قام به الأيوبيُّون من تحصين سابق لها.

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط؛ قرروا الزحف إلى بيت المقدس بعد أن يستولوا

على القاهرة، وكان المسلمون بقيادة تورانشاه -الذي خلَف أباه نجم الدين أيوب- قد تمركزوا في المنصورة مقبرةَ الصليبيين، وفيها جرت بينهم وبين الصليبيين معركة عظيمة، انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة، ووقع فيها لويس التاسع أسيراً بيد المسلمين، مما اضطرهم لعقد صلح مع المسلمين، مدته عشر سنين، ينسحبون بموجبه من دمياط، وفشلت بذلك حملتهم الصليبية السابعة في الاستيلاء على بيت المقدس، ثم خلف المماليكُ الأيوبيين في الحكم، واستطاعوا تطهير بلاد الشام ومصر من الوجود الصليبي، والقضاء على آخر مملكة صليبية في الشام.

(10) تيودر هرتزل وفلسطين وموقف السلطان عبد الحميد

تيودر هرتزل وحاخامات اليهود: حبك تيودر هرتزل خيوط المؤامرة على فلسطين في مؤتمر (بال) في سويسرا، عام: (**1897**م)، وخرج المؤتمرون بقرارات عدة، رسمت طريق هجرة اليهود إلى فلسطين، وكان من أبرزها: محاولة الحصول على موافقات دولية على مشروعية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإنشاء شركات لتمويل شراء الأراضي الفلسطينية، إضافة لذلك وجَّه تيودر هرتزل رسائل إلى العائلة اليهودية الثرية: (روتشيلد) يلتمس منهم فيها الدعم المالي؛ لإنقاذ اليهود المعذبين في العالم، وقد لقيت دعوة تيودر للهجرة إلى فلسطين معارضةَ كثير من اليهود، على رأسهم الحاخامات، فكانوا يرونها قريبةً من الكفر؛ لأنها تستعجل إرادة الله في عودة اليهود لأرض الميعاد، كما أنها دعوة أشبه ما تكون بالخيال، ولكنه كان رجلاً عنيداً، مؤمناً بدعوته؛ فثبت عليها حتى أثمرت.

تيودر والسلطان عبد الحميد الثاني: أدرك تيودر هرتزل أن أمامه عقبة كبيرة لن يتمكن من تحقيق حلمه في فلسطين قبل أن يتجاوزها، وهي السلطان: عبد الحميد الثاني؛ فقابله عام: (**1902**) وعرض عليه قضاء ديون العثمانيين وغيرها من المغريات؛ مقابل إعطاء اليهود وطنًا في فلسطين؛ فرفض السلطان عبد الحميد كل تلك العروض، وأغلق كلَّ الأبواب في وجه تيودر؛ لأنه أدرك -قبل غيره- أبعاد هذه المؤامرة وأخطارها، وأخذ يتتبع تفاصيلها في العالم، ويتخذ من القرات في فلسطين ما يحدُّ بها من هجرة اليهود إليها؛ وأدرك تيودر واليهود أن وجود السلطان عبد الحميد يعني ضياع حلمهم في فلسطين؛ فعملوا على إسقاطه، وكان لهم ذلك بأيدي أعضاء جمعية: الاتحاد والترقي التركية.

وعد بلفور: كان من آثار هزيمة العثمانيين وألمانيا في الحرب العالمية الأولى؛ أن حصل تيودر هرتزل من صاحبه بلفور، وزير الخارجية البريطاني على وعد، يمنحهم فيه حقَّ إقامة وطن في فلسطين، وكان الوعد مجرد خطاب، لا يحمل أي صبغة قانونية، ومع ذلك أصبح الأصل الرئيس، الذي يعتمد عليه اليهود في إقامة دولتهم في فلسطين، وبعده أخذوا يتوافدون إليها، تدعهم في ذلك إنجلترا، وبدأت ضدهم حركات المقاومة الشعبية، وكان من أبرز قادتها: عز الدين القسام.

أخطر قرار اتُّخذ بحق فلسطين: في عام: (**1948**م) أُعلن قيام دولة إسرائيل؛ وفقًا لقرار الأمم المتحدة، الذي قضى بتقسم فلسطين إلى دولتين: يهودية وفلسطينية، وكان بعده النكبة، التي خسرت فيها خمس دول عربية الحرب مع إسرائيل.

قائمة المصادر والمراجع

أبو بكر الصديق الصلابي، علي الصلابي (بيروت: **1430** هـ/**2009** م).

أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، رضا، محمد رضا، تحقيق: خليل شيحا (دار الكتاب العربي، د. ط، **1424/2004**).

الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، التِر، عزيز سامح (بيروت: دار النهضة، ط **1**، **1409/1989**).

أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، الآجري، محمد بن الحسين، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط **2**، **1400/1980**).

الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، السلاوي، أحمد بن خالد، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، د. ط، د. ت).

أسد الغابة، ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (بيروت: دار الفكر، **1409/1989**).

الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، أحمد بن علي، تحقيق: عادل أحمد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط **1**، **1415** هـ).

إغاثة الأمة بكشف الغمة، المقريزي، أحمد بن علي، تحقيق: كرم حلمي (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط **1**، **1427/207**).

الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، الحميري، سليمان بن موسى (بيروت: دار الكتب العلمية، ط **1**، **1420**).

الإمام زيد حياته وعصره، أبو زهرة، محمد أبو زهرة (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، **1425/2005**).

أيعيد التاريخ نفسه، العبدة، محمد العبدة (لندن: المنتدى الإسلامي، ط **3**، **1419/1999**).

البداية والنهاية، ابن كثير، إسماعيل بن عمر (دمشق: دار الفكر، د. ط، **1407/1986**).

البغاء في مصر في العصر المملوكي، مصلحي، سامية علي، (القاهرة: حوليات آداب عين شمس، مج/ **33**، **2005**).

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المراكش، ابن عذاري، تحقيق ومراجعة: إِليفي بروفنسال (بيروت: دار الثقافة، ط **3**، **1983**).

تاج العروس، الزَّبيدي، محمد بن محمد، تحقيق: مجموعة من المحققين (دار الهداية، د. ت، د. ط).

تاريخ ابن الوردي، ابن الوردي، عمر بن مظفر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط **1**، **1417/1996**).

تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، ط **2**، **1408/1988**).

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، محمد بن أحمد، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط **2**، **1413/1993**).

تاريخ الإسلام، الذهبي، محمد بن أحمد، تحقيق: بشار عوّاد (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2003).

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط الأندلس ،الحجي، عبد الرحمن علي (دمشق: دار القلم، طبعة وزارة الأوقاف القطرية، 1433/2012).

تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، طقوش، محمد سهيل (بيروت: دار النفائس، ط 2، 1429/2008).

تاريخ الحروب الصليبية حروب الفرنجة في المشرق، طقوش، محمد سهيل، (بيروت: دار النفائس، ط 1، 1432/2011).

تاريخ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، المطوي، محمد العروسي (القيروان: دار الغرب الإسلامي، د . ط ، 1982).

تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، طقوش، محمد سهيل (عمَّان: دار النفائس، ط 1، 1424/2003).

تاريخ الخلفاء، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: حمدي الدمرداش (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1، 1425/2004).

تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، السيد، سيد محمد (القاهرة: مكتبة الآداب، ط 1، 1428/2007).

تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، متولي، أحمد فؤاد (القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر، د . ط، 2005).

تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، طقوش، محمد سهيل (بيروت: دار النفائس، ط 1430،3/2009).

تاريخ الطبري، الطبري، محمد بن جرير (بيروت: دار التراث، ط 2، 1387).

تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، طقوش، محمد سهيل (بيروت: دار النفائس، ط 3، 1434/2013).

تاريخ العراق السلجوقي، أمين، حسين أمين (بغداد : مطبعة الإرشاد، 1385/1965).

تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، السيد، محمود السيد (القاهرة: مؤسسة شباب الجامعة، د . ط، 1988).

تاريخ خليفة بن خياط، خياط، خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1397).

تاريخ دمشق، ابن عساكر، علي بن الحسن، تحقيق: عمرو بن غرامة (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د . ط، 1415/1995).

تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: دار المعرفة، ت، ط: 1432، ط: 4).

تاريخ سلاجقة الروم في آيبا الصغرى، طقوش، محمد سهيل (بيروت: دار النفائس، ط 1، 1423/2002).

تاريخ سلاطين بني عثمان، آصاف، عزتلو يوسف (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ط 1، 2014).

تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، النجار، عبد المجيد النجار (واشنطن: طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط **2**، ت:**1995** م).

التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى، تحقيق: محمود يوسف الدوحة: دار الثقافة، د. ت، **1405**).

جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، الغامدي، عبد الله سعيد (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه نوقشت عام: **1407**).

جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، أبو غنيمة، زياد أبو غنيمة (عمان: دار الفرقان، ط **1**، **1403/1983**).

حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، المصري، جميل عبد الله (المدينة المنورة: مطابع الجامعة الإسلامية، ط **1**، **1407/1986**).

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط **1**، **1387/1967**).

حصن بابليون وذات الصواري، شوقي، شوقي أبو خليل (بيروت: دار الفكر، ط **3**، **1998**).

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله (القاهرة: دار السعادة، د. ط، **1394/1974**).

الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني، هولاكو، متين هولاكو، ترجمة: محمد صواش (القاهرة: دار النيل، ط **1**، **1432/2011**).

الخلافة العباسية السقوط والانهيار، فوزي، فاروق عمر (عمان: دار الشروق، ط **1**، **2009**).

دولة الإسلام في الأندلس، المصري، محمد عبد الله (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط **4**، **1417/1997**).

الدولة الأموية دولة الفتوحات، مصطفى، نادية محمود مصطفى (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط **1**، **1417/1996**).

الدولة الأموية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك، الشريف، عبد الله الشريف (القاهرة: دار القاهرة، ط **1**، **2005**).

دولة السلاجقة، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: دار المعرفة، ط **4**، **1432/2011**).

الدولة العثمانية، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: دار المعرفة، ط **6**، **1431**هـ، **2010**م).

دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، الهرفي، محمد سلمان، (بيروت: دار الندوة الجديدة، **1405/1985**).

سلاطين الدولة العثمانية، كولن، صالح كولن (القاهرة: دار النيل، ط **1**، **1435/2015**).

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة الألباني، محمد ناصر الدين (الرياض: دار المعارف، ط **1**، **1412/1992**).

السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، الصلابي، علي الصلابي (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط **1**، **1430/2009**).

السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، حرب، محمد حرب (دمشق: دار القلم، ط **1**، **1410/1990**).

الدولة الأموية دولة الفتوحات، مصطفى، نادية محمود مصطفى (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 1417/1996).
الدولة الأموية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك، الشريف، عبد الله الشريف (القاهرة: دار القاهرة، ط 1، 2005).
دولة السلاجقة، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: دار المعرفة، ط 4، 1432/2011).
الدولة العثمانية، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: دار المعرفة، ط 6، 1431هـ، 2010م).
دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، الهرفي، محمد سلمان، (بيروت: دار الندوة الجديدة، 1405/1985).
سلاطين الدولة العثمانية، كولن، صالح كولن (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1435/2015).
سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة الألباني، محمد ناصر الدين (الرياض: دار المعارف، ط 1، 1412/1992).
السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، الصلابي، علي الصلابي (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1430/2009).
السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، حرب، محمد حرب (دمشق: دار القلم، ط 1، 1410/1990).
السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، أورخان، أورخان محمد (إسطنبول: بيوك جاملجة، ط 4، 2008).
السلطان عبد الحميد خان الثاني واليهود، قيصه كورك، نجيب فاضل، ترجمة: يوسف محلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1404/1984).
السلطان عبد الحميد مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، أرباجي، سيف أرباجي (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1432/2011).
السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: المكتبة العصرية، ط 1، 1431/2010).
السلطان محمد الفاتح، الرشيدي، محمد سالم (القاهرة: دار البشير، ط 2، 1434/2013).
سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، أمجان، فريدون أمجان (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1435/2014).
سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430/2009).
سنن الترمذي، الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1395/1975).
سنن الدارقطني، الدارقطني، علي بن عمر، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1424/2004).
السنن الكبرى، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 3، 1424/2003).
سير أعلام النبلاء، الذهبي: محمد بن أحمد، تحقيق: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ:

السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، أورخان، أورخان محمد (إسطنبول: بيوك جاملجة، ط 4، 2008).

السلطان عبد الحميد خان الثاني واليهود، قيصه كورك، نجيب فاضل، ترجمة: يوسف محلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1404/1984).

السلطان عبد الحميد مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، أرباجي، سيف أرباجي (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1432/2011).

السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية، الصلابي، علي الصلابي (بيروت: المكتبة العصرية، ط 1، 1431/2010).

السلطان محمد الفاتح، الرشيدي، محمد سالم (القاهرة: دار البشير، ط 2، 1434/2013).

سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، أمجان، فريدون أمجان (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1435/2014).

سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط 1، 1430/2009).

سنن الترمذي، الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1395/1975).

سنن الدارقطني، الدارقطني، علي بن عمر، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1424/2004).

السنن الكبرى، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 3، 1424/2003).

سير أعلام النبلاء، الذهبي: محمد بن أحمد، تحقيق: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405/1985).

سير السلف الصالحين، قوام السنة، إسماعيل بن محمد، تحقيق: كرم بن حلمي (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، د. ط، د. ت).

سيرة الوليد بن يزيد، عطوان، حسين عطوان (القاهرة: دار المعارف، د. ط، د. ت).

سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم، عبد الله بن عبد الحكم، تحقيق: أحمد عبيد (بيروت: عالم الكتب، ط 6، 1404/1984).

شعب الإيمان، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط 1، 1423/2003).

صحوة الرجل المريض، المرجة، موفق بني المرجة (الكويت: مؤسسة صقر الخليج، د. ط، 1984).

صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير الناصر (دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1، ت: 1422هـ).

صحيح مسلم، مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، د. ت).

الصَّحيحُ من أحاديث السّيرة النبوية، الصوباني، محمد بن حمد، (مدار الوطن للنشر، ط 1، 1432/ 2011).

الصهيونية: الغرب والمقدي والسياسة، الحسني، عبد الكريم الحسني (القاهرة: شمس للنشر والتوزيع، ط 1، 2010).

الطبقات الكبرى، ابن سعد، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1410/1990).

العبر في خبر من غبر، الذهبي، محمد بن أحمد، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت).

العثمانيون في التاريخ والحضارة، حرب، محمد حرب (القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، 1414/1994).

العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، يوسف، جوزيف نسيم (القاهرة: دار الكتب الجامعية، ط 3، 1971).

عصر الخلافة الراشدة، العمري، أكرم ضياء العمري (الرياض: مكتبة العبيكان، د. ت، د. ط).

عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، الشيح، عبد الستار الشيخ (دمشق: دار القلم، ط 2، 1417/1996).

العواصم والقواصم، أبو بكر ابن العربي، حاشية محب الدين الخطيب (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط 1، 1419).

الفتح العثماني للأقطار العربية، إيفانوف، نيقولاي، ترجمة: يوسف عطا الله (بيروت: دار الفارابي، ط 1، 1988).

الفتنة ووقعة الجمل، التميمي، سيف بن عمر، تحقيق: أحمد راتب (عمان: دار النفائس، ط 7، 1413/1993).

فتوح البلدان، البَلَاذُري، أحمد بن يحيى (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ط، 1988).

فتوح الشام، الواقدي، محمد بن عمر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1417/1997).

فتوح مصر والمغرب، ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ط، 1415).

الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، محمد علي بن أحمد، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، د. ت).

فضائل الصحابة، ابن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: وصي الله محمد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403).

فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد، أوزدمير، حسين أوزدمير (القاهرة: دار النيل، ط 1، 1434/2013).

في أصول التاريخ العثماني، مصطفى، أحمد عبد الرحيم (بيروت: دار الشروق، ط 3، 1406/1986).

في تاريخ المغرب والأندلس، العبادي، أحمد مختار، (بيروت: دار النهضة العربية، د ط، د. ت).

قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، السرجاني، راغب السرجاني (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 1427/2006).

قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، السرجاني، راغب السرجاني، (القاهرة: مؤسسة اقرأ، ط 2، 2009).

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، العبادي، أحمد مختار (بيروت: دار النهضة العربية، د. ط، 1406/1986).

الكامل في التاريخ، ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، تحقيق: عمر عبد السلام (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 1، 1417/1997).

كنز الدرر وجامع الغرر، الدواداري، عبد الله بن أيبك، تحقيق: بيرند راتكه، وآخرون، (الناشر: عيسى البابي الحلبي، د. ط، 1415/1994).

ماهية الحروب الصليبية، قاسم، قاسم عبده، (الكويت: إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990).

المتفق والمفترق، الخطيب، أحمد بن علي، تحقيق: محمد صادق (دمشق: دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1417/1997).

مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د. ط، 1416/1995).

محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، المبرد، يوسف بن حسن، تحقق: عبد العزيز بن محمد (المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط 1، 1420/2000).

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، الإفريقي، محمد بن مكرم، تحقيق: روحية النحاس وآخرون (دمشق: دار الفكر، ط 1، 1402/1984).

المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي (الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، د. ط، د. ت).

مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، عبد الحميد، عبد الحمد الثاني، ترجمة: محمد حرب (دمشق: دار القلم، ط 3، 1412،1991).

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1417/1997).

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي، تحقيق وتعليق: محمد بركات، وغيره (دمشق: دار الرسالة العالمية، ط 1، 1434/2013).

المستدرك على الصحيحين، الحاكم، محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1411/1990).

المستدرك على الصحيحين، الحاكم، محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1411/1990).

المسند، أحمد، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله عبد المحسن التركي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421/2001).

المصنف، عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي (الهند: المجلس العلمي، ط 2، 1403).

المعارف، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1992).

المعارف، الدينوري، عبد الله بن مسلم، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1992).

معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، غوانمة، يوسف حسن (عمَّان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1415/1995).

معجم ابن الأعرابي، الصوفي، أحمد بن محمد، تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم (الرياض: دار ابن الجوزي، ط 1، 1418/1997).

معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله (بيروت: دار صادر، ط 2، ت:1995).

المعجم الكبير، الطبراني، سليمان بن أحمد، تحقيق: حمدي بن عبد المجيدي (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط 2، د، ت).

معجم الْمَعَالِم الْجُغْرَافِيَّة فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الحربي، عاتق بن غيث (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ط 1، 1402/1982).

المعرفة والتاريخ، الفسوي، يعقوب بن سفيان، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1401/1981).

معركة الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، شوقي، شوقي أبو خليل، (دمشق: دار الفكر، ط 2، 1980).

المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، الجمل، شوقي الجمل (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1977).

المغرب عبر التاريخ، حركات، إبراهيم حركات (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، د. ط، 1420/200).

المغرب والأندلس في عصر المرابطين، بوتشيش، إبراهيم القادري (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، 1993).

المغنيات ودورهن في دولة سلاطين المماليك عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون، البطاوي، حسن أحمد (القاهرة: مجلة المؤرخ العربي، ع/20، 2012).

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، تحقيق: محمد عبد القادر، وغيره (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1412/1992).

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، أحمد بن علي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1418).

موجز عن الفتوحات الإسلامية أبو عُبيَّة، طه عبد المقصود (القاهرة: دار النشر للجامعات، د. ط، د. ت).

موجز عن الفتوحات الإسلامية، أبو عُبيَّة، طه عبد المقصود (القاهرة: دار النشر للجامعات، د. ط، د. ت).

نظام الملك كبير الوزراء في الأمة الإسلامية، محبوبة، عبد الهادي محمد (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1419/1999).

النظم المالية في مصر والشام زمن السلاطين المماليك، البيومي، البيومي إسماعيل (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، **1998**).

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ماجد، عبد المنعم ماجد (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط **2**، **1979**).

يهود الدونمة أصلهم نشأتهم حقيقتهم، قطب، محمد علي (دار الأنصار، ط **1**، **1978**).

اليهود والدولة العثمانية، النعيمي، أحمد نوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط **1**، **1417/1997**).

المحتويات

مقدمة الكتاب	03
محتوى الكتاب	06
الفصل الأول: عهد أبو بكر وعمر	07
المبحث الأول : عهد أبو بكر الصديق	08
إسلام الصديق وصحبته رسول الله ﷺ	08
سقيفة بني ساعدة وبيعة الصديق	10
ردة الأعراب عن الإسلام	11
حروب الردة	12
فتنة مسيلمة الكذاب	14
جمع القرآن	16
المبحث الثاني: الفتوحات الإسلامية زمن الصديق رضي الله عنه	17
فتوحات العراق	17
فتوحات الشام	18
معركة اليرموك	20
وفاة الصديق	25
المبحث الثالث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه	26
إسلام عمر وصحبته رسول الله ﷺ	26
عام الرمادة	28
المبحث الرابع: الفتوحات الإسلامية زمن الفاروق رضي الله عنه	31
فتوحات العراق	31
معركة الجسر	31

معركة القادسية	34
معركة نهاوند 21 هـ (فتح الفتوح)	42
فتح بيت المقدس (16 هـ)	43
فتح مصر	44
فتح الإسكندرية	46
وفاة الفاروق رضي الله عنه	47
الفصل الثاني: عهد عثمان وعلي	48
المبحث الأول: عثمان بن عفان رضي الله عنه	49
إسلام عثمان وصحبته رسول الله ﷺ	49
المبحث الثاني: الفتوحات الإسلامية زمن عثمان رضي الله عنه	51
الجبهة الشامية	51
الجبهة المصرية	52
شمال إفريقية	53
معركة ذات الصواري (31 هـ)	54
جمع القرآن	55
أقارب عثمان من الولاة	56
حقيقة العلاقة بين عثمان وأبي ذر رضي الله عنهما	57
المبحث الثالث: الفتنة ومقتل عثمان رضي الله عنه	59
إرهاصات الفتنة	59
فتنة عبد الله بن سبأ	59
أساليب عثمان في وأد الفتنة	61
جموع الموتورين تفدُ المدينة	66

الموتورون يجمعون على قتل عثمان	68
المبحث الرابع: علي بن أبي طالب رضي الله عنه	70
إسلام علي وصحبته رسول الله ﷺ	70
بيعة علي رضي الله عنه وخلافه مع معاوية ومحاولات الصلح	72
المبحث الخامس: الانتقال من المدينة إلى الكوفة والفتنة	75
انتقال علي إلى الكوفة ووقوع الفتنة	75
معركة الجمل	76
معركة صفين	77
قضية التحكيم	79
الفصل الثالث: الدولة الأموية	81
المبحث الأول: الدولة الأموية السفيانية	83
معاوية بن أبي سفيان (41 -60 هـ)	83
الفتوحات الإسلامية زمن معاوية رضي الله عنه	84
الفتوحات في الأراضي البيزنطية	85
الشمال الإفريقي زمن معاوية رضي الله عنه	86
الفتوحات في بلاد المشرق	87
ولاية العهد	88
وقعة الحرَّة سنة: (63 هـ)	90
المبحث الثاني: الدولة الأموية المروانية	92
مروان بن الحكم	92
عبد الملك بن مروان	92
المبحث الثالث: الفتوحات زمن عبد الملك وابنيه: الوليد وسليمان	94

الجبهة البيزنطية	94
الشمال الإفريقي والأندلس	94
فتوحات المشرق	97
المبحث الرابع: الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان	98
الوليد بن عبد الملك	98
سليمان بن عبد الملك	98
عمر بن عبد العزيز (99 – 101 هـ)	99
يزيدُ بن عبد الملك	101
هشام بن عبد الملك	102
الوليد بن يزيد	104
مروان بن محمد	106
أسباب سقوط الدولة الأموية وثورة العباسيين	107
الفصل الرابع: دولة السلاجقة والباطنيون	109
المبحث الأول: أصل السلاجقة وظهورهم على ساحة الأحداث	110
البويهيون	111
فتنة البساسيري	111
الأمير ألب أرسلان (ت: 465 هـ)	112
معركة ملاذ كرد (463 هـ)	113
الوزير نظام الملك (408 - 485 هـ)	114
السلطان ملكشاه	115
المبحث الثاني: الإسماعيلية النزارية والحسن بن الصباح	117
الحسن بن الصباح	117

الفصل الخامس: الدولة الزنكية وايوبية	**120**
المبحث الأول: الحروب الصليبيَّة (488 - 690 هـ/ 1096 - 1291 م)	**121**
تاريخ الحروب الصليبية	**121**
مؤتمر كليرمونت وانطلاق الحملة الصليبية الأولى	**122**
سقوط القدس	**124**
المبحث الثاني: الدولة الزنكية	**127**
عماد الدين زنكي	**127**
نور الدين زنكي	**128**
صلاح الدين أميراً على مصر	**128**
المبحث الثالث: الدولة الأيوبية (569 - 661/1174 -1263)	**129**
تحركات صلاح الدين بعد وفاة نور الدين	**129**
معركتي الرملة وصفورية	**130**
معركة حطين	**131**
فتح بيت المقدس	**132**
المبحث الرابع: الأيوبيُّون بعد صلاح الدين	**135**
الملك العادل	**135**
الملك الكامل	**136**
الحملة الصليبية السابعة	**140**
الفصل السادس: دولتي المرابطين والموحدين	**142**
المبحث الأول: دولة المرابطين (448 - 540 هـ/1056 -1145 م)	**143**
يوسف بن تاشفين (ت: 500 هـ)	**145**
يوسف بن تاشفين ودخوله الأندلس	**146**

معركة الزلاقة (479 هـ)	147
سياسة المرابطين الداخلية	150
المبحث الثاني: دولة الموحدين (524 - 668 هـ/ 1120 - 1270 م)	152
محمد بن تومرت (473 - 524 هـ)	152
عبد المؤمن بن علي (487 – 558 هـ)	159
عبد المؤمن بن علي ودخوله الأندلس	160
معركة الأراك (591 هـ)	162
معركة العقاب (609 هـ)	164
الفصل السابع: المغول ودولة المماليك	166
المبحث الأول: قيام دولة المغول	167
سقوط بغداد (656 هـ)	169
الأيوبيون والمغول	172
المبحث الثاني: دولة المماليك (648 - 923/1250 - 1517)	174
أصل المماليك	174
شجرة الدر	174
عين جالوت (658 هـ)	176
مقتل قطز وتولي بيبرس	179
الفصل الثامن: الدولة العثمانية	182
المبحث الأول: أبرز السلاطين العثمانيين	183
عثمان مؤسس الدولة العثمانية (699 - 726 هـ)	183
أورخان بن عثمان (726 – 761 هـ)	184
مراد الأول (761 - 791 هـ)	185

بايزيد الأول (791 - 805 هـ)	186
محمد الأول (804 -824 هـ)	188
بدر الدين محمود بن إسرائيل	188
مراد الثاني (824 - 855 هـ)	189
المبحث الثاني: فتح القسطنطينية والسلاطين بعدها	191
السلطان محمد الفاتح (855 - 886 هـ)	191
فتح القسطنطينية (857 هـ)	191
بايزيد الثاني (886 - 918 هـ)	195
سليم الأول والمماليك (918 - 926 هـ)	196
سليمان القانوني (926 - 974 هـ)	198
المبحث الثالث: العثمانيون والشمال الإفريقي	199
خير الدين بربروسة وتحالفه مع العثمانيين	199
سليمان القانوني ومحاولة استعادة الأندلس	200
المبحث الرابع: اضمحلال الدولة العثمانية	204
سليم الثاني (974 -982 هـ)	204
السلطان عبد الحميد الثاني	205
السلطان عبد الحميد ومشروع الجامعة الإسلامية	209
السلطان عبد الحميد واليهود	211
يهود الدونمة	211
السلطان عبد الحميد وهرتزل	213
السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي	214
حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية	218

ورقات في تاريخ القدس وفلسطين 222

(1) فضائل القدس والمسجد الأقصى 223

(2) فلسطين قبل الإسلام 224

(3) فلسطين في صدر الإسلام 225

(4) فلسطين في العصر الأموي والعباسي 227

(5) فلسطين والحلمة الصليبية الأولى 228

(6) القدس في قبضة الصليبيين وبدايات المقاومة الإسلامية 229

(7) فلسطين بين مشروع نور الدين وتحرير صلاح الدين 230

(8) فلسطين بعد صلاح الدين وتسليم المسجد للصليبيين 231

(9) فلسطين بعد صلاح الدين واسترداد المسجد من الصليبيين 233

(10) تيودر هرتزل وفلسطين وموقف السلطان عبد الحميد 234

قائمة المصادر والمراجع 236


تم بحمد الله



جمعية البلاغ الثقافية

Al-Balagh Cultural Association



إسلام أون لاين

/ISLAMONLINE

/ISLAMONLINE_NET

@ISLAMONLINE

/ISLAMONLINE

islamonline.net/apps

T : +974 44 56 7777 F : +974 445 67766 P.O.Box : 22212 Doha-Qatar
Email : info@islamonline.net Web : balaghcs.org


جمعية البلاغ الثقافية
Al-Balagh Cultural Association